

حَدِيثُ الْإِفْكَ

كما جاء في سورة النور وأثر المنافقين فيه

تأليف

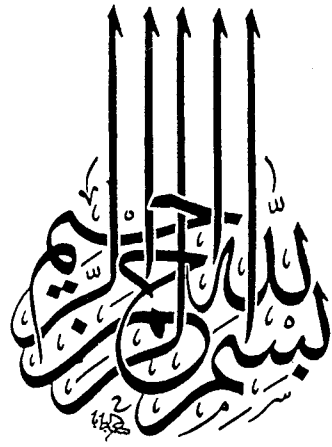
عبد الحليم بن إبراهيم العبد اللطيف

من إصدار نادي القصيم الأدبي ببريدة

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

حقوق الطبع محفوظة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وهو على كل شيء قدير، وأصلي وأسلم على نبيِّه المصطفى وخليله المجتبي - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين - الذين آمنوا بالإسلام عقيدة ومنهاجاً وأسلوب حياة فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس . . .

وبعد:

فهذا بحث أقدمه وأقوم به بحول الله تعالى

تحت عنوان

«حديث الإفك كما جاء في سورة النور وأثر المنافقين فيه»

راجياً من الله العلي القدير أن أكون موفقاً في عملي هذا وأن أسهم قدر الطاقة في دراسة كتاب الله العزيز وتفهمه، ومعرفة كنوزه التي لا تنفذ فهو معين صاف عذب زلال، ما أحوج العالم أجمع إلى معرفته وتدبره والرجوع إليه والتحاكم إلى ما فيه، وأن العالم كله حائر مضطرب ملتهب وما فيه من نظم وقوانين من وضع البشر قد عجزت كلها وأفلست في علاجه وشفاء أمراضه وإسعاده من شقوته، ولا علاج له ولا فلاح، ولا نجاح في الدنيا والآخرة إلا بالعودة بالحياة كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - ففيهما الدواء، ومنها يطلب الشفاء . . . ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . . .﴾^(١) فالإسلام رحمة، والتدين سعادة، والإقبال على الله حظوة ومنة من الله على عبده ليعيش في كنف الله وفي أمنه .

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

وعلى النقيض من ذلك حال الكافرين، والجاحدين المعاندين الضالين فهم في حيرة من أمرهم واضطراب في أفكارهم .

وهذا الموضوع ذو أهمية بالغة، وإن كان العلماء - رحمهم الله تعالى - قد طرّقه، وتعرضوا له كثيراً في كتبهم - كتب التفسير والسير وغيرها - إلا أنه رغم ذلك كله لازال يحتاج إلى دراسة أكثر وجهد أوفر، ويحتاج إلى دراسات مستقلة وواضحة، فأغلب البحوث التي اطلعت عليها منشورة في بطون الكتب ذات الموضوعات المتعددة . . . وموضوع هام كبير كهذا يتعلق بشخص صاحب الرسالة السماوية الخالدة يحتاج إلى دراسة متخصصة وجهود كبيرة للرد على شبهات المارقين والمنافقين والمستشرقين واليهود الذين مازالوا يكيّدون للإسلام وأهله، ويثيرون الشبه والشكوك بين حين وآخر، وكثيراً ما يقع في حبائلهم بعض المسلمين الذين لم يتم تحصينهم ضدّ إفتراءات المفترين، وشبه الملحدين الضالين، فهم لا يزالون يثيرون شتى الشبه والشكوك الكاذبة ضد صاحب الرسالة العظمى - ﷺ - فهذا دأبهم وديدنهم منذ بعثته - ﷺ - إلى يومنا هذا، فهم ينازعون عناداً من أجل الإفساد والتضليل - سلاحهم الكذب والإفتراء - وبث مختلف الإشاعات والأراجيف . . . ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴾^(١) .

فأعداء الرسل كثير منذ وجدت الخليقة على ظهر هذه الأرض، فهذا رسول الله - ﷺ - سيد الأولين والآخرين وأشرف مخلوق وهو في المكانة العليا في كل شيء يرمى في زوجته الحبيبة الطاهرة العفيفة الزاكية والعالمة «الحافظة» ذات الفضائل والشمائل العديدة والفريدة، فلا يملك سوى الاعتماد على الله في كشف الملمات وقضاء الحاجات، ويتحدث بعض الناس في المدينة المنورة شهراً كاملاً بهذا البهتان والإفك المفترى والألم يعصر

(١) سورة التوبة، الآية (٣٢).

قلبه ويتعب فؤاده، فهم يقولون منكرًا من القول وزورًا، وهو صاحب سلطان وقوة، فلا يتعرض لأحد، ينتظر وحي السماء. . . إنها القيادة الحقة، والريادة الصادقة، والإمامة العادلة لا ينتصر لنفسه، ولا يثار لشخصه. . .

وهذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أخوه في الإسلام، صاحبه وأحبّ الرجال إليه، الرجل الوقور الصادق الصدوق، ومن الذي ينكر فضل أبي بكر وسبقه في الإسلام - أقول - هذا أبو بكر يطعن في ابنته ويرمى في أعزّ شيء إليه، ابنته، وها هو يقول: «والله ما رمينا به في الجاهلية أفرمى به في الإسلام»^(١).

إنها كلمات تحمل في طياتها من الألم والمرارة الشيء الكثير، وها هي الصديقة بنت الصديق، الكريمة الفاضلة، الحافظة الواعية للقرآن والسنة، الطيبة الطاهرة النزيهة النقية، ترمى في أعزّ ما تملك وهو شرفها وعرضها النقي النظيف، فلا تملك سوى الاعتماد على الله، وتسليم الأمر إليه، وطلبه المدد والنصرة، وتفريج الكرب منه وحده دون سواه، وهذا غاية الإيثار، وتظلّ في هذا العذاب القاتل، والهلم المميت شهراً كاملاً، حتى كاد يقتلها الأسى والحزن، وكادت الحسرة تفتك بها وتذيب قلبها.

والصحابي الجليل، المجاهد العفيف «صفوان بن المعطل» أتهم في شرفه وعرضه وأمانته ونزاهته حيث وصف بالخيانة وضعف الديانة.

لقد أتهم في أعزّ ما يملك حيث وصف بخيانة رسول الله - ﷺ - في زوجه الطاهرة.

(١) انظر الواقدي / ٤٣٣/٢، والطبري / ٦١٦/٢، ومنهاج النور في إصلاح النفس والمجتمع / دكتور كامل سلامة القدس / ١٦٦، ومن مفردات القرآن المنافقون / الدكتور محمد جميل غازي / ١٤٦.

لهذه الأسباب مجتمعة اخترت هذا الموضوع لأهميته ومكانته في نفسي راجياً أن أوفق في جمع شتات هذا الموضوع وردّ كيد الكائدين ودحض شبه المارقين والمعاندين من أعداء الإسلام، والله يتولى الصالحين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد كانت خطتي في البحث أن استقيت مادته من أمهات كتب التفسير مسترشداً ومستهدياً بكلّ ما ورد فيها عن هذا الموضوع، ومنقباً عن كل ما له صلة به إلى جانب كتب شروح الحديث وكتب التاريخ والسير وما جاء فيها بصدد ما كتب فيه، ومع هذا لم أجد بدءاً من الرجوع إلى كتب الفقه وما دونّ فيها من أحكام ذات صلة به، وفي كل هذا لم آل جهداً ولم أقصر في حدود طاقتي وإمكاناتي بحثاً وتنقيباً آملاً إبرازه في الصورة التي أرجوها له مما حفزني إلى استقصاء عناصره وجزئياته فيما تناولها من الكتب والمؤلفات قديمها وحديثها مما أمكنني الاطلاع عليه فلا ريب أن العلم طريق ممتد من أعماق الحقب الخوالي، ويستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تضيئه مصابيح المعرفة المستمدة من نور الحق على تعاقب العصور وتواليها . . .

وقد جعلت بحثي هذا من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة :-

أمّا المقدمة فتناولت مبحثين :

أحدهما : بيان كون القرآن هو المعجزة الخالدة .

ثانيهما : معالجة القرآن لأحداث الحياة، وأنه يحسم فيها حسماً قاطعاً .

وأما الباب الأول : ففي النفاق : مظاهره ودوافعه، ويشتمل على أربعة فصول .

وأما الباب الثاني : ففي حديث الإفك، وقد تضمن ثمانية فصول .

وأما الباب الثالث : ففي جريمة القذف وصلتها بحديث الإفك وقد

تضمن ستة فصول .

وأما الخاتمة : فقد تضمنت نتائج البحث . . .

وقد بذلت في هذه الدراسات قصارى جهدي حتى خرجت بالصورة التي أعرضها، فإن حالفني التوفيق فذلك فضل من الله وله الحمد والمنّة وإن تكن الأخرى فحسبي أنني بشر يخطيء ويصيب والعصمة ليست لأحد من البشر بعد رسول الله ﷺ .

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه محققاً الهدف المرجو منه فمنه - عزّ وجل - نستمد العون ونستلهم التوفيق، إنه على ما يشاء قدير . . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . . . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ومن نهج نهجه وسلك طريقه وتمسك بما جاء به إلى يوم يبعثون .

المقدمة
وفيها مبحثان

المبحث الأول

في بيان كون القرآن المعجزة الخالدة

فلو ألقينا نظرة فاحصة دقيقة على واقع العالم الإسلامي اليوم لوجدنا الحاجة شديدة وملحة إلى دراسة وفهم القرآن الكريم وتأمل معانيه، والوقوف عند حدوده وقيوده، ومعرفة مرامييه . . . هذا الدستور الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . . . فهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم وهو المعجزة الكبرى والدلالة الباهرة العظمى على صدق وصحة رسالة محمد ﷺ .

فالله - سبحانه وتعالى - ما بعث نبياً ولا رسولاً إلى قومه إلا وقد أيده بمعجزة بينة واضحة، يؤيد رسله - جلّ وعلا - بالآيات الكونية الخارقة للعادة، والمعجزات الصحيحة الباهرة التي تخالف ما اعتاده البشر في حياتهم ولا يستطيعونه ليكون ذلك دليلاً بيناً واضحاً على صدق دعوته وصحة رسالته ونبوته، فهو بشر مثلهم ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾^(١) . . . إلا أن الله أجرى على يديه من الخوارق والمعجزات، والآيات الواضحة العظيمة الباهرة القاهرة لهم ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع الطوائف والبشر مجتمعين ومنفردين ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(٢) .

ولقد أيد الحق - تبارك وتعالى - رسله وأنبياءه بمعجزات باهرة جعلت البشر يقفون أمامها حائرين مبهورين، فهدى الله - سبحانه وتعالى - إليها

(١) سورة إبراهيم، الآية (١١).

(٢) سورة الإسراء، الآية (٨٨).

من هدى، وضلّ من ضلّ، فالهدى والضلال بيد الله - سبحانه وتعالى -
وإنما الآيات والمعجزات لإقامة الحجة وتوضيح السبيل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ
أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) . . .

فبعث الرسل، وإنزال الكتب وتأييد الله لرسله وأنبيائه بالحجج
والبراهين الدامغة والقاطعة كلها ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
الرسول﴾^(٢) ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾^(٣) .

فناقة صالح، وعصا موسى، وما أعطاه الله لعيسى من المعجزات
وخوارق العادات كلها من قبيل تأييد الله لرسله بالمعجزات الظاهرة، فهذه
المعجزات ليست من صنع البشر، وليست في مقدورهم بحال من
الأحوال.

والمعجزات والبراهين التي يرسلها الله - تعالى - تأييداً وتصديقاً لرسله
وأنبيائه تختلف باختلاف الزمان والمكان وحالة الأمة المرسل إليها
الرسول . . . وعلى هذا كانت الآيات والمعجزات المؤيدة للرسول المصدّقة
لدعوتهم ورسالتهم حسية يوم كان العقل البشري أقل نضجاً، وأقل
إدراكاً، وكان التفكير قليلاً، ويعتمد الإنسان كثيراً على ما يراه ويسمعه من
حوله، وكانت العجائب والخوارق تبلغ من نفسية الشعوب وتفكيرها مبلغاً
عظيماً، لذا كانت هذه المعجزات تناسب المدارك والعقول، إذ الهدف
والمقصود هو تصديق الرسل وبيان أنهم على حق وأنهم جاءوا من عند الله
عزّ وجلّ وليكون المرسل إليهم على بينة من أمرهم، وليكون الأمر أبلغ
وتكون الأمة المرسل إليها إلى التصديق أسرع، كسبا للوقت، ولدفع ودمغ

(١) سورة القصص، الآية (٥٦).

(٢) سورة النساء، الآية (١٦٥).

(٣) سورة الإسراء، الآية (١٥).

حجج وافترعات الجاحدين والمعاندين والمعرضين المغرضين الذين يصدّون عن سبيل الله، فأعداء الرسل والمعاندون والجاحدون في كل أمة كثير خاصة في مهد الدعوة ومقتبل عمرها . . .

أقول: كانت المعجزات وخوارق العادات في بدايتها حسية واضحة، ولا تحتاج إلى إعمال فكر، وكد ذهن، يوم أن كان العقل البشري لا يستطيع فهم أكثر من ذلك، وكانت المعجزات هذه تبلغ من عقول الناس وتفكيرهم مبلغاً كبيراً، فينبهرون ويستسلمون لها غالباً . . . ولا يملكون سوى الإذعان والتسليم حيث أن مثل هذه الأمور لا يقدر عليها إلا نبي مرسل وليست من صنع البشر، وليست في مقدورهم فيحصل الإذعان والتسليم لرسول الله وأنبياؤه ويحق الحق ويبطل الباطل وتقوم الحجة وتتضح المحجة ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾^(١) . . .

فمن عدل الله ورحمته وكرمه وفضله على خلقه إرسال الرسل وإنزال الكتب وإيضاح السبل المؤدية إلى الهدى والصلاح . . .

وبمرور الوقت بدأ العقل البشري يكبر شيئاً فشيئاً، وصار الإنسان يفكر بعقله أكثر ولا تملكه الظواهر بقدر ما تسيطر عليه الأمور العقلية والفكرية التي يفكر بها أكثر من المحسوسات، وبدأت الحياة العقلية تسيطر على الإنسان أكثر من الأمور الحسية، ولم تعد تلك الظواهر والمحسوسات كافية لصدق الدعوى، وتثبيت الرسالة في عقول المخاطبين، وليس الناس في هذا السن من عمر البشرية من السذاجة والبساطة بحيث أنهم يسهل قيادهم وإقناعهم وينصاعون لأية معجزة، فهم في الأعم الأغلب ألداء أشداء، صعب قيادهم وإقناعهم . . .

(١) سورة الإسراء، الآية (١٥).

لقد تغيرت الحياة وتغير الناس تبعاً لها، وأصبح هناك عقول جديدة ومفاهيم معينة، والله العليم البصير بشئون خلقه وما يصلحهم وما ينبغي لهم، لا يمكن أن يخاطب أمة محمد - ﷺ - وهي آخر الأمم، وقد نضجت العقول وكبرت المدارك وتفتحت أمامها آفاق جديدة من المعرفة والدراية . . . أقول: أن يخاطب أمة هذا شأنها بما خاطب به الأمم السابقة ذات العقول السهلة البسيطة الضيقة والأفكار المحدودة حيث لم تعد تلك الخوارق والعجائب الكافية في زمنها مجدية ولا مقنعة لهذا العقل اليقظ النير المتفتح، لقد تغير كل شيء في حياة الإنسان، ولا بد مع هذا الرسول من شيء جديد يؤمن به ويصدق به بسببه يختلف كثيراً عن المعجزات السابقة السهلة حيث كانت العقول بسيطة وسهلة.

لقد كان العقل البشري في طفولته وصباه الأول سهلاً منقاداً أما الآن - وبعد أن عقل كثيراً وكبر وأدرك وتفتحت أمامه آفاق جديدة ومعان واسعة وتجارب كثيرة وموروثات عديدة لا بد أن يواجه بشيء جديد يقنعه ويجعله ينصاع وينجذب، وينقاد لهذا الحدث الجديد . . .

لقد كانت رحمته - تعالى - عظيمة، ومنته كبيرة، وفضله واسعاً وعميماً ببعثه هذا النبي الكريم، وتأييده بهذا القرآن العظيم المعجزة الكبرى والمنّة العظمى من الله على خلقه، قال تعالى: ﴿فإِذَا يَأْتِيَنكُمْ مِّنِي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِن لَّهٗ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا، وَنُحْشَرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَد كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾^(١).

(١) سورة طه، الآيات (١٢٣ - ١٢٦).

وقال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿آل كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾^(٣).

ذلكم هو القرآن العظيم أنزله الله رحمة وشفاء ودواء للعالمين يتلوه المؤمنون فيعبدون الله بتلاوته وتدبره وتفهمه، فتشرح به صدورهم وتستنير به قلوبهم وعقولهم فينالون به مثوبة وقربة من الله عز وجل وما تقرب إلى الله أحد بمثل كلامه، وما أنزله - تعالى - على رسوله - ﷺ - ثم ليكون بعد ذلك دستور ومنهج حياة المسلم ومنطلق تصرفاته ونظام مجتمعه، يرسم للأمة الإسلامية طريق رشدتها ومنهج سعادتها، فهو طريق الحياة السعيدة الرغيدة الهانئة، ويرسم للمسلم أيضاً طريق الحياة السعيدة، ويرسم له أيضاً طريق الرشاد والفلاح والنجاح في الدار الآخرة، فهو يعطي للمؤمن نجاحاً وفلاحاً في الدارين - الأولى والآخرة - ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾^(٤).

(١) سورة المائدة، الآية (١٥).

(٢) سورة إبراهيم، الآية (٢، ١).

(٣) سورة الشورى، الآية (٥٢، ٥٣).

(٤) سورة النحل، الآية (٩٧).

وبالمقابل يقول الحق جل ذكره عن الأشقياء التعساء الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾^(١) . . .

وهذا كله حاصل ومشاهد لكل ذي عينين نور الله قلبه وفتح بصيرته وألهمه الصواب لسلوك الطريق السوي والجادة المستقيمة فنجد دوماً وفي كل زمان ومكان وأمة نجد أهل الورع والتقوى والصلاح والبر والعفاف هم على ما هم فيه من بلوى وفقر وعوز وحاجة تجدهم في نعيم روحي ولذة ما وراءها لذة، والعكس حاصل ونازل بأهل الفجور والضلال فهم في جحيم وعذاب، وقلق واضطراب، خائفون دوماً، كما قال الحق تبارك وتعالى عن المنافقين أعداء الرسل: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾^(٢). فذل المعصية لازم لهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم بحال - أبى الله إلا أن يذلّ من عصاه، فالطاعة أنس وراحة وسعادة لا تعدلها سعادة في الدنيا. . . كيف، والمؤمن يعيش في كنف الله خالقه ومعبوده ومدبر أمره لا إله غيره ولا ربّ سواه. . . فالقرآن - كما أسلفت - هدى ونور وشفاء لما في الصدور، فهو يصل المسلم بالله ويرفعه ويعلي شأنه، ويبعده عن سفاسف الأمور، ويطلب المسلم أن يكون باحثاً عن معالي الأمور، وعلى هذا المنهج القويم الواضح، فهم سلف هذه الأمة كتاب الله عز وجل فجعلوه دوماً نصب أعينهم، حكموه في الصغائر والكبائر فصاروا بذلك خير أمة أخرجت للناس بشهادة الحق - جل ذكره - فمكّنهم الله في الأرض وحقق لهم وعده الذي لا يتخلف ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾^(٣).

(١) سورة طه، الآية (١٢٤).

(٢) سورة المنافقون، الآية (٤). (٣) سورة النور، الآية (٥٥).

المبحث الثاني

معالجة القرآن لأحداث الحياة وأنه يحسم فيها حسماً قاطعاً

وإذا قلنا: إن القرآن هو دستور حياة المسلم قصدنا بذلك أنه هو المنطلق الوحيد لجميع تصرفاته وحركاته وسكناته، فمنه يستمد جميع أعماله وأقواله . . .

وإذا قلنا: إن القرآن هو دستور الحياة فلسنا نقصد أنه يحوي تنظيمات للحكومة المسلمة وكفى، بل المعنى واسع وشامل، فهو يضع القواعد الصحيحة العامة للحضارة الحقة المنجية التي جاء بها الإسلام، فهو يصبغ الحياة ويطبّعها بطابع معين من عند الله .

وإذا قلنا: إن القرآن هو كتاب هداية فهذا المعنى واسع وشامل ومتعدد الجوانب فيشمل هداية الفرد إلى الإيمان الصحيح الخالص والعمل الصالح المنجي والأخلاق الفاضلة الجيدة والصفات النبيلة الطيبة العالية ويشمل أيضاً هداية العالم كله وتوجيهه نحو الأصلح والأسلم والأصوب والأمثل في جميع أموره الحياتية والأخروية .

لذا يجب وضع القرآن الكريم في المقام الأول من حياة الأمة تستمد منه جميع أنظمتها حتى يكون مقياساً صحيحاً وطريقاً قوياً يميز المسلم ما يبيّزه القرآن، ويرفض ما يرفضه ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾^(١) .

ولابد من صبغ الأمة كلها بصبغة الإسلام وربطها برباط متين من عند

(١) سورة النساء، الآية (٦٥).

الله ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^(١).

فالمسلم يسلم جميع أمره لله ويذعن لخالقه جل وعلا ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾^(٢) فهو خير وبركة ﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾^(٣).

فهذا الكتاب الكريم والذكر الحكيم هو الصلة الوحيدة بيننا وبين الله تبارك وتعالى عن طريقه آمنة بمحمد - ﷺ - لأنه معجزته العظيمة الكبرى الخالدة التي لا تماثلها معجزة، وعن طريق القرآن الكريم آمن المسلم برسول الله السابقين لأن معجزاتهم انقطعت وبقي ذكرها في القرآن الكريم، وعن طريق القرآن الكريم آمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وأمور الغيبات كلها التي وردت في القرآن الكريم فهو دستور دعوتنا وكتاب هدايتنا وكل سعادتنا وعزنا في الدنيا والآخرة.

(١) سورة البقرة، الآية (١٣٨).

(٢) سورة النحل، الآية (٣٠).

(٣) سورة البقرة، الآيات (من ١ - ٥).

عناية السلف بالقرآن الكريم :

كان سلف هذه الأمة - رضوان الله عليهم أجمعين - يهتمون بالقرآن الكريم كثيراً ويجلونه ويقدرونه حق قدره ويهتمون بالتعرف إلى مقاصد القرآن الكريم، ويرون الفضل والسبق والمنزلة الرفيعة العالية لمن علم شيئاً من تفسيره وتأويله، فعن علي - رضي الله عنه - أنه ذكر جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - ووصفه بالعلم فقال رجل : جعلت فداءك أتصف جابراً بالعلم وأنت أنت، فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾

وقال مجاهد - رضي الله عنه - أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل .

وقال الشعبي : رحل مسروق إلى البصرة في تفسير آية، ف قيل له : إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهّز ورحل إلى الشام حيث علم تفسيرها .

وقال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾ طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته وقال ابن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب^(١) .

ومن بلغه القرآن وعلمه فهو نذير له من عرب وعجم وإنس وجن . . . قال تعالى : ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده . . .﴾^(٢) .

(١) مقدمتان في علوم القرآن وهما : مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية ص (٢٦٠ - ٢٦١) - آرثر جفري - مكتبة الخافجي بالقاهرة ١٣٩٢هـ، وانظر في هذا المعنى القرطبي ج-١٧/ص/٣٥ .

(٢) سورة هود، الآية (١٧) .

ولقد حث ورغب - سبحانه - عباده المؤمنين في فهم كتابه وتدبره والنظر في عجائبه ومعجزاته وأمر الأمة كلها بذلك، قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾^(٣). فالواجب على علماء الأمة الكشف عن معاني القرآن وتفسيره وتوضيحه جيداً وطلب ذلك من مصادره ومطانه، وتعلم ذلك وتعليمه، قال عز وجل: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾^(٥).

فقد ذمّ الله أهل الكتاب من قبل لإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم حيث انشغلوا بغير ما أمروا به من اتباع رسل الله وتحكيم وحيه المنزل عليهم، فعلى الأمة الإسلامية قاطبة العناية بكتاب الله عناية فائقة تليق بمقام الكتاب العزيز تعلمًا وتعليماً والاستفادة من مثله وآدابه وأحكامه

(١) سورة النساء، الآية (٨٢).

(٢) سورة ص، الآية (٢٩).

(٣) سورة محمد، الآية (٢٤).

(٤) سورة آل عمران، الآية (١٨٧).

(٥) سورة آل عمران، الآية (٧٧).

الصحيحة الصائبة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ، اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾^(١) .

وقد أوضح جلّ ذكره أنه كما يحيي الأرض بعد موتها بإنزال المطر فتنبت وتزدهر كذلك يحيي القلوب ويلينها بالإيمان والتقوى والصلاح بعد قسوتها وشدتها وصلابتها وغلظتها وبعدها عن الهدى ، هدى الله ونوره وصراطه المستقيم ، وهي تحصل على ذلك كله متى رجعت وأنابت وتفهمت كتاب الله وتمعنّت ما فيه وأدامت النظر إليه ، وانشغلت به وحده دون سواه فهو زادها وعدتها للعاجل والآجل .

(١) سورة الحديد، الآيتان (١٦، ١٧) .

أحقية القرآن :

القرآن - كما هو معلوم - من شأنه الحق والصدق، فلا يسوغ لمسلم بحال من الأحوال أن يخالطه الشك أو يساوره الوسواس في صدقه، وأنه نزل من عند الله تعالى، وأنه جماع الخير والهداية للناس في العاجل والآجل، ومن شأن القرآن الإعجاز الكامل، المحيط الشامل مع التحدي الثابت الدائم.

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(١).

والقرآن العظيم موافق للعقل والمنطق، فجميع ما فيه من حكم وآداب كلها توافق العقول السليمة والفطر المستقيمة، فهو غزير المادة كثير المعارف في الكون والحياة والإنسان وقواعد الاجتماع، وما فيه ينطبق تماماً على الحقائق الكونية الثابتة، ومهما ارتقى البحث أو تطورت الكشوف وتعددت المخترعات، فهو لم يتناقض، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، كما تناقض الكثير والعديد من الآراء والنظم والقوانين البشرية الوضعية فجميع البحوث العلمية والفلسفية والاجتماعية والنفسية التي هي من جهد وعمل البشر عرضة للنقض والمعارضة عدا القرآن الكريم ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾^(٢).

والأدلة والبراهين والشواهد على صحته واضحة كثيرة ميسورة لكل من نور الله قلبه وأحيا بصيرته، كلها تنطق بأن هذا الكتاب العزيز في نظمه وأسلوبه ومقاصده ومعانيه ومراميه لا يمكن أن يلصق به شك أو ريب في

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٨).

(٢) سورة فصلت، الآية (٥٣).

أنه من عند الله عز وجل ، ولقد أتمّ الله به النعم وأجزل به العطاء .

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(١) .

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾^(٢) .

فهذه الأمة قبل بعثة محمد - ﷺ - وقبل نزول القرآن الكريم عليه كانت أمة ضالة ضائعة، يأكل القوي الضعيف ويسلبه وينهبه ويتسلط عليه ويقهره ويؤذيه، وحكمهم في ذلك أهواؤهم وما تميل إليه نفوسهم ورغباتهم، قد تدنت الإنسانية، وهبطت إلى الحضيض ونالت الإنسانية في مختلف العهود الجاهلية الذل والهوان والخوف، وعدم الاطمئنان، وساد الفقر والعوز والحرمان، فالأرحام مقطوعة والأواصر مبتورة، والعلائق ضعيفة، والبنات موعودة، والنساء مقهورة، وليس هناك سوى التسلط والبغي والعدوان والاستهتار والاستخفاف والتهاون بكرامة الفرد، وضاعت آدمية الإنسان، وصار في بعض الأحيان أقل درجة من الحيوان، وقد أنزل الله هذا القرآن رحمة وشفاء للعالم كله من أمراضه المستعصية عبر القرون الماضية، ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٣) .

فالدين وقاية للمجتمع كله من علله وأمراضه المستعصية ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾^(٤) .

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٢) سورة الجمعة، الآية (٢) .

(٣) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧) .

(٤) سورة الإسراء، الآية (٨٢) .

ومحمد بن عبدالله جاء غيثاً ورحمة للعالمين بمبادئ سامية وتشريعات
حكيمة عادلة، لو طبقت في الأرض لما كان في العالم كله ضلال ولا ضياع
ولا داء أياً كان مصدره ونوعه، فقد جاء للعالمين عمومًا بمبادئ هي في
عمومها رحمة وخير وبركة ومنّة ونعمة ورفعة، ومادام محمد - صلى الله عليه
وعلى آله وصحبه وسلم - جاء خاتماً للنبيين، فإن الدين الذي جاء به علاج
لعلل المجتمع وآفاته وسبيل لرشاده وهدايته إلى أن يرث الله الأرض ومن
عليها، فهو رحمة للعالمين وحتى تقوم الساعة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وما
أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(١).

وأُنزل عليه كتابه الحكيم فيه هدى ونور لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه تنزيل من حكيم حميد عني بكل ما فيه صلاح الإنسان دنيا
وأخرى في كل زمان ومكان.

ومما عني به القرآن الكريم المحافظة على الخلق الإسلامي القويم وحمايته
مما يتعرض له من شائعات المتقولين، ومن ثم فقد شرع العقوبة الرادعة لمن
تسول له نفسه النيل من أعراض المؤمنين الغافلات وحتى لا يחדش الحياء
وتنتهك الحرمات نراه يحذر من الخوض في الأعراض، ويضع العلاج
الناجع لمن يحاول أن ينفث هذا الداء وهذا ما نجده في: حديث الإفك
موضوع بحثنا، ففيه تربية وتقويم، كما فيه استنباط أحكام وتعليم حتى
يصان اللسان فلا يتردى في إثم أو بهتان، ومن أغواه الشيطان فتناول على
الأخرين فإن له العقاب الأليم في الدنيا والآخرة حماية للأخلاق والأعراض
وصوناً لهما من تقولات الأفاكين وسفاهة المستهترين.

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

الباب الأول

في

النفاق : مظاهره ودوافعه

وفيه أربعة فصول

- الفصل الأول** : في معنى النفاق وآثاره في المجتمع الإسلامي
- الفصل الثاني** : في المنافقين وأهدافهم في الكيد للإسلام وتحطيم مقومات الإسلام.
- الفصل الثالث** : في موقف القرآن من المنافقين والمتأمرين على الإسلام، وكيف فضحهم وعرى خططهم وكشفها للرسول ﷺ وأصحابه.
- الفصل الرابع** : في موقف عبدالله بن أبي بن سلول خاصة، والمنافقين عامة من الدعوة إلى الإسلام.



الفصل الأول

في

معنى النفاق وآثاره في المجتمع الإسلامي
وفيه ثلاثة مباحث

- المبحث الأول : في معنى النفاق لغة وشرعاً، وفيه مطلبان .
المطلب الأول : في معنى النفاق لغة .
المطلب الثاني : في معنى النفاق شرعاً .
المبحث الثاني : في بواعث النفاق
المبحث الثالث : في أهم صفات النفاق

المبحث الأول

في معنى النفاق لغة وشرعاً
وفيه مطلبان

المطلب الأول : في معنى النفاق في اللغة :

النفاق في اللغة :

نفق : النون والفاء والقاف : أصلان صحيحان يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وإغماضه، ومتى حصل الكلام فيهما تقارباً^(١).

فالأول : نفقت الدابة نفوقاً ماتت، ويقال، نفقت بالكسر. نفاقاً: فنيت^(٢). . . ومن ذلك قول لبيد:

نفق البغل وأودى سرجه في سبيل الله سرجي وبغل
ونفق الشيء: فنى، ويرى ابن الأعرابي أن من هذا الباب قوله تعالى:
﴿إذا لأمسكتم خشية الانفاق﴾^(٣)، أي خشية الفناء والنفاد.
وفرس نفق الجرى أي سريع انقطاع الجرى، ومن ذلك قول علقمة بن عبدة يصف طليحاً:

فلا تزيده في مشيه نفق ولا الزيف الشد مشوم
وقال لبيد:

شداً ومرفوعاً يقرب مثله للورد لا نفق ولا مشوم

(١) مقييس اللغة لابن فارس /٥/ ٤٥٤/.

(٢) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري /٤/ ١٥٦/.

(٣) سورة الإسراء، الآية (١٠٠).

والأصل الآخر: النَّفَق: سرب في الأرض له مخلص إلى مكان .
وفي المثل: «ضل دريس نفقه» ويضرب لمن يعبأ بأمر بعد حجة لخصمه
فنسي عند الحاجة، والنفاق جمع نفقة من الدراهم .

والنفقة: ما أنفقت واستغنيت على العيال وعلى نفسك^(١) .
والنفاق والنفقة كهزمة: جحر اليربوع يكتمها ويظهر غيرها وهو موضع
يرققه، فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق منها أي
خرج، وتقول: أنفقنا اليربوع إذا لم يرفق به حتى انتفق وذهب، وقال ابن
المنذر عن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: قصعة اليربوع أن يحفر حفرة ثم
يسد بابها بترابها، ويسمى ذلك التراب الدماء، ثم يحفر حفر آخر يقال له
النافقاء والنفقة، والنفق فلا ينفذها، ولكنه يحفرها حتى ترق، فإذا أخذ
عليه بقاصعائه عدا إلى النافقاء فضربها برأسه ومرق منها^(٢) .

والنفقة يقال لها الرهطاء وأنشد:

وما أمّ الردين وان أكلت بعالة بأخلاق الرجال
إذ الشيطان قصّع في قفاها تنفقناه بالجعل التؤام

أي سكن في قفاها أي استخرجناه كما يستخرج اليربوع من نافقائه ونفق
اليربوع وانتفق، ونفق: خرج منه، وتنفقه الحارس وانتفقه استخرجه من
نافقائه^(٣) .

والنفاق: بالكسر مثل المنافق الدخول في الإسلام من وجه، والخروج
عنه بآخر، وقد نافق منافقة ونفاقاً^(٤)، والجمع النوافق .

(١) تهذيب اللغة للأزهري / ١٩٢/٩ .

(٢) تهذيب اللغة / ١٩٢/٩ .

(٣) لسان العرب لابن منظور / ٣٣٦/١٢ .

(٤) تاج العروس للزبيدي / ٧٣/٧ .

قال ابن عبد البر: جحرة اليربوع سبعة: القاصعاء، والنافقاء والنفقاء، والنفقة، والرھطاء، والرھطة، والقصعاء والقصعة، وما جاء على فاعلاء أيضاً كحاوياء وساقياء وساييا، والسموأل بن عاديا والخافيا^(١).

وينفق اليربوع تنفيقاً، وناقق أي دخل في نافقائه ومنه اشتقاق المنافق في الدين.

وفي حديث عمر من حظ المرء نفاق أيمه: أي من سعادته أن نساءه من بناته وأخواته لا يكسدن كساد السلع التي تنفق، وأنفق الرجل إنفاقاً إذا وجد نفاقاً لمتاعه، وفي المثل: من باع عرضه أنفق أي من شاتم الناس شتم، ومنه قوله كعب بن زهير:

أبيت ولا أهجو الصديق ومن يبع بعرض أبيه في المعاشر ينفق أي يجد نفاقاً.

ومما سبق يتضح لنا أن كلمة المنافق مشتقة من نافقاء اليربوع، لأن المنافق يستر دخيلة نفسه ومكنون سره تحت مظاهر كاذبة باطلة ليخدع الناس بذلك كما يفعل اليربوع مع صائده ومطارده والباحث عنه، وذلك لا ينفي أن يكون الاشتقاق من النفق أي السرب، لأن فيه كذلك صفة الاختفاء والاستتار، وإن كان هذا هو المعنى اللغوي للمنافق إلا أنه اسم إسلامي بحت أطلق على أولئك الذين يسترّون كفرهم، ويظهرون إسلامهم ليكيدوا للمسلمين، ويكشفوا أسرارهم، ويعينوا أعداءهم، وقد تكرر في الحديث اسم المنافق وما تصرّف منه اسماً وفعلاً وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه^(٢).

(١) لسان العرب لابن منظور/١٢/٣٣٧.

(٢) لسان العرب لابن منظور/١٢/٣٣٧.

وفي حديث حنظلة^(١) «نافق حنظلة» أراد أنه إذا كان عند النبي - ﷺ -
أخلص وزهد في الدنيا، وإذا خرج من عنده ترك ما كان عليه ورغب فيها،
فكأنه نوع من الظاهر والباطن، ما كان - رضي الله عنه - يسامح به
نفسه^(٢).

ونقل الصاغاتي عن ابن الأنباري في التعليل لتسمية المنافق منافقاً ثلاثة
أقوال^(٣):

أحدهما: أنه سمي به لأنه يستر كفره ويغيبه فشبهه بالذي يدخل النفق
وهو السرب يستتر فيه.

والثاني: أنه نافق كاليربوع فشبه به لأنه يخرج من الإيثار من غير الوجه
الذي دخل فيه.

والثالث: أنه سمي به لإظهاره غير ما يضمّر تشبيهاً باليربوع، فكذا
فعل المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر، وحمل الزبيدي في تاج العروس على
هذا المعنى حديث «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»^(٤).

ومعظم علماء اللغة أنه مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو الراجح في
ذلك، لأن النفق ليس فيه إظهار شيء وإبطان شيء آخر كما هو الحال في
النفاق والذي يتحقق فيه الشبه الكامل بين النافقاء والنفاق هو إظهار شيء
وإخفاء شيء آخر^(٥).

والزرقاني في شرحه على المواهب لا يرى ذلك ويقول: إن النفاق اسم

(١) جزء من حديث مطول أخرجه مسلم في صحيحه كتاب النون باب فضل دوام الذكر.

(٢) لسان العرب / ١٢ / ٣٣٧ / .

(٣) تاج العروس للزبيدي / ٧ / ٧٣ / .

(٤) الجامع الصغير / ٢ / ٨٠ / مع نسخة فيض العزيز.

(٥) مقاييس اللغة / ٥ / ٤٤٥ / ، ولسان العرب / ٣ / ٦٩٤ ، وتاج العروس / ٧ / ٧٩ / .

إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وهو فعل المنافق الذي يستر كفره ويقيه بالإسلام كما يستر الرجل بالنفق «بفتحتين» وهو السرب في الأرض مخرج من موضع غير الذي يدخل منه، ويقول أيضاً: إن النفاق اشتقّ من هذا، وقيل من نفاق اليربوع إذا دخل قاصعاه ويخرج من نفاقائه وأنه بالعكس، فإن لجر اليربوع النفاق والقاصعاء والرهطاء، والداماء^(١).

(١) الزرقاني/١/٣٨٦.

المطلب الثاني في معنى النفاق في الشرع

تعريفه :

هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهو نوعان : اعتقادي وعملي .

فأما الاعتقادي : فهو ستة أنواع : تكذيب الرسول - ﷺ - ، أو تكذيب ما جاء به الرسول، أو بغض الرسول، أو بغض ما جاء به الرسول، أو المسرة بانخفاض دين الرسول، أو الكراهية لانتصار دين الرسول ﷺ .
فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار.

وأما العملي : فهو خمسة أنواع : والدليل قوله - ﷺ - « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر»^(١).

ونجد المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي للنفاق واضحة حيث أن اليربوع يتخذ له مدخلاً ومخرجاً واحداً بينما في الحقيقة له عدة مخارج، فإذا شعر بالخطر من مدخله الظاهر ضرب النافق بأرأسه وخرج .

وهذا حال المنافق حيث أنه يظهر الإسلام، ويضمّر العداة له، فإذا ما أحسّ بأن أمره كاد ينكشف غطّى ذلك بما يظهره للناس من إسلامه وإكثاره من الأعمال الصالحة، ولا يبغى من ذلك إلا خداعاً وتضليلاً .

(١) مجموعة التوحيد/٣٤٩، والجامع الفريد/٣٤٢، والحديث رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

هل النفاق قديم ؟

مرّ بنا تعريف النفاق لغة واشتقاقاً، وبقي الآن أن نعرف هل النفاق بمعناه المعروف الآن قديم أو أنه اسم إسلامي لم تعرفه العرب ولا غيرهم قبل الإسلام .

وقد قدمنا كلام الزرقاني في شرحه على المواهب حيث قال : إن النفاق اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص .

ويؤيد ذلك ما جاء في ابن كثير عن بداية النفاق حيث قال : نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ، لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه . . . من الناس من كان يظهر الكفر مستكراً وهو في الباطن مؤمن فلما هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم ، وكانوا ثلاث قبائل : بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فلما قدم رسول الله - ﷺ - وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقل من أسلم من اليهود إلاّ عبدالله بن سلام - رضي الله عنه - ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة ، فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته وأعزّ الإسلام وأهله قال عبدالله بن أبي بن سلول ، وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن أحد يهاجر

مكرهاً بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة^(١).

ويرى بعض الباحثين^(٢) أن النفاق قضية قديمة منذ أن خلق الله الخلق ليكونوا خليفة في الأرض.

ويبدو لي أن النفاق بمعناه الواسع الشامل قديم حيث أنه من جهة طرقة وأغراضه لا يخلو منه بلد ولا شعب ولا أمة من الأمم.

والنفاق كما هو واضح كما يكون في المعتقدات يكون في الأقوال والأفعال وجميع الأعمال كما جاء في حديث آية المنافق ثلاث وأما القائلون بأن النفاق اسم إسلامي لم تعرفه العرب فهذا صحيح أيضاً حين وجد النفاق وكثر في المدينة حيث كانت الغلبة للإسلام وأهله واضطر أناس ممن لا رغبة لهم فيه ولم يشرح الله صدورهم لهذا النور أن ينافقوا ليحفظوا دماءهم ويكيدوا للإسلام وأهله في الخفاء كما سيأتي توضيح ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى.

(١) تفسير ابن كثير/١/٤٧/ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ (الآية ٧ من سورة البقرة)، والسيرة النبوية لابن هشام/٢/٢٣٤/، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط الحلبي ١٣٥٥هـ، وانظر في هذا المعنى السيرة النبوية لأبي الحسن علي الندوي/١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، طبعة دار الشروق صفر ١٣٩٩هـ.

(٢) التوبة ٧٥.

المبحث الثاني في بواعث النفاق

بواعث النفاق ومنشؤه أغراض نفسية ومطامع دنيوية وحبّ للشهوات ،
وتفضيل مراد النفس على مراد الله ، فهذه الأشياء تمنع أهلها من قبول الحق
وتحملهم على معاداة أهله ، وإبطان السوء وكراهية الحق والتربص بالمؤمنين
الدوائر.

فعادى الإسلام كل من كان في قلبه مرض ، وفي السياسة طمع وضاق
ذرعاً بهذا الدين الزاحف ووجد عنصراً متأرجحاً مضطرباً بين دعوتين
متنافستين متردداً في إثارة إحداهما على الأخرى ، وقد ينحاز إلى دعوة فيكون
في معسكرها ويعطيها ولاءه وحبه العاطفي غير أن مصالحه المادية وانتشار
الدعوة المقابلة وانتصارها لا يسمح له بإعلان موقفه^(١).

والمنافقون عشاق زعامة وعبيد مصالح لا يقصرون في امتطاء كل مركب
يضمن لهم السيادة والقيادة ، ومن أجل هذا يؤمنون أول النهار ويكفرون
آخره^(٢).

(١) السيرة النبوية تأليف أبي الحسن علي الحسن الندوي/١٦٨/.

(٢) النفاق آثاره ومفاهيمه للشيخ عبدالرحمن الدوسري/١١٢/.

البحث الثالث

في أهم صفات المنافقين

ورد لفظ النفاق ومشتقاته في القرآن الكريم ثماني وثلاثين مرة .
وقد تردد ذكر المنافقين وأحداثهم في سبع عشرة سورة من سور القرآن
المدنية وهي :

- البقرة : الآيات (٨ - ٢٠) ، (١٤٢ - ١٤٣) ، (٢٠٤ - ٢٠٦) .
آل عمران : الآيات (٧٢) ، (١١٨ - ١٢٠) ، (١٥٤ - ١٦٨) ، (١٧٩) .
النساء : الآيات (٣٧ ، ٣٨) ، (٦٠ - ١١٥) ، (١٣٥ - ١٤٦) .
المائدة : الآيات (٤١) ، (٥١ - ٥٦) ، (٦١) .
الأنفال : الآية (٤٩) .
التوبة : الآيات (٣٨ وحتى آخر السورة) .
الحج : الآيات (٣ ، ٤) ، (٨ - ١٣) .
النور : الآيات (١١ - ٢٦) ، (٣٣) ، (٤٧ - ٥٣) ، (٦٢ - ٦٤) .
العنكبوت : الآيات (١٠ - ١١) .
الأحزاب : الآيات (١ - ٢٠) ، (٣٦ - ٤٨) ، (٦٠ - ٦٢) ، (٧٢ ، ٧٣) .
الحشر : الآيات (١١ - ١٧) .
القتال : الآيات (١٦ - وحتى آخر السورة) .
الفتح : الآيات (٦) ، (١١ - ١٦) .
الحديد : الآيات (١٣ - ١٥) .
المجادلة : الآيات (٨) ، (١٤ - ٢٢) .
المنافقون : الآيات (١ - ٨) .
التحريم : الآية (٩) .

ويتضح من هذا أن موضوع النفاق والمنافقين قد استغرق ما يقرب من ٣٤٠ آية من آيات الكتاب العزيز البالغ عددها ٦٢٣٦ آية، كما أن هذا الموضوع قد ورد في سبع عشرة سورة من السور المدنية البالغ عددها ٣٠ سورة^(١).

وقدّم القرآن الكريم لنا نماذج وصوراً من أخلاقهم فهم في تناقض مستمر بين ما يظهرون وما يبطنون - يروك بكلامه ويعجبك بخلاصة لسانه ولكنه منافق كذاب^(٢).

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد﴾^(٣).

وهو مغرور فإذا وعظ وذكر حملته أنفته على الفعل بالإثم^(٤) ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد﴾^(٥).

والحيرة تسيطر عليهم فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتره الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك^(٦).

﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾^(٧).

(١) من مفردات القرآن «المنافقون» الدكتور محمد جميل غازي / ٦، ٧، ٨ / .

(٢) صفوة التفاسير / ١ / ١١٩ / محمد علي الصابوني .

(٣) الآيتان ٢٠٤ ، ٢٠٥ من سورة البقرة .

(٤) صفوة التفاسير / ١ / ١١٩ / .

(٥) سورة البقرة، الآية (٢٠٦) .

(٦) مختصر تفسير ابن كثير / ١ / ٤٥٠ / اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني .

(٧) سورة النساء، الآية (١٤٣) .

والمنافق يحسّ بضعف وتهاوى شخصيته ولذلك يتلون ويتقلب حسب الأحوال والظروف .

﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً، بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾^(١) .

الدنيا بما فيها من مال ومتاع هي مرغوبهم ، وغاية مطلوبهم وإذا كانت صفاتهم المكر والخداع فهم متربصون بالمؤمنين دوائر السوء يتوددون إليهم إذا حصل لهم نصر وتأييد وظفر وغنيمة ، وأماً إذا كان للكافرين ادالة على المؤمنين - كما وقع يوم أحد - فإنهم يقولون للكافرين إننا ساعدناكم في الباطن وما ألوناكم خبلاً ولا تخذيلاً حتى انتصرتم عليهم^(٢) ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾^(٣) .

ومع أنهم كانوا يستهزئون بالإسلام إلا أنهم كانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي حتى قال بعضهم : والله لأرنا شر خلق الله ، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا^(٤) . . . وهم كالثعالب إذا وقعوا في الحرج زعموا أنهم كانوا هازلين غير جادين^(٥) ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون، ولئن

(١) الآيات (١٣٧ - ١٣٩) من سورة النساء .

(٢) مختصر ابن كثير/١/٤٤٩/ .

(٣) الآية (١٤١) من سورة النساء .

(٤) صفوة التفاسير/٥/٣١/ .

(٥) المنافقون وكتاب الله/١٦/ محمد عبدالله السمان .

سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعدب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴿١﴾ .

والمنافقون والمنافقات صنف واحد وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان كتشابه أجزاء الشيء الواحد^(٢)، فهم يدعون إلى الإفساد حيث ﴿يأمررون بالمتكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾^(٣) .

والمنافقون لا يأتون شيئاً من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنين علي وجه التقرب بها إلى الله لأنهم غير مؤمنين بمعاد ولا ثواب ولا عقاب، وإنما يعملون ما يعملون من الأعمال الظاهرة إبقاء على أنفسهم وحذراً من المؤمنين عليها أن يقتلوهم أو يسلبوا أموالهم فهم إذا قاموا إلى الصلاة التي هي من الفرائض الظاهرة قاموا إليها كسالى ورياء للمؤمنين ليحسبوا منهم وليسوا منهم لأنهم غير معتقدين فرضها ووجوبها عليهم فهم في قيامهم إليها يقومون كسالى^(٤) .

﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾^(٥) وقال القرطبي^(٦) في تفسير هذه الآية: أي يصلون مراعاة وهم متكاسلون متهاقلون لا يرجون ثواباً ولا يعتقدون على تركها عقاباً^(٧) وليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة

(١) الآيات (٦٤، ٦٥، ٦٦) من سورة التوبة .

(٢) صفوة التفاسير/٥/٣١ .

(٣) سورة التوبة، الآية (٦٧) .

(٤) جامع البيان/٥/٣٣٤ .

(٥) سورة النساء، الآية (١٤٢) .

(٦) الجامع لأحكام القرآن/٥/٤٢٢ .

(٧) فتح الباري/٢/٢٤١ .

الخير، وهم يقعدون عن الجهاد ويخوفون غيرهم منه ومن نتائجه همهم التخويف والتهويل وقلب الحقائق وإثارة الرعب والتشويش ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على يسيراً﴾^(١).

ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقنّ من ماله وليكوننّ من الصالحين فما وفي بما قال ولا صدق فيما ادعى فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عزّ وجلّ يوم القيامة عياداً بالله من ذلك^(٢).

عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله - ﷺ - ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: فقال رسول الله - ﷺ -: «ويحك يا ثعلبة قليل يؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبيّ الله؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت. قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطينّ كل ذي حقّ حقه فقال رسول الله - ﷺ -: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» قال فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواها ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك جمعته فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله - ﷺ -: «ما فعل ثعلبة»

(١) سورة الأحزاب، الآيات (١٨، ١٩).

(٢) مختصر ابن كثير/٢/٧٧.

فقالوا يارسول الله اتخذ غنماً فضأقت عليه المدينة فأخبره بأمره فقال: «ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة» وأنزل الله عز وجل ثناؤه: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية، ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله - ﷺ - رجلين على الصدقة من المسلمين وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما: «مرّاً بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما» فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله - ﷺ - فقال: ما هذه إلا جزية ما هي إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ فانطلقا، وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك فقال: بلى فخذوها فإنّ نفسي بذلك طيبة فأخذها منه ومرّاً على الناس فأخذوا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما فقراه فقال: ما هذه إلا جزية، ما هي إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي - ﷺ - فلما رأهما قال: «ياويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة فأخبره بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي فأنزل الله عز وجل ﴿وممنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾^(١) الآية فهلك ثعلبة في خلافة عثمان^(٢).

وكان المنافقون يقومون بتثبيط المسلمين عن الجهاد وتحويلهم حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته وما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا.

(١) أخرجه ابن جرير بتمامه وفيه أن رسول الله - ﷺ - لم يقبل صدقته في حياته فلما قبض عرضها على أبي بكر فلم يقبلها ثم عرضها على عمر فلم يقبلها حتى هلك في زمان عثمان، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم بنحوه... (لباب النقول في أسباب النزول/١٢١/٠).

(٢) المغازي للواقدي/٢/٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٣، والسيرة النبوية لابن هشام/٢/١٣٣، جامع البيان/٢/١٣٣.

وقال أوس بن قيطي : يارسول الله إن بيوتنا عورة، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا^(١) ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾^(٢).

وقد وصف الله تعالى المنافقين بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي : الكذب، الخداع، المكر، السفه، الاستهزاء، والإفساد في الأرض، الجهل، الضلال، التذبذب، السخرية بالمؤمنين^(٣).

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم ءامنوا كما ءامن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين، يكاد البرق

(١) سورة التوبة، الآية (٧٥)

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان (١٢، ١٣).

(٣) صفورة التفاسير / ١ / ٢٥ / .

يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴿١﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: أسلم ناس من أهل قريظة وكان فيهم منافقون وكانوا يقولون لأهل النضير لئن أخرجتم لنخرجن معكم^(٢) فاثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا فخذف الله في قلوبهم الرعب فلم ينصروهم ﴿٣﴾ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿٤﴾ .

ومن أعمالهم الخسيصة الدنيئة بناؤهم مسجد الضرار وهو مسجد مجاور لمسجد قباء المسجد الذي بناه رسول الله - ﷺ - عندما قدم مهاجراً من مكة فلما بنوه وفرغوا منه وكان ذلك قبل أن يخرج - ﷺ - إلى غزوة تبوك أتوا إليه وسألوه أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليجعلوا من صلاته - ﷺ - فيه إقراراً له وتثبيتاً مكرماً وخديعة منهم وقد عللوا بناءه ذلك أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ولكن الله عصمه من الصلاة فيه وقال لهم - عليه الصلاة والسلام - إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما رجع - ﷺ - من غزوته تلك وقرب من المدينة ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار وما أضمره من قاموا

(١) سورة البقرة، الآيات (من ٨ إلى ٢٠).

(٢) لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي / ٢١٠ / .

(٣) سورة الحشر، الآيات (١١ - ١٤).

على بنائه من الكفر والتفريق بين المؤمنين في مسجدهم الأول مسجد قباء الذي أسس على التقوى من أول يوم كما قصدوا الإرصاء لمن حارب الله ورسوله فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى ذلك المسجد - مسجد الضرار - من قام بهدمه قبل وصوله إلى المدينة^(١).

قال تعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلاّ الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين، لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلاّ أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾^(٢).

هذه قصة مسجد الضرار كما حكاهها القرآن الكريم، ورويت في السنة المطهرة وما مسجد الضرار هذا الذي بني في عهده - ﷺ - إلا صورة من الصور التي تتخذ في كل عصر وحين للكيد للإسلام والمسلمين فأصحاب المبادئ الدخيلة والأغراض الخسيسة أحياناً يتخذون من الإسلام ستاراً لنواياهم الهدامة فيتظاهرون بالشعارات الكاذبة والعناوين الخادعة والجمعيات الخيرية والمشروعات الإسلامية المقنعة، والتي هي في واقع الأمر حربة وسلاح مدمر للمؤمنين الصادقين وإذا رأيتهم تروك أجسامهم لضخامتها وصباحة وجوههم، ومع هذا فهم أشباح خالية عن العلم

(١) تفسير القاسمي/٨/٣٢٦٨، ولباب النقول في أسباب النزول/١٢٥/، وزاد المعاد/٢/١٠، وصفوة التفاسير/٥/٤٦، ومن مفردات القرآن المنافقون/١١٠ - ١١٢، والنفاق والمنافقون - إبراهيم علي سالم/٢٦٣ وما بعدها.

(٢) سورة التوبة، الآيات/١٠٧ - ١١٠.

لنفاقهم وفساد بواطنهم^(١)، قال تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾^(٢).

ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا مدى ما انطبعوا عليه من صفات دينية وما جبلوا عليه من أخلاق ذميمة رانت أعمالهم الخسيسة على قلوبهم فناصبوا الإسلام العدا، وأضمرُوا له البغضاء، وحاولوا جاهدين عرقلة الدعوة الإسلامية، ولكن ضل مسعاهم وباء بالفشل والخسران المبين.

(١) تفسير أبي السعود / ٥ / ٣٣٣ .

(٢) سورة المنافقون، الآية (٤).



الفصل الثاني

المنافقون وأهدافهم في الكيد للإسلام

وتحطيم مقومات المسلمين

وفيه مباحث

- المبحث الأول : في أسلوب المنافقين لإضعاف الجبهة الداخلية .
- المبحث الثاني : في موقف المنافقين في غزوة أحد .
- المبحث الثالث : في موقف المنافقين في غزوة الأحزاب .
- المبحث الرابع : في موقف المنافقين في غزوة تبوك .
- المبحث الخامس : في تأمر المنافقين في العقبة .
- المبحث السادس : في سياسة التجويع التي انتهجها المنافقون
- المبحث السابع : في تمييز المنافقين .

المبحث الأول

في أسلوب المنافقين لإضعاف الجبهة الداخلية

قلنا في بداية بحثنا إن المنافقين من أخطر أعداء الأمة الإسلامية حيث أنهم يشكلون دولة داخل الدولة الإسلامية، وهم بتسترهم وإخفاء نواياهم وظهورهم مع المسلمين بالمظهر اللائق، يصعب تمييزهم وإدراكهم إلا على من بصره الله وأعطاه قدرة على ذلك.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «أما النفاق فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر، فإنه أمر خفى على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به فيزعم أنه مصلح وهو مفسد»^(١).

وأن الدور الكبير الذي لعبه المنافقون في شتى مراحل الدعوة المحمدية منذ بدء النفاق بعد حلوله - ﷺ - في المدينة هو دور خطير، فقد دأب المنافقون على الفساد والإفساد، وتشويه الحقائق، وإثارة الشبه والشكوك ومختلف الأراجيف ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ ولذا نجد القرآن الكريم عني كثيراً بذكر النفاق والمنافقين، وحثّر منهم في آيات كثيرة وسور عديدة حتى أفرد لهم سورة من القرآن وهي سورة «المنافقون» وهذه السورة أعني سورة «المنافقون» لها أهمية خاصة حيث أنها نزلت مرة واحدة في غزوة بني المصطلق^(٢)، وقد خرج المنافقون في هذه الغزوة في كثرة لم يخرجوا في مثلها لا رغبة في الجهاد ولا طمعاً في إدخال الفشل على جيش المسلمين، ولكن ليصيبوا من الغنائم، وعرض الدنيا وهم في مظهر المؤمنين الصادقين.

(١) صفات المنافقين لابن القيم / ١٥.

(٢) اختلفت الروايات في تحديد زمن هذه المعركة هل كانت قبل الأحزاب أو بعدها، ويرى الواقي أنها كانت في أول شعبان في السنة الخامسة للهجرة... (الواقدي / ١ / ٤٠٤).

وفي أثناء العودة حدث حادث تافه أدى إلى إظهار عبد الله بن أبي وأشياعه بمظهرهم الحقيقي فاندفعت ألسنتهم تخرج من أفواههم جيفاً منتناً من النفاق والفتنة^(١). وهذا الحادث هو أن جهجاه بن سعيد الغفاري - وكان أجيراً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه - تنازع مع سنان بن يزيد وهما يزدحمان على الماء فصاح جهجاه: يامعشر المهاجرين، وصاح سنان يامعشر الأنصار، وقد انتهت المسألة بسلام بعد وساطة مشكورة من عدد من المهاجرين والأنصار، لكن رأس الكفر وشيخ المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول اتخذها فرصة سانحة فغضب وأظهر جلياً ما في نفسه من حقد وحسد وكره وبغض للإسلام والمسلمين فقال: وقد فعلوها نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا وجلايب قريش^(٢) إلا كما قال الأول «سمن كلبك يأكلك»^(٣) والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ثم أقبل من حضره من قومه وفيهم زيد بن أرقم^(٤) - وكان غلاماً حدثاً - فقال لهم: هذا

(١) النفاق والمنافقون - إبراهيم علي سالم - /١٨٣/ .

(٢) جلايب: لقب لمن أسلم من المهاجرين لقبهم بذلك المشركون، وأصل الجلايب الأزرق الغلاظ كانوا يلتحفون بها فلقبوهم بذلك .

(٣) وعند الطبري كما قال القائل وهو مثل من أمثال العرب وأول من قاله حازم بن المنذر الجمالي وذلك أنه مر بمحلة همدان فوجد غلاماً ملفوفاً في ثوب فرحمه وحمله معه وقدم به منزله وأمر أمة له أن ترضعه حتى كبر وراهق الحلم فجعله راعياً لغنمه وسباه جحيشاً وكان لحازم ابنة يقال لها راعوم فهويت الغلام وهويها وانتبه حازم لهذا فترصد لهم حتى عرف الحقيقة ووجدهم على الفاحشة، فقال: «سمن كلبك يأكلك» فأرسلها مثلاً وشد على جحيش ليقته ففر ولحق بقبيلته . . . (انظر مجمع الأمثال للميداني /١/ ٣٣٣/ .)

(٤) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي صحابي مشهور أول مشاهده الخندق وأنزل إليه تصديقه في سورة المنافقون توفي سنة ٦٦ أو ٦٨ هـ استصغر يوم أحد ويقال كان أول مشاهده المريسيع . . . (انظر أسد الغابة /٢/ ٢٧٦/ والاصابة /١/ ٥٦٠/ وتهذيب التهذيب /٨/ ٦٦، ٦٧) .

ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

توجه زيد بن أرقم إلى رسول الله - ﷺ - فأخبره الخبر وكان عنده عمر بن الخطاب فقال للرسول - ﷺ - مر عباد بن بشر فليقتله فقال الرسول وكيف ياعمّر إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه ، لا ، ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن الرسول - ﷺ - يرتحل فيها فتحرك المسلمون ، ولما علم ابن أبي أن أمره قد انكشف مشى إلى الرسول - ﷺ - متوسلاً وحلف بالله ما قلت مقالة زيد ولا تكلمت بها ، فقال عدد من الأنصار عطفاً على ابن أبي لمكانته في قومه عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، وعندما سمع أسيد بن حضير أحد كبار الأنصار الخبر من الرسول - ﷺ - وأنّ ابن أبي زعم أنّه إذا رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ قال أسيد ، فأنت يارسول الله الأعزّ ، والله نخرجه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ، وما لبث أسيد أن تذكر الظروف التي أحاطت بزعيم المنافقين ودفعته إلى اتخاذ موقفه الحاقداً هذا على الإسلام ورسوله فقال يارسول الله أرفق به ^(١) ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وأن قومه ينظمون الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه ^(٢) .

فانطلق الرسول - ﷺ - بالمسلمين يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم التالي .

(١) هذه الكلمة قالها أيضاً سعد بن عباد عندما عاده الرسول - ﷺ - في مرضه وشكا إليه ابن

أبي كما سيأتي إن شاء الله .

(٢) ابن هشام/٢/٣٠٢ ، والطبري/٢/٦٠٥ - ٦٠٦ ، والواقدي/٢/٤١٧ - ٤١٩ ،

والبداية والنهاية لابن كثير/٢/١٥٧ ، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي/١٢٢٤ ،

والكامل لابن الأثير/٢/١٣١ ، ١٣٢ ، وقصص القرآن/٣٩٣ وما بعدها .

قال ابن هشام: إنما فعل رسول - ﷺ - ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس^(١) من عبدالله بن أبي^(٢).

وقال الواقدي: إن الناس راخوا ينخدعون بمقالة ابن أبي، وما كان منه، فما هو إلا أن أخذهم السهر والتعب بالسير فما نزلوا حتى ما يسمع لقول ابن أبي في أفواههم ذكراً.

وعندما بلغت مقالة ابن أبي ابنه الصحابي الجليل عبدالله بن عبدالله بن أبي وما كان من أبيه، قال للرسول - ﷺ - يارسول الله انه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني واني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار، فأجابه رسول الله - ﷺ - «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»^(٣).

أما بعد هذا الموقف الكريم المتسامح من صاحب الخلق العظيم - ﷺ - فقد كان رأس الكفر والنفاق إذا تكلم أو أحدث حدثاً تولى قومه عقابه وتفنيده وتعنيفه وتسفيه رأيه، وحينذاك قال ﷺ كيف ترى يا عمر: أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أنف^(٤) لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته،

(١) والحكمة في هذا بينة واضحة من أمره - ﷺ - بالرحيل في وقت لم يكن يعتاد الرحيل فيه وذلك أن ترك هذا الخبر ليشتر في صفوف الجند يوهن من عزائمهم ويوجد بلبله واضطراباً في الأفكار ويتيح فرصة للقليل والقال، فكانت خطوة موفقة بل ورائدة ومعلمة حيث أجهدهم التعب والنصب فوقعوا نياماً فمسح النوم آثار الفتنة.

(٢) ابن هشام/٢/٣٠٢، والطبري/٢/٦٠٦ - ٦٠٧، والواقدي/٢/٤٢٢.

(٣) ابن هشام/٢/٣٠٠ - ٣٠٣، والطبري/٢/٦٠٨، والواقدي/٢/٤٢٠ - ٤٢١،

وقصص القرآن للأستاذ محمد أحمد جاد المولى/٣٩٥.

(٤) لأرعدت له أنف: أي انتفخت واضطرب أنوفهم حمية وعصبية.

أجاب عمر - رضي الله عنه - قد والله علمت لأمر رسول الله - ﷺ - أعظم بركة من أمري^(١) .

وقد لعب المنافقون في غزوة بني المصطلق دورين هامين كان لهما أثر كبير، وهزة شديدة كادت أن تؤدي إلى فتن مستعرة لولا أن الله عصم المسلمين، ومنّ عليهم، وردّ كيد المنافقين إلى نحورهم وفضح الكاذبين .

أمّا الدور الأول: فهو بذر الفتنة بين المهاجرين والأنصار حتى كادوا يقتتلون، ومحاولة توسيع شقّة الخلاف بينهم لسبب تافه عارض .

والدور الثاني: اتهام السيدة عائشة المبرأة المطهرة زوج الرسول - ﷺ - إفكاً وبهتاناً، وكان كلا الدورين بعد انتهاء الحرب وانتصار المسلمين^(٢) .

وسياتي الكلام على شيخ المنافقين فيما بعد - بحول الله وقوته - بصورة أوفى وأشمل إذ أفردنا له فصلاً مستقلاً في هذا البحث .

وإذا رجعنا نتأمل وجه هذا الحدث فإننا نجد عبد الله بن أبي رجلاً حاقداً غاشياً يعيش بين المسلمين وفي قلبه أحنّ وفتنّ، وشك وشرك وتربّص وتحفز، ومهما توالى عليه آيات الله مبشرة ومنذرة، فإنه لا يسمع ولا يفهم ولا يستجيب، لأنه فقد مجده الدنيوي، وضاع منه التاج الذي تمناه وتشهاه^(٣) .

(١) ابن هشام/٢/٣٠٢، ٣٠٣/، والطبري/٢/٦٠٨ - ٦٠٩ / وتفسيره/٢٨/١١٦ / وتفسير

ابن كثير/٤/٣٧٢/، والبداية والنهاية/٤/١٥٨/ .

(٢) النفاق والمنافقون للأستاذ إبراهيم علي سالم/١٨٢/ .

(٣) من مفردات القرآن الكريم - المنافقون - د . محمد جميل غازي /١٩٢/ .

البحث الثاني

في موقف المنافقين في غزوة أحد

أعمال المنافقين داخل دولة الإسلام في المدينة :

من الملاحظ أن الظروف المحيطة بالمنافقين واعتناقهم الإسلام ظاهراً وارتباطهم أسرياً بالعديد من المسلمين الصادقين أمور كلها هيأت لهم فرصة التخريب والإفساد من الداخل، ومن الواضح أنهم لم يقفوا من الرسول ودعوته موقفاً عدائياً معلناً، بل كانوا يعملون وراء الحجب، ويطلقون الشائعات، ويستترون ويتصلون سرّاً بأعداء الإسلام أمثال يهود المدينة.

ومن المعلوم أن المنافقين قد قاموا بتنظيم صفوفهم وحشد قواهم الماكرة الخفية بعد انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى، تلك المعركة الفاصلة في تاريخ الإسلام والتي غيرت وجه التاريخ، وظهر جلياً للعيان ولجميع القوى المعادية للإسلام أن الإسلام أصبح قوة عظيمة لا يستهان بها، ودخل في الإسلام أيضاً أناس خبيثاء ماكرون ليكيدوا له، ولاشك أن كل عدو للإسلام والمسلمين قد غاظه انتصار المسلمين في بدر فأخذوا يفتشون عن طرق أخرى للنيل من الإسلام والكيد له ولأهله، ففي غزوة أحد ذهب المنافقون مع المسلمين إلى المعركة ومعهم زعيمهم عبدالله بن أبي بن سلول فانشق عن المسلمين وأظهر خبيثه ومكره.

انخزال المنافقين في هذه المعركة :

قال ابن إسحاق حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخزل عبدالله بن أبي بن سلول بثلاث الناس وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام

نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب وأتبعهم عبدالله بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تحذلوا قومكم ونيبكم عندما حضر من عدوهم فقالوا لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكننا لا نرى أنه يكون قتال، قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلاّ الإنصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه^(١).

وإنما فعل شيخ المنافقين فعلته النكراء تلك ليحدث حسب تصوّره صدعاً وخلخلة في صفوف المسلمين وهم أساساً لم يخرجوا للقتال وإنّما خرجوا من أجل الفتنة وإحداث الرعب والخوف والإضطراب والتوتر في صفوف المسلمين ظانين أنّ خروجهم ورجوعهم بعد ذلك سيحدث فجوة كبيرة يصعب ملؤها، وهو تخطيط لثيم ماكر ينبيء عن خبث وفساد، وهم بعد ذلك يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ويراقبون النتائج علّها تكون في صالحهم، ولذلك نراهم بعد نهاية المعركة، وقفوا موقف اللثام الجبناء وراحوا بخسة ونذالة يشمتون بالمسلمين، ويطلقون مختلف الشائعات والأراجيف الكاذبة، وظهر جلياً ما في صدورهم وكذبت ألسنتهم فيما يقولون وما يدعون، قال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾^(٢).

وفي هذا تمييز المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في الغيب، وذلك العلم لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنّما

(١) السيرة النبوية لابن هشام/٢/٦٨، والنفاق والمنافقون/١٢٠/.

(٢) الآيات (١٦٦ - ١٦٨) من سورة آل عمران.

يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس^(١) .

وقد أنزل الله تبارك وتعالى في شأن غزوة أحد ستين آية في سورة آل عمران (من الآية ١٣١ إلى الآية ١٨٠) وهي كما سبقت الإشارة إليها سورة مدنية نزلت بعد فترة من حياة المسلمين بالمدينة ، وقد تغلبت عليهم خلال هذه الفترة أحداث وأحداث كثيرة مختلفة ، وتحدث الآيات في هذه السورة عمّا وقع للمسلمين في أحد وكيف أنهم كانوا يسمعون كلمات الشّاة والتخذيل من الكفار والمنافقين بقولهم «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا» وقولهم «لو نعلم قتلاً لاتبعناكم» ، وقولهم «لو أطاعونا ما قتلوا . . الخ» وترد الآيات على هؤلاء المنافقين الشامتين بأنّ من جادوا بأنفسهم في سبيل الله ليسوا أمواتاً توارت أجسامهم كما يظنون بل أنهم في جنات ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وكذلك ترشد الآيات إلى أنّ ما وقع في أحد أراد الله به تطهير صفوف المسلمين من أرباب القلوب الفاسدة ، وأنها كانت درساً لهم بين لهم أخطاءهم التي ارتكبوها وأراهم نتائجها رأى العين حتّى لا يقعوا في مثلها مرة أخرى^(٢) .

(١) من مفردات القرآن «المنافقون» / ٥٧/ .

(٢) سيرة الرسول ومعالمها من القرآن الكريم والسنة المطهرة - محمد إسماعيل إبراهيم / ١٥٦/ ، وانظر من مفردات القرآن «المنافقون» / ٤٧/ .

المبحث الثالث

في موقف المنافقين في غزوة الأحزاب

من المعلوم أن قريشاً عقدت العزم هي وحلفائها على مهاجمة المسلمين في المدينة ليقضوا على الدعوة في مهدها، وسببها - كما يقول المؤرخون - أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين يوم أحد خرج أشرافهم إلى قريش بمكة يجرسونهم على غزور رسول الله - ﷺ -^(١).

ولقد رأى الرسول - ﷺ - أن يضرب على المدينة خندقاً تحصيناً لها، ولقد عمل فيه رسول الله - ﷺ - بنفسه . . . قال ابن هشام^(٢): فلما سمع بهم - يعني الأحزاب - وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله - ﷺ - ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا وأبطأ عن رسول الله - ﷺ - وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهلهم بغير علم رسول الله - ﷺ - ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابتة النائبة من الحاجة لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً له فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا

(١) مختصر سيرة الرسول - ﷺ - للشيخ محمد بن عبد الوهاب/٩٢٣/.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام/٣/٢٢٦ - ٢٢٧/، والطبري/٢/٥٦٤ وما بعدها/ والمغازي

للواقدي/٢/٤٤٦ وما بعدها/، وسمط النجوم العوالي/٢/١٢٧/.

استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله، إن الله غفور رحيم ﴿١﴾ .

فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة والخير والطاعة لله ولرسوله ﷺ . . . ثم قال الله تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبي - ﷺ - وكان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي - ﷺ - فيخرجون من المسجد في استتار^(١)، قال تعالى: ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾^(٢) .

ونجم النفاق، وفشل الناس وعظم البلاء واشتد الخوف، وخيف على الذراري والنساء^(٣)، وكانوا كما قال الله تعالى ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾^(٤) .

وكان الابتلاء من الله للمؤمنين في هذه الغزوة واضحاً، فقد أحاط بهم الأعداء من كل جانب، فقريش ومن حالفها من قبائل العرب الأخرى الذين تحزبوا لقتال رسول الله - ﷺ - وهناك خطر آخر يهدد المسلمين من الداخل، من المدينة نفسها، خطر يهود المدينة، فاجتمع على المسلمين

(١) سورة النور، الآية (٦٢) .

(٢) الخازن / ٣ / ٣٤٢ .

(٣) سورة النور، الآية (٦٣) .

(٤) الواقي / ٢ / ٤٥٩ .

(٥) سورة الأحزاب، الآية (١٠) .

خطر المشركين واليهود ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناسَ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾^(١).

والعدو الثالث عدو ماكر خبيث خفي وهم المنافقون، وقد توقعوا أن الدائرة ستكون على المؤمنين، وأن الباطل سينتصر، وأن الحق سيندثر، وكانت الفرصة غير مواتية لهم للكذب واختلاق الأعذار الواهية المكذوبة كما فعلوا في أحد، فأبى عذر يمكن قبوله والعدو قد أحاط بالمدينة من كل جانب، ولكنَّ المنافق بحكم حسّته ونذالته وفساد طبعه ولؤمه وقبح هدفه على استعداد أن يضحى بكل شيء ولا يهمه أي شيء في مقابل الكيد للإسلام وزوال عزّة المسلمين، والمنافقون في هذه الغزوة تبين نفاقهم أكثر، ووضح كيدهم للإسلام والمسلمين ومناصرتهم للأعداء المحيطين بالمدينة فقد تكلم بعضهم بكلام ساقط قبيح، قال ابن هشام^(٢): «وعظم عند ذلك البلاء واشتدَّ الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل الظنّ ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط».

وفي هذه المعركة همَّ المنافقون بالانسحاب كما فعلوا في أحد وقدّموا أعذاراً واهية زاعمين أن بيوتهم عورة، وأنهم في خطر، ولا بدّ من الحراسة للبيوت، ولذا كانت المحنة شديدة على المؤمنين والخطر كبيراً.

(١) سورة المائدة، الآية (٨٢).

(٢) كانت غزوة الخندق أو الأحزاب في شوال سنة خمس من الهجرة - (ابن هشام/٢٢٤/.)، ومختصر سيرة الرسول - محمد بن عبد الوهاب /١٢٣/، والسيرة النبوية لابن هشام/٣/١٣٣، والسيرة النبوية لأبي الحسن علي الحسن الندوي/٢١٣/، والنفاق والمنافقون/١٧٦/، وسمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل /١٣٢/٢، والبداية والنهاية/٤/١٠٤/.

قال تعالى : ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾^(١) وقال تعالى عن المنافقين : ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾^(٢).

وقال تعالى : ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلاّ فراراً، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلاّ يسيراً، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديار وكان عهد الله مسئولا، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلاّ قليلا، قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً، قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلا أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾^(٣).

ولقد أفاض القرآن في وصف حال المنافقين وأنهم أعجز وأضعف من أن يواجهوا الحروب، وأقل الناس ثباتاً في المعارك، أمّا إذا ذهب الخوف وزال الخطر ترتفع أصواتهم ويعلو ضجيجهم بالكذب، وتنتفخ أوداجهم بالعظمة الكاذبة وادعوا البطولة والرجولة والشجاعة والشهامة وهم في ذلك كله كاذبون مفترون .

(١) سورة الأحزاب، الآية (١١).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (١٢).

(٣) سورة الأحزاب، من الآية (١٣) إلى الآية (١٩).

المبحث الرابع

في موقف المنافقين في غزوة تبوك

وقد تميزت هذه الغزوة عن غيرها من غزواته - ﷺ - بأمور منها: الكشف عن معدن المنافقين، وبينت خباياهم وأوضحت مكنوناتهم وكشفت أستارهم، فقد نزلت فيها سورة براءة المسماة بالفاضحة والمبعثرة والحفارة.

وقد ورد في حديث سعيد بن جبير: سألت ابن عباس - رضي الله عنهما - عن سورة براءة قال: «تلك الفاضحة مازال ينزل ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحداً»^(١).

وعن حذيفة - رضي الله عنه - أنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب والله ما تركت أحداً إلا نالت منه^(٢).

وفي غزوة تبوك^(٣) حين عزم الرسول - ﷺ - وتجهز للقاء الروم وقف المنافقون مواقفهم المعتادة فقاموا بالتخذيل والتشبيط، وتكثير قوة الأعداء وتحقير المسلمين وإظهار ضعفهم أمام أعدائهم من بني الأصفر وقاموا بتخويف الناس، وسلكوا كل طريق يضعفهم فقد خوفوهم من الحرِّ وصعوبة الطريق، وبعد المسافة، وقوة وكثرة وصلابة العدو، وقام عدو الله ورسوله عبدالله بن أبي بإعداد جيش قوامه المنافقون واليهود ليظهر قوته ومكانته، وليفعل فعلته الشنعاء المعتادة، يعدّ العدة ظاهراً ثم ينسحب

(١) صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة الحشر.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) الكامل لابن الأثير/٢/١٥٠ - ١٩٠، والبداية والنهاية/٣/٥، والسيرة النبوية لأبي

الحسن الندوي/٣١١/.

بقصد الخلخلة وزعزعة الثقة وإحداث الفوضى ، أمور كلها من قبيل حرب الأعصاب التي كان يستعملها ، ولذلك قيل ليس معسكر ابن أبي بأقل العسكريين ، ثم بعد ذلك قرر الانسحاب والتخلف ، وقام بيث الدعاوي المغرضة والأراجيف الكاذبة هو وأصحابه فهم متخاذلون مخذلون .

وقد قال ﷺ للجد بن قيس وكان من رؤساء المنافقين : «هل لك يا جد العام في جلاذ بني الأصفر» ، فقال : والله لقد عرف قومي حبي للنساء وأخشى ألا أصبر على نساء بني الأصفر فإن رأيت أتأذن لي ، ولا تفتني؟ فقال رسول الله - ﷺ - قد أذنت لك فأنزل تعالى : ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني . . .﴾ الآية^(١) .

ولما سار رسول الله - ﷺ - تخلف عنه عبد الله بن أبي المنافق فيمن تبعه من أهل النفاق ، واستخلف رسول الله - ﷺ - على المدينة سباع بن عرفة وعلى أهله علي بن أبي طالب ، فأرجف المنافقون ، وقالوا ما خلفه إلا استثقلاً له ، فلما سمع علي ذلك أخذ سلاحه ولحق برسول الله - ﷺ - فأخبره ما قال المنافقون فقال كذبوا ، وإنما خلفتك لما ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أما ترضى يا علي بأن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ألا إنه لا نبي بعدي ، فرجع علي إلى المدينة فسار رسول الله - ﷺ -^(٢) .

وفي هذه الغزوة شكا الصحابة إلى رسول الله - ﷺ - قلة الماء صباح

(١) سورة التوبة ، الآية (٤٩) .

(٢) الكامل لابن الأثير/٢/١٩٠ ، والبداية والنهاية/٥/٧ / رواه مسلم والترمذي عن قتيبة زاد مسلم ومحمد بن عباد كلاهما عن حاتم بن سركن . . . وقال الترمذي حسن صحيح من هذا الوجه .

ذات يوم^(١) فدعا الله فأرسل سحابة فأمطرت حتى روى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء، وكان بعض المنافقين يسير مع رسول الله - ﷺ - فلما جاء المطر قال بعض المسلمين هل بعد هذا شيء قال سحابة مارة، وضلت ناقة رسول الله - ﷺ - في الطريق فقال لأصحابه ومنهم عمارة بن حزم وهو عقيب بدري إن رجلاً قال أن محمداً يخبركم الخبر من السماء وهو لا يدري أين ناقته وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله عز وجل وقد دلني الله عليها وهي في الوادي في شعب كذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا فأتوه بها فرجع عمارة إلى أصحابه فخبرهم بما قال رسول الله - ﷺ - عن الناقة تعجباً مما رأى وكان زيد بن اللصيت القينقاعي منافقاً وهو في رحل عمارة قد قال هذه المقالة فأخبر عمارة بأن زيدا قد قالها فقام عمارة يظأ عنقه وهو يقول في رحلي داهية ولا أدري، أخرج عني ياعدو الله من رحلي ولا تصحبي .

وكانت غزوة تبوك^(٢) آخر غزوة غزاها رسول الله - ﷺ - بنفسه وأنزل فيها سورة براءة، وكانت تسمى في زمان النبي - ﷺ - وبعده «المبعثرة» لما كشفت من سرائر المنافقين وخبايا قلوبهم، وهنالك من ظلوا يتخبطون في بدايات الطريق ولا يقدرّون على الخروج من حفره الضيقة المعذرون من الأعراب الذين جاءوا يلتمسون الأعذار من رسول الله - ﷺ - كيلا يذهبوا إلى القتال فلم يعذرهم الله، والمنافقون الذين راحوا يروجون شائعات الخوف والجبن والتردد، ويهمس بعضهم في أذن البعض الآخر لا تنفروا في الحر، ولقد تحدث عنهم القرآن فيبين حالهم وما يصيرون إليه ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون﴾^(٣) .

(١) الكامل لابن الأثير/٢/١٩١ .

(٢) مختصر سيرة الرسول - ﷺ - للشيخ محمد بن عبد الوهاب/١٦٩ .

(٣) سورة التوبة، الآية (٨١ ، ٨٢) .

وعندما انطلق معهم زعيمهم عبدالله بن أبي ما لبثوا أن انقلبوا عائدين في أول الطريق وزعيمهم يردد (يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا قبل له به يحسب أن قتال بنى الأصفر اللعاب والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين في الحبال...) ضربة من ضربات النفاق وهو يزحف في الظلمات بطيئاً بطيئاً ليلدغ على حد غفلة كما تلدغ العقارب والحيات^(١) . . .

وقد تخلف في هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين بعدما حاولوا إفشال التجهز لها وخذلوا وبذلوا كل ما يستطيعون لتفريق الصفوف وبث الرعب والخوف في نفوس المسلمين، وهناك طائفة أخرى منهم، وإن كانوا قليلاً قد خرجوا مع رسول الله - ﷺ - للفساد والإفساد ومواصلة حرب الأعصاب والتخويف والترجيع ومخالفة الأوامر، فمن أعمالهم الشنيعة وعدم احترامهم لصاحب الرسالة - ﷺ - ما أخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق قال وكان في الطريق ماء يخرج من وشل^(٢) ما يروى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادي المثقف فقال رسول الله - ﷺ - من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه قال فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله - ﷺ - وقف عليه فلم ير شيئاً، فقال من سبقنا إلى هذا الماء فقيل له: يارسول الله فلان وفلان فقال: أو لم أنهمم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتية ثم لعنهم رسول الله - ﷺ - ودعا عليهم ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب في يديه ما شاء الله أن يدعوه فأنخزن من الماء - كما يقول من سمعه - ما أن له حساً كحس الصواعق فشرب الناس

(١) دراسة في السيرة - د. عماد الدين خليل / ٣١٠ - ٣١١ /، شرح الإمام محمد بن عبدالباقى الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني - الطبعة الأولى / ٦٦ / ٣ /، ابن

هشام / ١٦٠ / ٤ / .

(٢) الوشل: الماء القليل .

واستقوا حاجتهم منه فقال رسول - ﷺ - «لئن بقيتم أو من بقي منكم لتسمعنّ بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه . . .»^(١).

وقال ابن إسحاق أيضاً: وكان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو عمرو بن عوف ومنهم رجل من أشجع حليف بني سلمة يقال له مخشى بن حمير، قال ابن هشام: ويقال مخش يشيرون إلى رسول الله - ﷺ - وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض أتخسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مخشى بن حمير: والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنا ننفلت أن ينزل قرآناً لمقاتلكم هذه . . .»^(٢).

قال ابن إسحاق: وقال رسول الله - ﷺ - فيما ينبغي لعمار بن ياسر أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قلتكم كذا وكذا فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت ورسول الله - ﷺ - واقف على ناقته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها يارسول الله: إنما كنا نخوض ونلعب، وقال مخشى بن حمير يارسول الله قعد بي اسمي واسم أبي وكان الذي عفي عنه في هذه الآية: ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾^(٣) وهو مخش بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً فقتل يوم اليامة فلم يوجد له أثر^(٤).

(١) سيرة ابن هشام/٤/٢١٧-٢١٨، وفي مسلم بشرح النووي/٤١/١٥/ ثم قال: «يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ماههنا قد بلى جنانا».

(٢) سيرة ابن هشام/٤/١٣٣، وتفسير ابن كثير/٢/٣٦٧.

(٣) سورة التوبة، الآية (٦٦).

(٤) ابن هشام/١٣٤، وتفسير ابن كثير/٢/٣٦٧، ولباب النقول في أسباب النزول - جلال الدين السيوطي - /١١٩/ طبعة دار إحياء العلوم - بيروت.

وقال ابن جرير: وساق بسنده إلى عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس والله ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبين عند اللقاء فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله - ﷺ - فبلغ ذلك النبي - ﷺ - ونزل القرآن، قال عبدالله بن عمر فأنا رأيت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله - ﷺ - - تنكبه الحجارة وهو يقول: يارسول الله إنا كنا نخوض ونلعب فقال أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم^(١).

وأخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال في هذه الآية بينها رسول الله - ﷺ - يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات، فأطلع الله نبيه - ﷺ - على ذلك فقال: قلت كذا وكذا، فقال: يا نبي الله إنا نخوض ونلعب فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم هذا الشأن^(٢) ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾^(٣).

(١) جامع البيان/١٠ - ٢٧٢ / إسناده ضعيف، وانظر القرطبي/١/١٩٧.

(٢) الطبري/١٠/١٧٢ / وابن كثير/٢/٣٦١.

(٣) سورة التوبة، الآيتان (٦٥ - ٦٦).

المبحث الخامس في تأمر المنافقين في العقبة

ومن مكائدهم وأفعالهم الشنيعة في هذه الغزوة أيضاً أنهم هموا بقتله - ﷺ - أثناء رجوعه من تبوك وقت صعوده العقبة كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي الطفيل قال: «لما أقبل رسول الله - ﷺ - من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى أن رسول الله - ﷺ - أخذ بالعقبة فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله - ﷺ - يقوده حذيفة ويسوق به عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل حتى غشوا عماراً وهو يسوق برسول الله - ﷺ - وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله - ﷺ - لحذيفة قد قد حتى هبط رسول الله - ﷺ - فلما هبط رسول الله - ﷺ - نزل ورجع عمار فقال: يا عمار هل عرفت القوم فقال: قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال: هل تدري ما أرادوا؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله - ﷺ - فيطرحوه». ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح^(١).

وذكر الواقدي هذه القصة وقال: «ولما كان رسول الله - ﷺ - ببعض الطريق مكر به أناس من المنافقين وأتمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق، فلما بلغ رسول الله - ﷺ - تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأخبر رسول الله - ﷺ - خبرهم فقال للناس: «اسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع» فسلك الناس بطن الوادي، وسلك رسول الله - ﷺ - العقبة وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق

(١) مسند الإمام أحمد/٥/٤٥٣، والسيرة الحلبية/٣/١٦٣.

من خلفه، فبينما رسول الله - ﷺ - يسير في العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه فغضب رسول الله - ﷺ - وأمر حذيفة أن يردهم فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله - ﷺ - فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن في يده وظن القوم أن رسول الله - ﷺ - قد اطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله - ﷺ - فساق به، فلما خرج رسول الله - ﷺ - من العقبة نزل الناس، فقال النبي - ﷺ - يا حذيفة هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟ . . . » قال: يارسول الله عرفت فلاناً وفلاناً وكان القوم مثلثمين فلم أبصرهم في ظلمة الليل»^(١).

أسماء أصحاب العقبة من المنافقين^(٢) :

ذكر الحافظ بن كثير في تفسيره عن الطبراني في مسند حذيفة مروياً عن الزبير بن بكار قال: إنهم «معتب بن قشير، ووديعة بن ثابت، وجد بن عبدالله بن نبتل بن الحارث، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قيظي، والحارث بن سويد، وسعد بن زرارة، وقيس بن فهد، وسويد بن داعس من بني الحبلي، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللصيت من بني قينقاع وسلامة بن الحمام وهو أيضاً من بني قينقاع.

فشلت محاولة المنافقين اغتيال الرسول - ﷺ - وانكشف أمرهم، وهذه المحاولة الشنيعة اليائسة تدل دلالة واضحة على خبث المنافقين ومكرهم، وفساد طويتهم ومجادلتهم الله ورسوله كما تدل أيضاً على سخافة عقولهم واداركهم، وأنهم قد أعماهم الهوى فأصبحوا لا يبصرون الهدى، فهم في ظلمات لا يبصرون.

(١) الواقدي / كتاب المغازي / ٣/ ١٠٤٢ - ١٠٤٣ / .

(٢) النفاق والمنافقون في عهد الرسول - ﷺ - ودور اليهود / لابراهيم علي سالم / ٢٤٩ / .

المبحث السادس

في سياسة التجويع التي انتهجها المنافقون

ويقص علينا القرآن الكريم طرفاً من خبثهم ومكرهم وفسقهم في كل زمان ومكان، وهو ما يسمى في العصر الحديث بسياسة التجويع للخصوم ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾^(١).

حقاً إنه طبع خسيس ماكر لئيم، وإنسانية هابطة، إن محاولة التحكم في أرزاق العباد لهو ضرب من العبث، فالرزق بيد الله، الرزق والأجل قرينان ولا يستطيع أي إنسان مهما أوتي من قوة أن يتحكم في أرزاق العباد.

فالله جلّت قدرته «هو الرزاق ذو القوة المتين»... إن أعداء الرسل والملاحدة والطغاة في كل وقت وحين قد عزموا العزم، وأوصى بعضهم بعضاً بهذه الصفة الساقطة الذميمة وهم لسقوطهم وترديهم في مهاوي الرذيلة يحسبون أن لقمة العيش هي كل شيء في حياة الإنسان، وهذا بمنظورهم هم حيث نزلوا إلى درجة الحيوان، فهو الذي لا يهمله إلاّ طعامه وشرابه وشهوته بوجه عام.

يحدثنا التاريخ عن وقائع كثيرة من هذا النوع البهيمي الساقط، فها هي قريش تقاطع بني هاشم في الشعب لتركوا الرسول ويتخلّوا عنه ويتركوه لأعدائه من المشركين، وهكذا فعل إخوانهم من المنافقين في المدينة محاولين عبثاً تفريق الصفوف، وزعزعة الوحدة بين المسلمين يتركوا الرسول - ﷺ - في الميدان وحده، ظانين أنهم سيجوعون وأنهم لن يصبروا على الجوع والحاجة.

(١) الآية (٧) من سورة المنافقون.

ويدل هذا على جهلهم وغبائهم لأن الله تعالى المالك لخزائن السموات والأرض، هو الذي يقدر الأرزاق، قال تعالى: ﴿والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾^(١).

وهذا التخطيط السيء الفاشل يعطي دلالة واضحة على فساد النية وقبح الطوية من هؤلاء المنافقين، وهي صورة قائمة ومظلمة لهذا النوع من البشر صورة تتكرر في كل وقت وحين، فهم في كل زمان ومكان وإن تظاهروا بالإسلام وعملوا بعض الأعمال الظاهرة فهم خصوم ألداء لله ورسوله وللمؤمنين ولن يستطيع أحد مهما أوتي من عقل وخلق فاضل أن يسلك مسلكاً أفضل من معاملة الرسول - ﷺ - لهم ومع ذلك فلم يزدتهم ذلك إلا خبثاً وعناداً ومكراً ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾^(٢).

(١) سورة المنافقون، الآية (٧).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٣٠).

البحث السابع

في

تمييز المنافقين

كان للمنافقين علامات وميزات يتميزون بها من أقوالهم وأفعالهم، وما انطبغوا عليه من أخلاق وصفات مهينة .

ولو شاء الله تعالى لأرى النبي - ﷺ - المنافقين وأعلمه بهم وعرفهم له بأعيانهم ولكنه - تعالى - لم يفعل ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه وحماً للأمر على ظاهر السلامة ورداً للسرائر إلى عالمها، ولكنه - ﷺ - سيعرفهم من معاني كلامهم وفحواه ومغزاه^(١)، قال تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾^(٢).

قال الزجاج: «المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة وهي السبب فلعرفتهم بتلك العلامة» وكان - ﷺ - بعد هذا لا يتكلم عنده منافق إلا عرفه^(٣).

وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين قال عقبة بن عمرو - رضي الله عنه - خطبنا رسول الله - ﷺ - خطبة فحمد الله - تعالى - وأثنى عليه ثم قال: «وأن فيكم منافقين، فمن سميت فليقم ثم قال: يافلان، قم يافلان، قم يافلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال: إن فيكم أو منكم منافقين قال فمرّ عمر - رضي الله عنه - برجل ممن سمى مقنع قد

(١) فتح القدير للشوكاني/٥/٣٩، ٤٠، ومختصر ابن كثير/٣/٣٣٦.

(٢) سورة محمد، الآية (٣٠).

(٣) فتح القدير للشوكاني/٥/٤٠.

كان يعرفه فقال : مالك؟ فحدثه بما قال رسول الله - ﷺ - فقال : بعدا لك سائر اليوم^(١) .

وقد ورد في تفسير القرطبي^(٢) عن ابن عباس أنه قال : أنزل الله أسماء المنافقين وكانوا سبعين رجلاً ثم نسخ تلك الأسماء من القرآن رافة منه ورحمة لأن أولادهم كانوا مسلمين والناس يعير بعضهم بعضاً ، فعلى هذا قد أنجز الله وعده بإظهار ذلك إذ قال : ﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾^(٣) .

فالله تعالى يخرج ما يحذر المنافقون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون بإنزال سورة أو بإخبار رسوله بذلك^(٤) .

وكان النبي - ﷺ - يعلم كثيراً منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه ، وكان حذيفة بن اليمان يعلم ذلك بإخبار النبي - ﷺ - إياه حتى كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : يا حذيفة - هل أنا منهم؟ فيقول له : لا^(٥) .

ولقد اختلفت الروايات عن عدد المنافقين وأسمائهم ومن عرف أمره منهم فقليل أنهم ثلاثمائة وقيل سبعون .

فكان الكثير من المنافقين معروفاً للنبي - ﷺ - وللمؤمنين وكان ينزل على الرسول - ﷺ - بين آن وآخر ما ينبئه بأخبارهم .

قال أبو بكر الأصم^(٦) : إن قوماً من المنافقين اصطلحوا على كيد في حق الرسول - ﷺ - ثم دخلوا عليه لأجل ذلك الغرض فأتاه جبريل - عليه

(١) مختصر ابن كثير/٣/٣٣٧/ والحديث أخرجه الإمام أحمد .

(٢) القرطبي/٨/١٩٦/ .

(٣) سورة التوبة، الآية (٦٤) .

(٤) فتح القدير للشوكاني/٢/٣٧٧/ .

(٥) القرطبي/١/١٧٣/ .

(٦) السيرة المكية لزيبي دحلان/١/٤١٤/ .

السلام - فأخبره فقال - ﷺ - إن قوماً دخلوا يريدون أمراً لا ينالونه فليقوموا وليستغفروا الله حتى استغفر لهم فلم يقوموا فقال: ألا تقومون؟ فلم يفعلوا، فقال - ﷺ -: قم يافلان قم يافلان حتى عدد اثني عشر رجلاً منهم فقاموا وقالوا كنا عزمنا على ما قلت، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا فاستغفر لنا، «فقال الآن اخرجوا أنا كنت في بادئ الأمر أقرب إلى الاستغفار وكان الله أقرب إلى الإجابة اخرجوا عني فنزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾^(١).

كما عرف النبي - ﷺ - عصابة المنافقين الذين تآمروا عليه ليلة العقبة عند عودته من تبوك واستكتم أمرهم صاحب سره حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - حتى قيل أنه علم من النبي - ﷺ - جميع أمر المنافقين وحتى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يدعو في خلافته حذيفة بن اليمان للاشتراك معه في الصلاة على موتى المؤمنين فإذا امتنع من الصلاة علم عمر أن المتوفى منافق فترك الصلاة عليه^(٢) عملاً بقول الله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾^(٣).

على أن هذا لا يمنع أن كثيراً من المنافقين لم يعلم عنهم شيء لأنهم اكتفوا بإظهار الإسلام تقية من القتل، ولم يقوموا بأي عمل إيجابي ضد المسلمين.

(١) سورة النساء، الآية ٦٤ وانظر الفخر الرازي في تفسير الآية (٦٤) من سورة النساء ﴿ولو أنهم ظلموا أنفسهم﴾.

(٢) النفاق والمنافقون/٣١٧.

(٣) سورة التوبة، الآية (٨٤).

الفصل الثالث

في

موقف القرآن من المنافقين والمتآمرين على الإسلام
وكيف فضحهم وعرّى خطّهم وكشفها للرسول وأصحابه

المبحث الأول

في موقف القرآن الكريم من المنافقين

القرآن الكريم وهو من لدن حكيم خبير قدّم لنا نماذج وصوراً من طباعهم وأخلاقهم وما جبلوا عليه من خسة ونذالة وتذبذب وتلّون، فهم دائمو التناقض مظهرهم شيء ومخبرهم شيء آخر، وهم في جنبهم وخبثهم وخورهم وخوفهم الشديد - كما حكى لنا ذلك القرآن الكريم - نجد الغرور والمكابرة عاملين أساسيين في حياتهم، ويبدو ذلك واضحاً تمام الوضوح في آيات القرآن الكريم^(١). . . فهم من أشد أعداء الأمة الإسلامية، فالواحد منهم يعرف بلسانه وينكر بقلبه، قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾^(٢).

- (١) عن المواقف القرآنية أزاء المنافقين انظر البحث القيم لمحمد عزّه دروزه، وسيرة الرسول - ﷺ - بالجزء الثالث «فصل المنافقون» في العصر المدني/٧٣، ١٢٠/، وانظر صفات المنافقين وأقوالهم سورة البقرة/٨-١٦، /٢٠٣-٢٦٠/، والنساء: /١٣٧-١٣٨-١٤٢-١٤٣-١٤٥-١٤٦/، والتوبة: /٥٦-٥٧-٦١-٦٢-٦٧-٦٨-٧٣-٧٧-٨٤-٨٥-٩٧-٩٨-١٠١/، محمد/٢٩-٣٠/، الحديد/١٣-١٤/، المنافقون /١-٨/ . . . وانظر مواقفهم الكيدية والساخرة: سورة النساء/٦٠-٦١-٦٢-٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٦٧-٦٨-٦٩-٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥-٧٦-٧٧-٧٨-٧٩-٨٠-٨١-٨٢-٨٣-٨٤-٨٥-٨٦-٨٧-٨٨-٨٩-٩٠-٩١-٩٢-٩٣-٩٤-٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠-١٠١-١٠٢-١٠٣-١٠٤-١٠٥-١٠٦-١٠٧-١٠٨-١٠٩-١١٠-١١١-١١٢-١١٣-١١٤-١١٥-١١٦-١١٧-١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١-١٢٢-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤٠-١٤١/، والتوبة /٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٢-٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٦٧-٦٨-٦٩-٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥-٧٦-٧٧-٧٨-٧٩-٨٠-٨١-٨٢-٨٣-٨٤-٨٥-٨٦-٨٧-٨٨-٨٩-٩٠-٩١-٩٢-٩٣-٩٤-٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠-١٠١-١٠٢-١٠٣-١٠٤-١٠٥-١٠٦-١٠٧-١٠٨-١٠٩-١١٠-١١١-١١٢-١١٣-١١٤-١١٥-١١٦-١١٧-١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١-١٢٢-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤٠-١٤١/، والمنافقون /١-٨/ . . . وانظر مواقفهم من الجهاد ووقائعه: آل عمران/١٥٦-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٢-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٦-١٧٧-١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠/، الأحزاب/٩-٢٠/، الحشر/١١-١٢/، دراسة في السيرة - د. عماد الدين خليل/٣٦٩/.
- (٢) سورة البقرة، الآيتان (٨، ٩).

والمناقفون مرضى القلوب مظلومو الأفتدة، ولن يصفهم أحد مهما أوتي من قوة بيانيّة، وحجة بلاغيّة بمثل ما وصفهم به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

ولكل منهم وجهان: وجه يلقي به المؤمنين وآخر يلقي به الكافرين والجاحدين، وله لسانان: أحدهما ظاهره مع المسلمين والآخر مع الكافرين... قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢).

قد تركوا الكتاب والسنة وأهلها استهزاء وكفراً وعناداً، وفرحوا بما عندهم من العلم ﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾^(٣). فهم في تجارتهم هذه خاسرون، وعن الربح بعيدون ضلوا وهلكوا وخسروا ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾^(٤).

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: اشتروا الضلالة بالهدى: أي الكفر بالإيمان... وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى... وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: آمنوا ثم كفروا... وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: استحَبُّوا الضلالة على الهدى والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن

(١) سورة النساء، الآية (١٣٧، ١٣٨).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٤).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٥).

(٤) سورة البقرة، الآية (١٧).

الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة^(١) . . . فهم لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه^(٢) قال تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾^(٣).

وهم مفسدون في الأرض بمعصيتهم ربهم وركوبهم ما نهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه، وكذبهم على المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه من الشك والريب ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا وهم يزعمون أنهم بفعلهم هذا مصلحون مع أن ما يفعلونه هو عين الفساد^(٤) . . . ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾^(٥).

وهم مع ذلك لا يشعرون لفساد عقولهم بما حلّ في قلوبهم من حبّ الشهوات وتراكم الشبهات والبعد عن هدى الله ونور القرآن.

وإذا دعوا إلى الإيمان الصحيح والعمل الصالح قالوا: لا يغالهم في الضلالة والجهل - كما حكى عنهم القرآن الكريم - ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾^(٦).

وأما قولهم عن المؤمنين بأنهم سفهاء ضعفاء العقول فهذه حال الكافرين والجاحدين والمعاندين قديماً وحديثاً لم يقصدوا بما قالوا إلاّ النيل من المسلمين وتهوين شأن المؤمنين والأرجاف بهم وتحقيرهم، وقد باء مسعاهم بالفشل والخذلان.

(١) فتح القدير/١/٤٥، ٤٦/.

(٢) فتح القدير/١/٤٧/.

(٣) البقرة، الآية (١٨).

(٤) مختصر ابن كثير/١/٣٤/.

(٥) سورة البقرة، الآيتان (١١، ١٢).

(٦) سورة البقرة، الآية (١٣).

البحث الثاني

في أمثال المنافقين في القرآن الكريم

لَمَّا ذكر القرآن الكريم في أول سورة البقرة أقسام الناس تجاه هذا النور العظيم وهو الإسلام وموقفهم منه، وتحدّث عن المنافقين وفضحهم وعرى وكشف خططهم ومكنوناتهم، ضرب للمنافقين مثالين في غاية الدقة والروعة والجمال وحسن التصوير والإبداع تنزيل من حكيم خبير بشئون خلقه .

المثال الأول :

في هذا المثال تشبيه حال المنافقين وعدولهم عن هدى الله ونوره ووقوعهم في الكفر وظلمته وحيرته فيقول الله تعالى : ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلَمَّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صَمَّ بكم عمي فهم لا يرجعون﴾^(١).

فالله سبحانه وتعالى شبّههم في اشترائهم الضلالة وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد ناراً فلَمَّا أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصرها عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى، وهو مع هذا أصمّ لا يسمع، أبكم لا ينطق أعمى فلو كان ضياء لما أبصر^(٢)، فكذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال من الحرام والخير من الشرّ، فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشرّ^(٣) . . أضاءت لهم^(٤)

(١) سورة البقرة، الآيتان (١٧، ١٨).

(٢) مختصر ابن كثير / ١/ ٣٦.

(٣) فتح القدير للشوكاني / ١/ ٤٧.

(٤) صفات المنافقين للإمام ابن قيم الجوزية / ٢٢.

نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال ثم طغى ذلك النور، وبقيت ناراً تتأجج ذات لهب واشتعال فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون. ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾^(١).

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر فهي لا تسمع منادى الإيمان وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى فهي لا تبصر حقائق القرآن وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾.

المثال الثاني :

المنافقون لا يرجعون من الغي والضلال حيث لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله وزيادة في الكشف والإيضاح ثنى الله تعالى بمثل آخر لهم فقال: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير﴾^(٢).

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لفريق آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فمثلهم في حال شكهم وكفرهم وحيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد وفي ذلك السحاب ظلمات داجية، ورعد قاصف وبرق خاطف فيضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق وذلك من فرط الدهشة، والفرع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم من الموت ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بهم لقدرته، وهم تحت إرادته ومشيئته^(٣).

(١) سورة البقرة، الآية (١٧).

(٢) سورة البقرة، الآيتان (١٩، ٢٠).

(٣) صفوة التفاسير/١/٢٣، ومختصر ابن كثير/١/٣٧.

ويقارب البرق لشدته وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة، وكلما أثار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه، وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم، وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعه - مع خوفهم أن يخطف أبصارهم، انتهزوها فرصة فخطوا خطوات يسيرة، وإذا خفى وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في أماكنهم خشية التردى في حفرة، ولو أراد الله لزيد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم فإنه تعالى قادر على كل شيء لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء^(١).

قال ابن جرير: وإنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه ضد المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر^(٢).

قال ابن عباس: يكاد البرق يخطف أبصارهم لشدة ضوء الحق مع ضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان، وكلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعرض لهم الشكوك فتظلم قلوبهم ويقفون حائرين، فهم يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين، وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخالص من المنافقين الذين قال الله تعالى

(١) صفوة التفاسير/١/٢٤.

(٢) تفسير الطبري/١/٧٩.

فيهم : ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾^(١) .

وقال في حق المؤمنين : ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾^(٢) .

قال ابن عباس : ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، قال : لما تركوا من الحق بعد معرفته^(٣) .

وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أنّ هذين المثالين مضر وبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو» في قوله تعالى : ﴿أو كصيب من السماء﴾ بمعنى الواو كقوله تعالى : ﴿ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً﴾^(٤) أو تكون للتخيير: أي اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا .

قال القرطبي : أو للتساوي مثل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، ووجهه الزمخشري بأن كلاّ منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه ، ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم^(٥) .

(١) سورة الحديد، الآية (١٣) .

(٢) سورة الحديد، الآية (١٢) .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير/١/٣٨/ .

(٤) سورة الإنسان، الآية (٢٤) .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير/١/٣٨/ .

البحث الثالث

في اهتمام القرآن بأمر النفاق والمنافقين

إن القارىء للقرآن الكريم يجد اهتماماً كبيراً واضحاً بشأن النفاق والمنافقين، وكما أسلفت، وذكرت الآيات التي ورد فيها ذكر المنافقين وسبب هذه العناية بأمرهم:

أولاً: أن المنافق بحكم طبعه وما جبل عليه من خبث ومكر وخديعة ومحادة لله ورسوله، وكونه يعيش في أوطان وأحضان المسلمين وهو أساساً إنما دخل في دين الله ليحمي نفسه أولاً، ولإيقاع الضرر بالإسلام والمسلمين ثانياً ولكونه حرباً خفية من الداخل كان أمره أعظم وخطره أشد وفساده أكثر.

ثانياً: من أجل التغطية لهم ومعرفتهم لثلا يقع المسلمون في مصائبهم وحبائلهم وليعالجوا أمرهم بالطرق المناسبة كما كان يفعل ذلك رسول الله - ﷺ - في كثير من مواقفهم العدائية المحادة لله ورسوله وللمؤمنين أيضاً في وجود زمرة من أمثال هؤلاء في أي مجتمع فهي ظاهرة صحية لا تنقص ذلك المجتمع في شيء وهي دليل على قوة وتأثر ذلك المجتمع وتماسكه حيث اضطر أفراد معينون إلى المسالمة والمداهنة، وإن كانت ظاهرة، وقد هتك الله - سبحانه - أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن وجلى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته ومواليته وهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد^(١).

(١) صفات المنافقين لابن القيم/١٦/.

البحث الرابع في المنافقين مرضى القلوب

تحدث القرآن الكريم عن القلوب المريضة في اثنتي عشرة آية من آياته، وبين أن هذا المرض يصاب به المنافقون كما يصاب به المترددون بين الإيمان والكفر، نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾^(١). . . فجمع بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وكذلك قوله تعالى: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾^(٢). . . وقوله تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾^(٣).

وقد يذكر مرضى القلوب وحدهم وحينئذ يكون المقصود بهم المنافقين كما جاء في قوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾^(٥). . . وقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾^(٦). . . تلك هي قلوب المنافقين أظلمت شبهاً وازدادت رجساً فوق رجسهم^(٧).

-
- (١) سورة الإنفال، الآية (٤٩).
 - (٢) سورة الأحزاب، الآية (١٢).
 - (٣) سورة الأحزاب، الآية (٦٠).
 - (٤) سورة البقرة، الآية (٧).
 - (٥) سورة المائدة، الآية (٥٢).
 - (٦) سورة محمد، الآية (٢٩).
 - (٧) من مفردات القرآن الكريم، المنافقون (٨، ٩)، وصفوة التفاسير/٢١/.

ولقلوب المنافقين والكافرين في القرآن الكريم عشرون وضعاً^(١) :

- ١ - الختم : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾^(٢) .
- ٢ - الطبع : ﴿فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾^(٣) .
- ٣ - الضيق : ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنها يصعد في السماء﴾^(٤) .
- ٤ - المرض : ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾^(٥) .
- ٥ - الرّين : ﴿كلّأ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾^(٦) .
- ٦ - الكبر : ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾^(٧) .
- ٧ - القساوة : ﴿فويل للقاسية قلوبهم عن ذكر الله﴾^(٨) .
- ٨ - الانصراف : ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾^(٩) .
- ٩ - الحميّة : ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة﴾^(١٠) .
- ١٠ - الإنكار : ﴿قلوبهم منكروة وهم مستكبرون﴾^(١١) .
- ١١ - الغفلة : ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾^(١٢) .
- ١٢ - العمى : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾^(١٣) .

(١) من مفردات القرآن الكريم المنافقون / ٩ .

- (٢) سورة البقرة، الآية (١٠) .
- (٣) سورة المنافقون، الآية (٣) .
- (٤) سورة الأنعام، الآية (١٢٥) .
- (٥) سورة البقرة، الآية (١٠) .
- (٦) سورة المطففين، الآية (١٤) .
- (٧) سورة غافر، الآية (٥٦) .
- (٨) سورة الزمر، الآية (٢٢) .
- (٩) سورة التوبة، الآية (١٢٩) .
- (١٠) سورة الفتح، الآية (٢٦) .
- (١١) سورة النحل، الآية (٢٢) .
- (١٢) سورة الكهف، الآية (٢٨) .
- (١٣) سورة الحج، الآية (٤٦) .

- ١٣ - الاشمزاز : ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾^(١) .
- ١٤ - الزيف : ﴿فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾^(٢) .
- ١٥ - الريب : ﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾^(٣) .
- ١٦ - النفاق : ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾^(٤) .
- ١٧ - الغمرة : ﴿بل قلوبهم في غمرة﴾^(٥) .
- ١٨ - اللهو : ﴿لا هية قلوبهم وأسروا النجوى﴾^(٦) .
- ١٩ - الأكنة : ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾^(٧) .
- ٢٠ - الإثم : ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾^(٨) .

ومن ثم كانوا خليطاً متناقضاً من الصفات لظلام قلوبهم وعمها فهم مفسدون ، وإذا قيل لهم لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن والكفر والصدّ عن سبيل الله ، وموالاته الكفرة وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد - ﷺ - والقرآن ، قالوا ليس من شأننا الإفساد أبداً ، وإنما نحن أناس مصلحون نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك فقد تصوروا الفساد صلاحاً لما في قلوبهم من المرض ولما استقرّ في عقولهم من محبة الكفر وعداوة الإسلام ولكنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم ، ومع هذا لا يفتنون ولا يحسون لانظماس نور الإيمان في قلوبهم^(٩) .

-
- (١) سورة الزمر، الآية (٤٥) .
- (٢) سورة الصف، الآية (٥) .
- (٣) سورة التوبة، الآية (٤٥) .
- (٤) سورة التوبة، الآية (٧٧) .
- (٥) سورة المؤمنون، الآية (٦٣) .
- (٦) سورة الأنبياء، الآية (٣) .
- (٧) سورة الأنعام، الآية (٢٥) .
- (٨) سورة البقرة، الآية (٢٨٣) .
- (٩) فتح القدير/١/٤١، ٤٢، /، وصفوة التفاسير/١/٢٢ .

ولا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية ويزعمون أنهم^(١) بذلك مصلحون ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾^(٢) .

المنافقون هم السفهاء :

وإذا كان السفه هو خفة العقل وعدم التمييز فإن المنافق واقع لا محالة تحت الوصف القرآني البليغ ، فهم يسفهون المؤمنين لإعتقادهم فساد رأيهم أو تحقيراً لشأنهم ، لأن أكثر المؤمنين كانوا فقراء كصهيب وبلال^(٣) ولكن الحقيقة تناقض وتغاير وصفهم فهم السفهاء حقاً لأنهم ركبوا من الباطل بلا امتراء ومع هذا فهم لا يعلمون حالهم في الضلالة والجهل وذلك أبلغ في العمى والبعد عن الهدى^(٤) .

المنافقون يقلبون الحقائق :

حيث أن المنافقين - وكما أسلفت - عطلوا عقولهم وحكموا أهواءهم وما تميل إليه نفوسهم من فسق باطل وفجور، وإذا كان السفه هو خفة العقل والجهل وقد وصفوا الصحابة عموماً وكبارهم بوجه خاص - كأبي بكر وعمر - بهذا الوصف غير اللائق بهم أقول : إذا كانوا فعلوا ذلك فهم السفهاء حقاً وهم الحمقى صدقاً كما عبر عن ذلك القرآن الكريم فهم يسخرون من المؤمنين ويهزءون بهم ويلصقون مختلف الأكاذيب دائماً وأبداً بالمؤمنين وهم الواقعون في النقيض حيث حرّموا أنفسهم من النعيم وأوقعوها في النار والجحيم فهل السفه والعقل من اختار لنفسه نعيماً أبدياً أم من اختار لها جحيماً ونكالاً سرمدياً شتان ما بين الفريقين وبعد ما بين الصنفين .

(١) صفات المنافقين لابن القيم / ١٧ .

(٢) سورة البقرة، الآية (١٢) .

(٣) تفسير البضاوي / ١٢ / ١ . (٤) صفوة التفاسير / ٥ .

سيرته - ﷺ - مع المنافقين :

لخص الإمام ابن القيم - رحمه الله - هديه - ﷺ - وسيرته مع المنافقين بالتالي حيث قال : «وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكلم سرائرهم إلى الله وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلى عليهم وأن يقوم على قبورهم وأخبر أنه لو استغفر لهم فلن يغفر الله لهم^(١) .

(١) زاد المعاد/٢/٨٢/ .

المبحث الخامس في أحكام المنافقين

هل المنافق كافر؟

الآيات القرآنية الواردة بشأنهم صريحة وواضحة كل الوضوح في كفرهم وخروجهم من دائرة المسلمين نجد ذلك في مستهل سورة البقرة فقد بينت أمرهم وكشفت كثيراً من خططهم ومكائدهم ، قال الله تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾^(١) .

قال الإمام القرطبي لما ذكر الله تعالى المؤمنين أولاً بدأ بهم لشرفهم وفضلهم ذكر الكافرين في مقابلتهم إذ الكفر والإيمان طرفان ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق ﴿وما هم بمؤمنين﴾^(٢) .

وقال الخازن : إنَّ المنافق مثل الكافر في الكفر وزيادة^(٣) .

وقد عنون شيخ الإسلام بن تيمية عنواناً قال فيه : المنافقون كفّار ثم قال : وقد نطق القرآن بكفر المنافقين في غير موضع ، وجعلهم أسوأ حالاً من الكافر وأنهم في الدرك الأسفل من النار^(٤) .

وجاء في الكشاف : الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً^(٥) .

(١) سورة البقرة، الآية (٨) .

(٢) تفسير القرطبي/١/١٩٢، ١٩٣ .

(٣) الفتوحات الإلهية للجمل/١/١٦٠ .

(٤) الصارم المسلول/٣٦ .

(٥) الكشاف/١/١٦٩ .

وورد في مختصر تفسير ابن كثير: ولهذا نبّه الله سبحانه على صفات المنافقين لثلاث يغتر بظواهر أمرهم المؤمنون فيقع لذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خيراً^(١).

ومن الأدلة القرآنية الناطقة بكفرهم قوله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾^(٢).
وقال تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾^(٣).

وقال تعالى في سورة المنافقون: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾^(٤).

وهذه الآيات وغيرها من آي الذكر الحكيم تدل دلالة واضحة على أن المنافقين داخلون في عداد الكفرة بل هم أخبث حالاً وأسوأ حالاً منهم.

هل المنافق يقتل؟

قدّمتنا كلام العلامة ابن القيم في سيرته - رحمته - مع المنافقين، وأنه قبل علانيتهم ووكّل سرائرهم إلى الله عزّ وجل، وهذا هو الحاصل والمروي عنه - رحمته - في أكثر من مناسبة، فإدام المنافق مظهراً للإسلام فقد عصم نفسه

(١) مختصر تفسير ابن كثير / ١ / ٣٣ / .

(٢) سورة النساء، الآية (١٤٠).

(٣) سورة النساء، الآية، (١٤٥).

(٤) سورة المنافقون، الآيات (من ١ - ٣).

والله يتولى سريرته . وأما إن أظهر كفره فهو مرتدّ حكمه القتل ، قال - ﷺ - : « لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » متفق عليه ^(١) .

هل تقبل توبة المنافق ؟

اختلف في ذلك على قولين ^(٢) :

أحدهما : أنه لا تقبل توبته مستدلين بقوله تعالى : ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا﴾ ^(٣) لأنه لم يزد على ما كان عليه من إظهار الإسلام .

ثانيهما : أن توبته مقبولة ^(٤) لقوله تعالى : ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من

(١) صحيح البخاري ، كتاب الديات باب قوله تعالى : ﴿إن النفس بالنفس﴾ فتح

الباري /٢٠١/١٢/ ، وصحيح مسلم ، كتاب الكتابة - باب ما يباح من دم المسلم .

(٢) والزنديق لا تظهر عليه علامة تبين رجوعه وتوبته لأنه كان مظهراً للإسلام قبل ذلك ، فإذا

أظهر التوبة لم يزد على ما كان عليه قبلها وهو إظهار الإسلام . . . (انظر المغني /١٢٦/٨/

وهو مرجوح كما سيتضح في الرأي الآخر .

(٣) سورة البقرة ، آية (١٥٩) .

(٤) لعدم الأدلة الدالة على عدم قبول توبة المرتد ولقوله تعالى في المنافقين ﴿إن المنافقين في الدرك

الأسفل من النار ولن نجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا﴾ الآية ، ولكون النبي - ﷺ - كف عن

المنافقين بما أظهروا من الشهادة مع إخبار الله تعالى لنبيه بكفرهم باطناً وقيامهم بالتصرفات

التي توضح كفرهم . . . وقال في المغني : إن هذا مذهب الشافعي والعبري ، ويروى كذلك

عن علي وابن مسعود وهو إحدى الروايتين عن أحمد واختيار أبي بكر الخلال ، وقال إنه أولى

على مذهب أبي عبد الله . . .

(انظر المغني /١٣٦/٨/ .

وقال في المقنع : إنه ظاهر كلام الحرقفي واختيار الخلال في الساحر ومن تكررت رده

والزنديق وآخر قول الإمام أحمد وهو مذهب الشافعي والعبري وعن أبي حنيفة روايتان

كهايتين ، وقال أيضاً محل الخلاف المتقدم في عدم قبول توبتهم وقبولها في أحكام الدنيا من ترك

قتلهم وثبوت أحكام الإسلام فإن صدقت توبتهم قبلت بلا خلاف . ذكره ابن عقيل

والمصنف والشارح وجماعة وهو الصحيح إن شاء الله .

(انظر المقنع /٥٢٠/٣/ ، والمغني /١٢٨/٨/ .

النار، ولن تجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا^(١) وذلك بأن يبدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل، قال ابن حاتم عن معاذ بن جبل: إن رسول الله - ﷺ - قال: أخلص دينك يكفك القليل من العمل^(٢).

حكم الصلاة عليهم إذا ماتوا :

جاء في الكتاب قوله تعالى: ﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾^(٣).

وقال عز وجل: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(٤).

وهذه الآيات صريحة واضحة إنهم ماتوا على الكفر ومن مات كافراً فلا يصلى عليه وليس له أحكام المسلمين بل يعامل معاملة الكافرين، وأمّا السنة فقد أخرج الإمام البخاري ومسلم في صحيحهما - رحمهما الله تعالى - عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله - ﷺ - فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله - ﷺ - ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد هناك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله - ﷺ - «إنما خيرني فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وسأزيد عن السبعين»، قال: إنه منافق: قال فصلّى عليه - ﷺ - فأنزل الله

(١) سورة النساء، الآيتان (١٤٤، ١٤٥).

(٢) المغني لابن قدامة/٨/٥٤٣، والمحلي/١/٢٤٧.

(٣) سورة التوبة، الآيتان (٨٤، ٨٥).

(٤) سورة التوبة، الآية (٨٠).

تعالى : ﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾ ، زاد مسلم : فترك الصلاة عليهم^(١) .

وقال قتادة : أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله - ﷺ - وهو مريض ، فلما دخل عليه قال له النبي - ﷺ - «أهلكك حب يهود» قال : يارسول الله إنّما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنّبني ، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إيّاه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله عزّ وجل ﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا﴾ الآية . ولهذا كان رسول الله - ﷺ - بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصليّ على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره^(٢) .

وأخرج الطبراني من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مرض عبد الله بن أبي جاء النبي - ﷺ - فكلّمه فقال : قد فهمت ما تقول فائن عليّ وكفّني في قميصك وصلّ عليّ ففعل . . . وكان عبد الله بن أبي أراد بذلك دفع العار عن ولده وعشيرته بعد موته فأظهر الرغبة في صلاة النبي - ﷺ - ووقعت إجابته إلى سؤاله بحسب ما ظهر من حاله إلى أن كشف الله الغطاء عن ذلك^(٣) .

أمّا جزم عمر - رضي الله عنه - بأنه منافق فجرى على ما كان يطلع عليه من أحواله وإنّما لم يأخذ النبي - ﷺ - بقوله وصلى عليه إجراء له على ظاهر حكم الإسلام واستصحاباً لظاهر الحكم ولما فيه من إكرام ولده الذي

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير، صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وفتح

الباري/٨/٣٣٣، وجامع البيان/١٤/٤١٠/ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير/١/١٦٢ .

(٣) فتح الباري/٨/٣٣٤/ .

تحققت صلاحيته ومصلحة الاستتلاف لقومه ودفع المفسدة^(١).

قال الخطابي: إنما فعل النبي - ﷺ - مع عبدالله بن أبي ما فعل لكمال شفقتة على من تعلق بطرف من الدين ولتطبيب قلب ولده عبدالله الرجل الصالح ولتألف قومه من الخزرج لرئاسته فيهم فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سباً على ابنه وعاراً على قومه فاستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهي فانتهى^(٢).

والراجح عندي: أن صلواته - ﷺ - على عبدالله بن أبي كانت إكراماً لولده عبدالله الشاب النشط في دين الله وجرياً على القاعدة الإسلامية التي انتهجها - ﷺ - في إكرام أصحابه والحكم عليهم بطواهرهم، وترك بواطنهم ومعتقداتهم لله عز وجل وتأليفاً لقومه وجمعاً للكلمة ودرءاً للمفسدة، أما بعد النهي عن الصلاة عليهم فقد تغير النهج، وبهذا يزول الاشكال، والله أعلم.

هل يرث ويورث المنافق؟

في المسألة قولان^(٣) للعلماء:

أحدهما: أنه لا يرث ولا يورث وماله يعود لبيت مال المسلمين قياساً على المرتد.

ثانيهما: أن يرث ويورث وإن علم أنه في الباطن منافق، لأن الإرث مبني على الظاهر لا على محبة القلب، وقول النبي - ﷺ - «لا يرث المسلم الكافر

(١) فتح الباري/٨/٣٣٦.

(٢) فتح الباري/٨/٣٣٦.

(٣) المغني لابن قدامة/١/٣٤٤.

ولا الكافر المسلم»^(١) لم يدخل فيه المنافقون وإن كانوا في الآخرة أسوأ حالاً من الكفار كما هو صريح في القرآن ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾^(٢) والمسألة مبسطة في موضعها من كتب الفقه .

نهايتهم في الآخرة ؟

حيث أن المنافق تستر على كفره وفجوره وأعلن إسلامه ظاهراً وبذلك صان دمه وماله ومن ثم تنطبق عليه أحكام المسلمين في الدار الدنيا أما في الآخرة فهم متوعدون بالنكال والعذاب والحية وسوء العاقبة والمصير .

قال تعالى : ﴿يأياها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾^(٤) فهم في الإهانة في الدار الآخرة^(٥) .

قال تعالى : ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾^(٦) .

وأن لهم عذاب النار الأليم^(٧) ، قال تعالى : ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً

(١) مسلم : كتاب الفرائض / ٥٢ / ج / ١١ / صحيح مسلم بشرح النووي - دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية .

البخاري : فتح الباري ج / ١٣ / ٥٠ / دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

(٢) سورة النساء ، الآية (١٤٥) .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٧٣) .

(٤) سورة النساء ، الآية (١٤٠) .

(٥) فتح القدير للشوكاني / ٤ / ٢٠٣ / .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية (٥٧) .

(٧) صفوة التفاسير / ٢ / ١٣٢ / .

ألبيا ﴿^(١) وأن هذا العذاب لا ينقطع ^(٢)﴾ .
 قال تعالى : ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي
 حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ ^(٣) .
 وأنهم يردون بعد عذابهم في النار كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل
 منها ^(٤) .

قال تعالى : ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على
 النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ ^(٥) .
 فهم في توابيت من نار تطبق عليهم ^(٦) .

قال تعالى : ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ ^(٧)
 ويصور الحق جلّ وعلا مشهداً من مشاهد يوم القيامة يصوّر به حال
 المنافقين ومآلهم وسوء عاقبتهم ومصيرهم ، قال تعالى : ﴿يوم يقول المنافقون
 والمنافقات للذين ءامنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً
 فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم
 نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتمكم الأمانى حتى
 جاء أمر الله وقرئتم بالله الغرور فالיום لا يؤخذ منكم فدية ، ولا من الذين كفروا
 مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ ^(٨) .

(١) سورة النساء، الآية (١٣٨) .

(٢) فتح القدير للشوكاني / ٢ / ٣٧٩ ، وصفوة التفاسير / ٥ / ٣٢ / ١ .

(٣) سورة التوبة، الآية (٦٨) .

(٤) فتح القدير للشوكاني / ٢ / ٣٩٩ .

(٥) سورة التوبة، الآية (١٠١) .

(٦) مختصر تفسير ابن كثير / ١ / ٤٥١ .

(٧) سورة النساء، الآية (١٤٥) .

(٨) سورة الحديد، الآيات (١٣ - ١٥) .

ومَّا تقدّم من الآيات البينات يفهم مصير المنافقين ومآلهم في الدار
الآخرة فقد لعنوا في الدنيا والآخرة، واستحقّوا العذاب الأليم والرحيم
المقيم جزاء وفاقا لما اكتسبوا من أعمال وأقوال ومعتقدات فاسدة باطلة،
وجرائم قبيحة ومساوىء عديدة حيث تستروا بالإيمان وأبطنوا الكفر والحقد
والبغض للإسلام وأهله، وكانوا من أخبث الأعداء وألدّ الخصوم ولذا
استحقوا عقاب الله، وما ربك بظلام للعبيد.

السبب في عدم قتل المنافقين وآراء الأئمة في ذلك

قال مالك: النفاق في عهد رسول الله - ﷺ - هو الزندقة فينا اليوم فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة^(١).

ويرى الإمام مالك أن رسول الله - ﷺ - كفّ عن قتل المنافقين ليبين لأئمة أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذ لم يشهد على المنافقين، وورد هذا بأن قاعدة: «أن القاضي لا يحكم بعلمه، إنما تستند على الإجماع، والإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد النبي - ﷺ - وانقطاع الوحي، وإذن فلم يكن هذا سبباً في امتناعه - ﷺ - عن قتلهم وخاصة أنه قال في صراحة ووضوح لا يجتمل التأويل إنما يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.

وقد عرض عمر على النبي - ﷺ - أن يأذن في قتل ابن أبي^(٢)، فكان رده «ترعد له أذن أنف كثيرة بيثرب»^(٣) ثم كيف إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه، فالامتناع عن قتلهم كان سياسة حكيمة منه - ﷺ - أطفأت نار الفتنة كلما أوشكت أن تستعر.

وللشافعي رأيان: أحدهما: يوافق ما ذهب إليه مالك . . . أما الثاني: فهو أن من شهد عليه بالزندقة فجحده وأعلن الإيمان وتبرأ من كل دين سوى

(١) القرطبي/١/١٩٩/.

(٢) في رواية ابن جريج فقال عمر: ألا نقتل يارسول الله هذا الخبيث؟ . . . (انظر المسند/٣/٣٨٥/، وانظر البخاري/٤/١٨٤/، وانظر البخاري/٤/١٤٦/، وكتاب المناقب/٦/١٢٨/، ومسلم/٨/١٩/، وكتاب البر والصلة والآداب والترمذي/٥/٩٠/، وأحمد/٣/٣٩٢/.

(٣) وفي سيرة ابن هشام قال رسول الله - ﷺ - لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم، كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، قال: قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله - ﷺ - أعظم بركة من أمري . (سيرة ابن هشام/٢/٢٩٠، ٢٩٣/).

الإسلام فإن ذلك يمنع من إراقة دمه . . . وعلل الشافعي هذا الرأي ، إنما منع رسول الله - ﷺ - من قتل المنافقين لما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجب ما قبله وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وأحمد والطبري وغيرهم^(١) .

وهناك رأي لأصحاب الشافعي وهو أن النبي - ﷺ - لم يقتل المنافقين ، لأن الزنديق وهو الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان يستتاب ولا يقتل ، واعترض على ذلك أن النبي - ﷺ - لم يستتبهم ولم يقل بذلك أحد ، ولا يقول أحد أن استتابة الزنديق واجبة وقد كان النبي - ﷺ - معرضاً عنهم مع علمه بهم^(٢) .

وعندي أن ما كانوا يظهرونه من الإسلام هو الذي جعل رسول الله - ﷺ - لا يحكم بقتلهم فقد قال - ﷺ - لأسيد بن حضير - رضي الله عنه - حينما عرض على النبي - ﷺ - أن يقتل المتأمرين عليه في العقبة عند عودتهم من تبوك : « أليس يظهرون الشهادة » .

(١) القرطبي - مجلد/١/١٩٩ - ٢٠٠ / .

(٢) يراجع في ذلك تفسير القرطبي/١/٢٠٠ ، والنفاق والمنافقون/٣٢٩ - ٣٣١ / وزاد المعاد/٢/٨٢ / .

الفصل الرابع

في

موقف عبدالله بن أبي بن سلول

من الدعوة إلى الإسلام

موقف عبدالله بن أبي بن سلول من الدعوة إلى الإسلام

قدمت في مستهلّ هذا البحث أن النفاق أول المصاعب والمتاعب التي واجهت الدعوة الإسلامية ورسول الإسلام منذ حلّ بالمدينة المنورة واتخذها عاصمة وقاعدة له، وكان المنافقون يشكلون خطراً متزايداً لهذه الدعوة، وقد أشرت أيضاً إلى أن النفاق قضية قديمة متجددة حسب الأحوال والظروف، وهي تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وإن كان النفاق بالمعنى المعروف إسلامياً لم يوجد إلا بالمدينة، لكن كلامنا هذا يعني مسألة النفاق ككلّ.

عبدالله بن أبي بن سلول :

هو عبدالله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عمرو بن الخزرج، واشتهر بعبدالله بن أبي بن سلول نسبة إلى أمّه سلول^(١)، وسلول هذه جدته لأمه من خزاعة وهو رأس المنافقين في الإسلام من أهل المدينة.

كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم، وأظهر الإسلام بعد موقعة بدر تقية، ولما تهيأ رسول الله - ﷺ - لوقعة أحد انخزل ابن أبي ومعه ثلاثمائة رجل فعاد بهم إلى المدينة، وفعل ذلك يوم التهيؤ لتبوك، وكان كلما حلّت بالمسلمين نازلة شمت بهم.

وكلّما سمع بسيئة نشرها، وله في ذلك أخبار، ولما مات تقدّم النبي - ﷺ -

(١) النفاق والمنافقون - إبراهيم علي سالم / ٤١ .

- فصلّى عليه، ولم يكن ذلك رأي عمر، فنزلت الآية ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾^(١)، وكان عملاقاً يركب الفرس فتخط إبهاماه في الأرض^(٢)
ويكنى بأبي الحباب، واشتهر بابن سلول، وكان مهتماً بنفسه وجسمه ويعجبه من نفسه جمال صورته حيث كان بهي الطلعة فارع الطول حسن الجسم ممتلئه جميل الصورة إلى حدود قل أن يشاركه فيها أحد، وكان يظن أن هذه السمات من مميزاته وحده، وأنها ستخضع له الناس وتبيئه للزعامة والملك إلى أن قضى على ذلك قول الله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾^(٣).

ظهور عبدالله بن أبي :

ظهر الخلاف واضحاً بين الأوس والخزرج في المدينة وذلك بسبب خلافات بين أفراد من الطائفتين، وكانت النعرة القبلية والعصبية العشائرية هي التي تثور فينتقم كل فريق من الآخر وكانت الحروب والمشاحنات بينهم لا تهدأ، ولعل في وجود اليهود فيما بينهم أكبر عامل للفرقة والخصام جرياً على العادة المعروفة لدى اليهود في تفريق الصفوف وبث الفرقة والانقسام بين الناس في كل زمان ومكان فهم الذين يشعلون نيران الفتنة بين المواطنين وبين القبائل وإليهم تعود، وهو ما حصل للأوس والخزرج في المدينة، حيث أوقد اليهود نار الفتنة لأسباب عديدة تهم اليهود ليس هذا موضع بحث لها، وهذه الفتنة والحروب المتلاحقة تعطينا صورة واضحة للحالة

(١) سورة التوبة، الآية (٨٤).

(٢) الأعلام للزركلي/١٨٨، وتاريخ الخميس/٢/١٤٠، وامتع الأسماع/١/٩٩، ١٠٥، ١٢٠، ١٦٠، ٤٤٩، ٤٥٠، والمجد/٢٢٣، وطبقات ابن سعد - القسم الثاني من الجزء الثالث/٢٩٠، وجمهرة الأنساب، والنفاق والمنافقون - إبراهيم علي سالم.

(٣) سورة المنافقون، الآية (٤).

السيئة التي كانت عليها المدينة قبل مجيء الرسول - ﷺ - وهجرته إليها .

وقد لمع اسم عبدالله بن أبي في هذه الحروب كسيّد مطاع لقبيلته ، وكان أول ظهوره في حروب الأوس والخزرج يوم السراة ، وهو يوم كان فيه حرب شديدة بين عمرو بن عوف من الأوس وبني الحارث من الخزرج وكان سببها : أن رجلاً من بني عمرو قتله رجل من بني الحارث فعدا بنو عمرو على القاتل فقتلوه غيلة ، فاستكشف أهله فعملوا كيف قتل فتهيئوا للقتال وأرسلوا إلى عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب والتقوا بمكان يقال له السراة وعلى الأوس حضير بن سهاك والد أسيد بن حضير ومع الخزرج عبدالله بن أبي بن سلول فاقتتلوا قتالاً شديداً دام أربعة أيام ثم انصرف الأوس إلى دورهم ، وتبادل شعراء الأوس والخزرج الفخر بما حدث ، وكان عبدالله بن أبي يشترك في الحروب التي أتت بعد ذلك بصفة مستمرة وكانت هذه الحروب توجد لأسباب تافهة . . . ثم تولى قيادة الخزرج يوم الفجار وهي حرب قامت بين القبيلتين لقتل الأوس ثلاثمائة من غلمان الخزرج كانوا رهناً للديات في صلح سابق بينهم ولكن ابن أبي خرج على الخزرج ، وأبى الخروج معهم في حرب الفجار الثاني الذي أعلنته الأوس ضد الخزرج وذلك لأن الخزرج في هذا الوقت نقضت عهدها بدون سبب ، وكان العهد بينها وبين يهود بني قريظة وبني النضير ألا يناصروا الأوس ، وأودع الخزرج أربعين غلاماً رهناً لعدم التعاون مع الأوس فقال عبدالله بن أبي هذا بغبي وإثم ونهى عن قتلهم كما نهى من دعا إلى ذلك - وهو عمرو بن النعمان البياضى وحذروه سوء عاقبة البغي ولم يقتل عبدالله بن أبي ومن أطاعه من كان لديهم من الغلمان وأطلقوهم^(١) .

وقد تخلف يوم بعث المشهور ولم يخرج مع قومه وكان قائد الخزرج عمرو

(١) النفاق والمنافقون - إبراهيم علي سالم - /٤٢، ٤١/ .

بن النعمان البياضى وانهمزمت الخزرج وقتل قائدها عمرو المذكور فمّر عليه ابن أبي وكان يومها يتجسس الأخبار، فلما رآه قال: «ذق وبال البغي» .

ميل الأوس والخزرج إلى الوثام وترك الحروب :

كان «يوم بعث» آخر حروبهم الخاسرة بعد ما أكلت الحرب بين الأوس والخزرج الأخضر واليابس ، وتعطلت مصالحهم ، وفنيت قواهم ولحقهم الضيق مالوا إلى الاستقرار والتفرغ لمصالحهم بدلاً من الحروب النفسية والجسمية وأحبّوا تقليد الأمم الأخرى ذات النظام الملكي المستقرة، كما هو الحال في الحيرة والشام ورأوا أنه من المصلحة العليا لكلا الطرفين تتويج واحد منهم ليكون ملكاً عليهم يفض المنازعات والخصومات ويقضي على الفرقة والانقسام التي هي علتهم الدائبة والدائمة حيث اليهود، يوقعون بينهم ويعمقون شقة الخلاف والبغضاء بين الجانبين . . .

عزم الجانبين على تتويج عبدالله بن أبي ملكاً على المدينة :

روى المؤرخون أن الأوس والخزرج لما سئمو القتال وأنهكتهم الحروب الخاسرة التي لا طائل تحتها اتفقوا على تتويج عبدالله بن أبي بن سلول ليكون ملكاً عليهم في المدينة المنورة، لما رأوا فيه من الحكمة والعدل والحلم والكياسة وحسن السياسة وبراعة التدبير وقوة الشخصية وبعد النظر هكذا تصوروا . . . لكن الأيام والأحداث والتجارب أثبتت أن الرجل خلاف ذلك، وأنه عار تماماً من جميع الصفات النبيلة، وأنه كما وصفه القرآن ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾^(١) كما سنعرض لهذا فيما بعد بشيء من التوسع بمشيئة الله، وصاروا يعدون العدة لهذا التتويج غير أنه حصل ما لم يكن في الحسبان لعبدالله بن أبي وتغيّر النهج، واختلف الخط

(١) سورة المنافقون، الآية (٤).

الذي سلكوه معه ، فبعد أن قصد حجاجهم مكة واجتمعوا بالرسول - ﷺ - هناك وشرح الله صدورهم لدعوته ورحبوا بقدومه إليهم وهجرته إلى مدينتهم حيث الله اختصهم بذلك وأنعم عليهم وأكرمهم فاستبدلوا الذي هو خير بالأدنى ، وقد اجتمع وفداهم بالرسول - ﷺ - بالعقبة ثم بايعوه وقبلوا دعوته ومجيئه وهجرته إليهم كما اتفقوا على أن يكون العام التالي عام هجرته إلى بلدهم حين طلب منهم ذلك وتعهدوا له بالحماية فلما قدموا المدينة واجتمعوا مع قومهم دعوهم إلى الإسلام وإلى مناصرة رسول الإسلام - ﷺ - فلقيت هذه الدعوة المباركة قبولا شديداً ومتزايداً منهم وبعد ذلك عدلوا عن تولية عبد الله بن أبي بن سلول^(١) . لوثوق الجانبين أنه - ﷺ - هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يجمع الشتات ويؤلف القلوب ويقضي على الحزازات والعداوات السابقة التي تراكت فيما بينهم إثر الحروب المتلاحقة ، ويفهم من موقفهم أيضاً أنهم - وإن كانوا في البداية - عقدوا العزم على تتويج ابن أبي إلا أنهم ليسوا واثقين تماماً من حسن قيادته وتدبيره فهو واحد منهم ، وينتمي أيضاً إلى إحدى القبيلتين المتحاربتين أصلاً .

أما مواقفه التي وصفت بالحكمة والحلم فقد تكون لأغراض في نفسه أملتها عليه رغبته الجارحة إلى السلطة وتولي قيادة الجانبين أيضاً فهو له صلات قوية باليهود استمرت حتى وفاته ولم تنقطع رغم إظهار إسلامه ، وقد يكون اليهود وراء الرغبة في توليته ليتمكنوا من إحكام السيطرة على المدينة حيث سيكون العوبة في أيديهم كما هو الحال والمشاهد في كل عصر ومصر ، فاليهود دائماً وأبداً وراء كل شخص يعدونه ويهيئونه للسلطة والقيادة .

(١) انظر السهموري وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى / ١ / ١٥٥ ، وابن خلدون / ١ / ٢٩٠ - / ٢٩٢ .

مغالطات ولفنسون :

أود الإشارة هنا إلى ما أورده اليهودي : إسرائيل «ولفنسون» في كتابه : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام فقد قال وما يذكر في المراجع العربية من أن بطون يثرب أرادت أن تملك عليها عبدالله بن أبي وأنها نظمت الخرز لتتويجه فذلك مشكوك فيه لأسباب منها :

أن رهط عبدالله بن أبي كان قد غلب على أمره يوم بعث فليس من المعقول أن يرتاح الأوس واليهود بعد فوزهم المبين إلى تمليك زعيمهم من الخزرج وكان لهم من ألد الأعداء - وقال أيضاً أن عبدالله بن أبي لم يكن صالحاً للقبض على ناصية الحكم في يثرب وإنما كان ضعيفاً دساساً متردداً لا يستقرّ على حال، ويمكن القول أن مواقف عبدالله بن أبي الأخيرة من الحروب التي بين القبيلتين هي التي أهلته وهيأته للزعامة خاصة، وأن موقفه المعروف في الحرب الأخيرة بينهم كان ضد نشوب الحرب، وقدمنا طرفاً من ذلك، وقال عنها إنها بغبي وإثم .

أما صلاحيته من عدمها فهو لم يستلم الملك وإنما كان قائداً قبلياً، وهذه الصفة هي التي أهلته للزعامة العامة، وهذه الصفات التي أوردها الكاتب عرفت عنه بعد مجيء الإسلام للمدينة، ويظهر لي أن مواقف ابن أبي التي وصفت بالشهامة والنبل كان الهدف منها والحامل عليها حبه للرياسة وتوقانه إلى الملك فاتخذ من هذه المواقف مظهراً لزعامته ورئاسته، وهذه الصفة القبيحة المذمومة وهي التلون وإظهار العدل والحكمة والظهور بمظهر وإخفاء نقيضه استمرت معه حتى وفاته، ولهذا نافق وعاند سراً الدعوة الإسلامية وعارضها، ووقف في وجهها، ومن هنا نخلص إلى نتيجة واحدة محددة وهي أن هذه الصفة الذميمة كانت طبعاً له في جاهليته وإسلامه كما هو الحال في جميع المنافقين في شتى الأقطار والأمصار وصدق الله العظيم :

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو﴾^(١).

وهذه المواقف الذميمة التي وقفها شيخ المنافقين في جاهليته وإسلامه هي مواقف المنافقين اليوم وغداً فهم يخدعون الناس بكلامهم المعسول ليتمكنوا من الوصول إلى مآربهم ومقاصدهم الخبيثة، ثم بعد ذلك يقبلون للناس ظهر المجن وتتغير أحوالهم وأفعالهم وهم بحق انتهازيون يلبسون لكل حال ما يلائمه ويناسبه همهم الدنيا وليس لهم في الآخرة مطلب ولا نصيب، ولذا كانوا في الآخرة من الخاسرين.

ابن أبي وأعماله العدائية ضد الإسلام والمسلمين :

يعتبر المؤرخون وغيرهم عبدالله بن أبي من أشد أعداء النبي - ﷺ - عداوة وحقداً وضغينة لأسباب عديدة منها وأهمها في نظري ما يلي :

١ - نفسية الشخص كطبع أي منافق، خاصة أئمة الكفر من أمثاله، نفس خبيثة حاقدة متلونة لا تستقر على حال وليس له ذات معينة أو حالة نفسية معينة يمكن الاعتماد عليها، ولو أجريت دراسات ميدانية نفسية على أمثال هؤلاء المنافقين لوجد أن هناك خللاً في تركيبهم النفسي فهذا التلون والتغير لأدنى مثير له أسباب معينة داخل النفس الإنسانية فهذا المنافق الذي لا يثبت على حال وليس له رأي ثابت يتقلب تقلب الريح ويميل بسرعة هذا بدون شك عنده عقدة معينة فهو لا يطمئن ولا يركن إلى أحد ركوناً ثابتاً حتى مع حلفائه وأصدقائه، يعامل الناس بحذر وبتقية تامة، وحتى المنافقين أنفسهم بينهم تفاوت وتباين، فالنفاق درجات، وعبدالله بن أبي أشدّ عداوة

(١) المنافقون، الآية (٤).

ومباعدة للإسلام من أبي عامر الفاسق ولكنه بحكم طبيعته وجبلته لم ير المواجهة والمجابهة واختار المسالمة الظاهرية ليعمل كل ما يستطيع عمله في الخفاء حيث أن لديه قدرة عجيبة على التلون والتكيف حسب الأحوال والظروف .

أما لين العريكة وسهولة الملمس ولين الجانب فهي أمور معروفة عنه سابقاً اتخذ منها شعاراً وستاراً ليصل بذلك إلى هدفه ومطلوبه ، وهو كما أسلفت تواق إلى السلطة والرئاسة وتقلد أعلى المناصب ، ولهذا اتخذ مثل هذا الأسلوب للتغريير بالناس وجمعهم حوله وينال ثقة الناس وحبهم وبالتالي إلتفافهم حوله وتنصيبه ملكاً عليهم .

٢ - اضطر ازاء دخول الرسول - ﷺ - المدينة وتسلمه مقاليد الأمور فيها ، ودخول غالبية كبيرة من قومه في الإسلام وتغير الحال في المدينة تغيراً جذرياً أن يجامل بادىء ذي بدء ويدخل في الحلف وهو على شركه ، وإن كان قلبه قد امتلأ حقداً وحسداً وضغينة على هذا الدين الجديد ، وصاحب الدعوة الإسلامية التي غطت المدينة وقضت - حسب رأيه - على كثير من آماله وأحلامه في الملك والهيمنة والسلطان ، وتسلم مقاليد الأمور ملكاً على البلاد فهو كثيراً ما حلم بتاج الملك ومنى نفسه به ، وترقب الوصول إليه ، وقد أسلفت أنه عمل أعمالاً ظاهرها الخير والبر لقومه ولغيرهم ليظهر بمظهر الكريم الشجاع صاحب الخصال النبيلة ، والمهم أنه يخطط للرئاسة والزعامة منذ وقت بعيد ، ولما كادت تتحقق له أفلت الزمام من يده وضاعت جميع آماله وتحطمت أحلامه وباء بالفشل والخيبة والخسران حسب رأيه^(١) . . وإلا لو دخل في دين الله لأصبح من الصحابة الكرام وكان من الحائزين على عزة الدين

(١) السيرة النبوية لابن هشام/٢/١٦٦ وما بعدها/ .

ونعيم الآخرة ولعوضه الله خيراً مما فقدته من بهرج زائف وملك زائل محفوف بالمخاطر والمشاكل، لكنّ الرجل لما كانت همته غير عليّة ونفسيته شهوانية أرضية لا رغبة له فيها عند الله ولا يقيم للآخرة وزناً أصبحت الدنيا ملء سمعه وبصره كحال المنافقين في جميع الأزمنة والأمكنة استخدم جميع القدرات الممكنة المتاحة له في الوقوف في وجه الإسلام ومعارضته وإيقاف المدّ الإسلامي المتزايد الذي اتخذ من المدينة المنورة قاعدة ومنطلقاً له، ولذلك سلك هذا العدو الماكر عدة طرق أهمها: جمع شتات بعض القبائل التي لم تهتد بهدى الله ولم يصل هذا النور بعد إليها فركزها وجمعها حوله، وأهم هذه القبائل: الأوس والخزرج وبعض اليهود، وهم بطبيعة الحال أعداء للدعوة الإسلامية وصاحبها... كذلك سلك من السبل الأخرى إثارة الأحقاد والضغائن بين القبائل وإيقاد الفتن بين الناس ومعروف قدرته في الفساد والوقيعه وبث روح الفرقة والانقسام بين الناس فهو قد أعطى قدرة معينة في الفساد والإفساد وإثارة البغضاء والعداوة بين القبائل، وبذل المستحيل واستنفذ جميع قواه الممكنة في ذلك، ولكنه لم يصل إلى هدفه، وإن كان تحقق له شيء مما أراد من بث الحقد والعداوة لكنه لم يفلح في النهاية وذهبت جميع أعماله سدى فانكشف أمره وظهر حقه وخبثه للجميع وأصبح منبوذاً محتقراً مهاناً، وبذا خسر الدارين ولم يربح في الصفتين نتيجة لأعماله الخبيثة ونواياه الفاسدة.

ولقد استطاع ابن أبي بختبه ومكره وكذبه وافترائه أن يجمع حوله فئة الضلال من اليهود والمنافقين، وكوّن منهم جماعة للمعارضة والتخريب والإيذاء والإفساد، وكان هو المحرك لهذه الفئة الباغية وإليه يرجعون وحوله يلتفون وهو الذي يوقد نيران الفتنة ويؤلب الأعداء على الرسول - ﷺ - وصحابته في الحرب والسلام في جاهليته

وإسلامه، كذلك سعى جاهداً في تأخير إسلام بعض المسلمين أمثال أبي قيس صيفي بن الأسلت وكان شاعراً مجيداً وله أثر واضح في قومه يسمعون له ويطيعونه كسائر الشعراء خاصة في الجاهلية، فالشاعر يقيم ويقعد، وكان من خبث ابن أبي أنه يهتم بمثل هؤلاء الناس حيث أن لهم أثراً واضحاً في قومهم فهو وسيلة الإعلام عندهم أعني الشعر وكانت سوق الشعر قوية عندهم... ولكن صاحب الخلق العظيم والرحيم بالمؤمنين أرسل إليه عند احتضاره وطلب إليه أن يسلم وأن يقول كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله ليشفع له بها فقالها ونجا بذلك من كيد ابن أبي ومكره وما أراد به من سوء.

ابن أبي واشتغاله بالبغاء :

إنه لمن دواعي العجب وما يسترعي الانتباه أن يكون مثل عبدالله بن أبي الذي يدعي أنه مثال للشهامة والمروءة والنبيل وكرم الطباع يشتغل بأمور ساقطة مشينة يترفع عنها أشباه الرجال والأوباش من الناس فلا أحط ولا أرذل ولا أحقر من تجارة الأعراض التي كانت ولوقت طويل تجارة رابحة عنده يقنات منها ويتاجر بها ويعمل بها علناً بدون رادع أو وازع من خلق أو دين أو ضمير، إن الرجل الذي يدعي الشرف والشهامة والمروءة والنبيل وحسن الطباع وكرم المحتد لا يتاجر بالبغاء ولا يقارف الفجور والفسوق ولا ينصب من نفسه قواداً يتجر ويقنات من بيع الأعراض، إنها مهنة ساقطة حتى في الجاهلية، ولقد روى أنه عندما دخل الرسول - ﷺ - المدينة واتخذها قاعدة لدعوته كان لعبدالله بن أبي بن سلول ست جوار يتاجر بأعراضهن وهنّ: معاذة ومسيكة وأميمة وعزة وأروى وقتيلة، يكرههن ويلزمهن بالبغاء ويفرض عليهن ضرائب معينة، ولذلك ضقن بهذا العمل ذرعاً فهو عمل ساقط مهين، ولجأت إحداهن للخلاص من هذا العمل

المشين المهين إلى رسول الله - ﷺ - فنزل قوله تعالى : ﴿ولا تکرهوا فتیاتکم علی البغاء إن أردن تحصّنا لتبتغوا عرض الحیاة الدنیا﴾^(١) .

وله مواقف مشابهة تنبيء عن خسة الطبع ورداءة الخلق وانعدام الكرامة والشهامة على العكس مما نسب إليه زوراً وبهتاناً من أمور كان يتصنعها ويتظاهر بها قاصداً من وراء ذلك الدجل والتضليل وإخفاء الحقائق السيئة والمريبة التي كان يبطنها ليصل إلى مآربه وأغراضه اللعينة وكان كما هو معروف يعجبه من نفسه أشياء أهمها : زعامته لقومه وغناه وما أنعم الله به عليه من صحة وعافية وسلامة حواسه وجمال مظهره وصدق الله العظيم : ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾^(٢) إنه وصف رائع وتشبيه صادق صائب . . . إنه من عند الله وهو أعلم بحال خلقه، فهذا النوع من الناس، وهذه الفئة الضالة المضلة تجدها في كل وقت وحين من أجمل الناس مظهراً ومن أقبحهم مخبراً يهمهم جمال الظاهر، فهم يعمرونه ويهتمون به كثيراً ويخربون الباطن فهم جمعوا بين النقيضين جمال المظهر وسوء المخبر.

ابن أبي وتظاهره الكاذب بالإسلام :

مرّ بنا شيء من أحوال ابن أبي قبل دخول الرسول - ﷺ - المدينة واستقراره بها، وأنه كان يعد العدة ليصبح ملكاً على البلاد حيث شرع أنصاره والموالون له بتهيئة الجوّ له وكان الملك منه قاب قوسين أو أدنى، وقد سال لعابه، وأصبح يعد نفسه تماماً لهذا الحدث العظيم الذي طالما حلم به وتمناه، وبناء على هذا لم يتظاهر بالإسلام أول الأمر ولم يعلن إسلامه

(١) سورة النور، الآية (٣٣).

(٢) سورة المنافقون، الآية (٤).

الظاهري المزيف إلا متأخراً حيث أن نفسه الخبيثة التي لم تطمئن إلى الإسلام ولا إلى الرسول - ﷺ - كانت تمنع وتقاطع الرسول - ﷺ - عسى أن يتحقق حلمه ويصدق أمله، ولذلك بقي على كفره مدة تقرب من عام أملاً في الخلاص من الإسلام ودعوته حيث بهر نورها قلبه فأعتم وأظلم وأصبح لا يبصر الأشياء... ولما لم يجد فكاكاً ولا خلاصاً وخاف على نفسه أعلن إسلامه كذباً وزوراً عقب وقعة بدر الكبرى وهنا أخذت سمومه وشروبه مساراً آخر فبدل أن كان يعمل في العلن ويواجه الرسول - ﷺ - علناً مع إفلاسه في ذلك حيث أن قومه وممثلي أهل المدينة من الأوس والخزرج خرجوا عن طاعته ولم يستشيروه في قدوم الرسول - ﷺ - المدينة ومبايعته لهم أخذ - الآن - يعمل سراً وفي الخفاء ويواجه الدعوة بطرق أخرى ملتوية كلها خبت ومكر وخديعة^(١).

مواقف ابن أبي العداية للرسول - ﷺ - :

قدمت أن ابن أبي وقف مواقف عدائية للرسول - ﷺ - كثيرة في جاهليته وإسلامه، وأنه ما ترك سبيلاً إلا طرقها قاصداً إيذاء الرسول - ﷺ - وصحبه والوقوف في وجه المدّ والتيار الإسلامي المتزايد في أجواء المدينة وما حولها وأنه بسبب مجده المرتقب والذي أفلت من يده بسرعة امتلاً قلبه حقداً وضغينة وحسداً فبدأ يحوك المؤامرات تلو المؤامرات ولكنها كلها خابت وباءت بالفشل الذريع، وأصبح الإسلام في عزة ومنعة متزايدة، وأصبح الكفر في انحسار وانكماش، فالإنتصارات تتلو الإنتصارات والهزائم تتلاحق بالكفر وأهله، ومنهم فئة المنافقين لذا طار عقله حيث أفلس وخاب مراراً وتكراراً في جاهليته وإسلامه المزيف، ومن مواقفه العدائية ما ذكره

(١) السيرة لابن هشام/٢/٢٣٤، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي/١٦٨، ١٦٩/.

بعض المؤرخين أن النبي - ﷺ - ركب حماراً عليه أكاف (برذعة) ^(١).

وأردف خلفه أسامة بن زيد بن حارثة يعود سعد بن عبادة من مرض أصابه في بني الحارث من الخزرج وذلك قبل وقعة بدر فمرّ بعبدالله بن أبي وهو في ظل أطمه ^(٢) ولم يكن قد أسلم، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبدالله بن رواحة - رضي الله عنه - فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبدالله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا فسلم رسول الله - ﷺ - ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن وابن أبي زام لا يتكلم حتى إذا فرغ رسول الله - ﷺ - من مقالته قال ابن أبي: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجلسنا وارجع إلى رحلك فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ومن لم يأتك فلا تغنه به ولا تأته في مجلسه بما يكره فقال عبدالله بن رواحة بلى يارسول الله فأغشنا به في مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله ما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتبادرون النعال فلم يزل النبي - ﷺ - يخفضهم حتى سكتوا فقال عبدالله بن أبي حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تنزل تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه وإن جذ يوماً ريشه فهو واقع

(١) انظر القاموس المحيط/٣/١١٨، وفي رواية للبخاري/٧/١٠٣ من كتاب المرضى باب عبادة المريض، أن النبي - ﷺ - ركب على حمار على أكاف على قטיפه فذكية . . قال ابن حجر: على الثالثة بدل من الثانية وهي بدل من الأولى والحاصل أن الاكاف يلي الحمار والقטיפه فوق الاكاف والراكب فوق القטיפه . . (فتح الباري/١/١٢٢/).

(٢) الأطم بالضم بناء مرتفع وجمعه أطم . . (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير/١/٥٤/).

ثم ركب النبي - ﷺ - دابته فسار حتى دخل على سعد بن عباده وفي وجهه بعض الغضب فقال والله يارسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً ولكأنك سمعت شيئاً تكرهه فقال النبي - ﷺ - ألم تسمع ما قال أبو حباب - يعني عبدالله بن أبي - قال كذا وكذا فقال سعد يارسول الله : ارفق به اعف عنه ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك وقد اصطلح أهل هذه البحيرة^(١) على أن يتوجوه فيعصبونه بالعصاة^(٢) ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله فشرق^(٣) بذلك فذلك فعل به ما رأيت فعفا عنه - ﷺ -^(٤) .

هذا مثال واحد من أذيته وعداوته ومكره وطغيانه ، وصاحب الرسالة العظمى يعفو ويصفح ويتجاوز لعله يهتدى أو يثوب إلى رشده . . إن مواقفه العدائية الكثيرة للنبي - ﷺ - لا يمكن بحال من الأحوال أن يتحملها إلا صاحب عقل كبير وخلق عظيم اختصه الله من بين خلقه ليكون هادياً ورسولاً للخلق أجمعين أما آحاد البشر فمهما كانوا عليه من حنكة وعقل وروية وحلم وعطف فليس بإمكان واحد منهم أن يقبل بعضاً من تلك العداوات والمواجهات والمؤامرات التي كان يحوكمها ابن أبي ويرسم

(١) البحيرة بالتصغير: قال النووي : قال القاضي : وروينا في غير مسلم هذه البحيرة مكبرة وكلاهما بمعنى وأصلها القرية ، والمراد بها هنا مدينة النبي - ﷺ - . . . (انظر: شرح النووي على مسلم / ٤ / ٤٤٢ / .)

(٢) أي اتفقوا على أن يجعلوه ملكهم وكان من عادتهم إذا ملكوا إنساناً أن يتوجوه ويعصبوه . . . (المصدر السابق / ٤ / ٤٤٢ / .)

(٣) فشرق بذلك : أي غص به وهو مجاز فيما ناله من أمر رسول الله - ﷺ - وحل به حتى كأنه شيء لم يقدر على اساغته فغص به . . . (النهاية لابن الأثير / ٢ / ٤٦٥ - ٤٦٦ / .)

(٤) البخاري / ٦ / ٤٩ / ، والحليية / ٢ / ٦٩ / ، والمكية زيني دحلان / ١ / ٤١٢ / ، وصحيح مسلم / ٥ / ١٨٢ / كتاب الجهاد والسير .

لها ويخطط من أجلها، وصدق الله العظيم ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(١)،
﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾^(٢)، ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من
حولك﴾^(٣).

مثال من كرم الرسول - ﷺ - وخبث ابن أبي :

الرسول - ﷺ - جمع مكارم الأخلاق بلا منازع، فهو المثل الأعلى في ذلك : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾^(٤) فهو - ﷺ - لا يحقد ولا يحسد ولا يضرر حقداً ولا ضغينة لأحد بل هو الرؤوف الرحيم بأمته، وكما وصفه القرآن بذلك يودّ لهم الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يجب لكل واحد أن يجتهد تحت ظلال القرآن وأن تعمّر العقيدة الصافية قلبه، وانطلاقاً من هذا حاول جاهداً الصفح والعفو والتجاوز عن جميع المسيئين إليه وإلى صحابته الكرام، ومن هؤلاء فئة المنافقين ممثلة في شيخها ابن أبي فقد قيل للرسول - ﷺ - يوماً: «لو أتيت ابن أبي متألّفاً له ليكون ذلك سبباً لإسلامه، ومن تخلف من قومه فانطلق النبي - ﷺ - وركب حمراً وانطلق المسلمون يمشون بين يديه فلما أتاه النبي - ﷺ - قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك فقال رجل من الأنصار والله لحمار رسول الله - ﷺ - أطيب ريحاً منك فغضب لعبدالله بن أبي نفر من قومه فشتّمه فغضب لكل واحد منها أصحابه فكان بينهما ضرب بالجرید والأيدي والنعال فنزل قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنین اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل

(١) سورة الأنبياء، الآية/١٠٧.

(٢) سورة القلم، الآية (٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

(٤) سورة الأحزاب، الآية (٢١).

وأقسطوا إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴿١﴾ .

عبدالله بن أبي وابنه عبدالله :

من أغرب ما يذكر، وليس بغريب على قدرة الله - سبحانه وتعالى - أن عبدالله بن أبي شيخ المنافقين وزعيم المعارضين لدعوة الرسول - ﷺ - في المدينة، والذي كرّس حياته للنيل من الرسول - ﷺ - والوقوف في وجه دعوته وصدّ رسالته أقول: هذا الرجل الفاجر الماكر الموغل في الفساد والعناد كان ولده عبدالله من الصحابة الفضلاء والسادة النجباء ومن الذين اختصّهم الله بصحبة هذا الرسول الكريم فأحسنوا صحبته، وساعدوه في حمل وتبليغ رسالته فكان بحق من أفاضل الصحابة، ومن الذائدين عن حياة الإسلام بسيوفهم وألستهم، وكان يسوؤه كثيراً ومحزنه نفاق أبيه وفحشه وأذيته للرسول - ﷺ - وعدم صدق إيمانه ووقوفه من النبي ودعوته موقف المباعد المناهض، فكان - رضي الله عنه - كثير الحسرة شديد اللوعة يود لو كان أبوه مؤمناً صادقاً لينال عزة الدنيا ونعيم الآخرة، ولكن هداية القلوب بيد علام الغيوب . . وإذا كان صفوة الخلق وأكرمهم على الله والذي أوتي زمام البيان وجوامع الكلم تتفجر الحكمة من بين شفثيه ما استطاع هداية عمّه وأقرب الناس إليه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) فغيره من سائر الناس من باب أولى وأحرى، ولذا كانت تقوم بين هذا الابن التقيّ البار وهذا الأب الشقيّ الجافي المتكبر الجبار

(١) سورة الحجرات، آية (٩ - ١٠) والحلبيّة/٢/٦٨، والنفاق والمنافقون/٧٣ - ٧٤، وصحيح البخاري، السيرة النبوية لابن هشام/٢/٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٥هـ.

(٢) سورة القصص، الآية (٥٦).

منازعات ومشادات عدّة الهدف منها غيرة الابن على أبيه وحبّه أن يصل هذا الخير، وهذا النور إلى قلبه لعلّه يعمر بالإيمان وينجو من عذاب السعير، ولكن يالأسف الشديد باءت كل هذه الجهود وهذه المحاولات الكثيرة والكبيرة بالفشل، وإذا كان الرسول - ﷺ - وهو الذي بذل ما بذل من أجله وصبر على أذاه وإهانتة وفحشه وقبحه وفجوره لعلّه يرجع أو يثوب إلى رشده لم يستطع هدايته ولا ردّه إلى جادة الصواب، فالأمر إذا بيد الله وهو الذي بيده مفاتيح القلوب وهو الهادي وحده دون سواه، وما على الخلق إذا سوى البيان والإيضاح ومحاولته إيصال هذا الخير إلى قلوب الناس بالطرق المقررة شرعاً أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر مقيمين لحدود الله رافعين شرع الله، أمّا هداية القلوب وتخليصها من عذاب الله وإسعادها في الدار الآخرة فهذا أمر الله وحده دون سواه، والأمثلة على ذلك كثيرة وفيرة أقربها إلينا موقف عبدالله بن أبي من الإسلام، ومعاداته وبغضه له، وعلى العكس من ذلك ابنه عبدالله الصحابي الجليل العامل العابد الفارس الشجاع وصاحب المواقف الإسلامية الخيرة، كذلك ابنته جميلة فهي صحابية جلييلة وفيها وفيه عبرة لمن كان له قلب.

ابن أبي وجمعه للأشقياء من أمثاله والتفافهم حول اليهود :

عبدالله بن أبي بن سلول بحكم موقعه من قبيلته وتزعمه لهم ومحاولته أن يتزعم المدينة بوجه عام قبل مقدم الرسول - ﷺ - إليها وعلاقته التامة والمتينة بأعداء الله اليهود لما أفلت الزمام من يده وضاعت آماله وتحطمت أحلامه في الملك والسيادة على المدينة كما أسلفت أقول: إنّه بدافع من الحقد والبغض لهذا الحدث الجديد الذي حلّ بالمدينة فأضاعت له جناباتها وتغيّر الناس من حوله، وتركوا زعامته ومحاوله تنويجه وانصرفوا للدعوة الجديدة التي هي مطلوبهم والتفوا حول الرسول - ﷺ - لينهلوا من معينه الصافي العذب الزلال.

أقول: هذا الماكر الخبيث ابن أبي أحسّ بفراغ حوله، وحيث أن عقدة السلطة والرئاسة أصلية وثابتة عنده استبدلها بالذي هو خير في نظره فأخذ يجمع الشذاذ حوله من المنافقين والمنائين للدعوة عموماً والتفوا حول اليهود معقل المنافقين وأسيادهم وأخذوا يخططون معهم للإطاحة بالنبي - ﷺ - وإحباط دعوته وتشويه رسالته ومضايقته، وكان عبدالله بن أبي بن سلول يرى في هذه الفئة الضالة ضالته ويظن أنه بفعله هذا سيعمل شيئاً وأن هذا العمل العدواني الذي قام به كفيل بإحداث أمور يهواها ويأنس بها ضد الرسالة المحمدية، وقد قام فعلاً في وجه هذه الدعوة ونصب الحبائل وزرع الأشواك وبدأ يرقب سيرة الدعوة، ويحاول التشويش عليها وتشويهها للناس، وكل محاولاته ومداولاته باءت بالفشل الذريع، وكان في نهاية الأمر من الخاسرين.

تظاهر ابن أبي بالإسلام بعد موقعة بدر :

لما تأكد للناس جميعاً وبما لا يدع مجالاً للشك أو الارتياب أن الإسلام قوة عظيمة لا يستهان بها، وضاعت افتراءات وأقاويل الجاحدين والمعاندين وأعداء الدعوة عموماً وأسقط في أيديهم، وأنهم قد ضاعوا وأضاعوا غيرهم من المعاندين وأنهم خسروا كل شيء وانكشفوا اتضح أمرهم وتبددت آمالهم وضاعت أحلامهم واندثرت خططهم، اضطر كثير منهم إلى الدخول في الإسلام ليعصم بذلك ماله ودمه وينال من المكاسب المادية التي يحققها لهم الإسلام، وتزعم هذه الفئة الضالة شيخهم وإمامهم عبدالله بن أبي بن سلول فاضطر للدخول في الإسلام وإعلان إسلام ظاهري مزيف، وهنا بدأ حياة جديدة من المكر والحيلة والخديعة والإفك وقول الزور، وقد ذهب عبدالله بن أبي بن سلول للرسول - ﷺ - وأعلن إسلامه، وهنا أخذ مساراً جديداً وخطاً آخر يختلف في المسلك فقط عن خطه الأول، ويلتقي الخُطآن عند نقطة واحدة هي هدفه ومبتغاه وهي الكيد للإسلام والوقوف

أمام جحافل المسلمين بكل ما أوتي من قوة، وبدأ عدو الله يتظاهر بالود المزيف وخاصة ما ذكر عنه في مسألة عم النبي - ﷺ - العباس، حيث كان العباس ضمن أسرى بدر إذ كان يجارب مع كفار قريش فاقتيد أسيراً، ولما رجع النبي - ﷺ - إلى المدينة افتدى العباس وبعد ذلك أظهر إسلامه، ولما هم - ﷺ - أن يلبسه قميصاً لم يجدوا له ما يكفيه حيث كان رجلاً فارح الطول، فكساه عبدالله بن أبي قميصه^(١) حيث كان رجلاً طويلاً مثله، وهذه تعتبر مخادعة منه يظن أنها ستغطي جرائمه وآثامه وسينخدع الرسول وصحبه بمثل هذه الأشياء إلا أن الرسول - ﷺ - وصحبه الكرام لم يكونوا من البساطة بحيث تنظي عليهم مثل هذه الأمور الصادرة من شخص مشهور بالندالة والخسة وقبح الفعال وسوء المقال، وهم يعلمون علم اليقين أنه ما دخل في الإسلام حباً فيه، وإنما دخل مكرهاً وخوفاً على نفسه وأنه لن يترك جرائمه وآثامه، وأنه كان سابقاً يتحرك بطريقة علنية مكشوفة يسهل مراقبتها وملاحظتها، أما الآن فعمله أكثر تعقيداً وغموضاً، فالحاجة إلى ملاحظته ومراقبته تبدو أكثر من ذي قبل، ولذا لم يكن لعمله هذا الذي فعله مع العباس عم النبي - ﷺ - أي أثر يذكر، ولذا لم تفت الفرصة على الرسول - ﷺ - فعندما هلك عدو الله ابن أبي وأتى ابنه عبدالله الصحابي الجليل صاحب المواقف النبيلة الشجاعة لخدمة الإسلام والمسلمين أتى إلى

(١) وردت هذه القصة في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد كالاتي:

حدثنا محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتاده قال: كان العباس بن عبدالمطلب حين قدم به في الأسارى طلب له قميص فما وجدوا له قميصاً بيثرب يقدر عليه إلا قميص عبدالله بن أبي ألبسه إياه فكان عليه . . . وفي سند آخر:

أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبدالله قال: لما أسر العباس لم يوجد له قميص يقدر عليه إلا قميص ابن أبي . . . (الطبقات الكبرى لابن سعد / ٤ / ٧ / طبعة دار الفكر العربي).

رسول الله - ﷺ - بدافع النبوة والقرابة يطلب قميص الرسول - ﷺ - ليكفن فيه وليصلي عليه الرسول - ﷺ - كما أسلفت - فأعطاه - ﷺ - قميصه فكفن فيه وذلك تطيباً لخاطر ابنه عبدالله وتأليفاً للقلوب وبذا يكون الرسول - ﷺ - وهو المعلم الأول - عالج أموراً عدّة أهمها رد المعروف الذي فعله هذا المنافق بإعطاء ثوبه للعباس ، وثانيها ربط القلوب وتطيب قلب ابنه عبدالله لئلا يكون موت أبيه على النفاق مثاراً للحديث الذي قد يسيء إليه ويمسّ كرامته . . ولعلّ بعض أتباعه وأشياعه من زمرة البغي والنفاق يرجعون ويتوبون إلى رشدهم ويتركون غيهم ويرجعون إلى جادة الصواب وإلى الطريق السليم وهو أسلوب أخلاقي وتربوي فدّ لا يصل إليه إلا صاحب قلب كبير طهره ربه وزكاه ، ومن أخرى بذلك إلا صاحب الرسالة العظمى محمد صلى الله عليه وسلم .

موقف ابن أبي في غزوة بني قينقاع :

ابن أبي كما هو واضح بعد معركة بدر الكبرى تشتت أمره وخارت قواه وأصبح يبحث عن مأوى لنفسه ومكان يأنس إليه بعد الضياع الذي أصابه والفجيرة التي فطرت قلبه وأدمت فؤاده وخاصة أنه كان يعتبر اليهود من أقوى أنصاره ومؤيديه ، هكذا ظنّ وتصور خاطئاً وإلا فاليهود لا يثقون بأحد من غيرهم ولا يعطون ولاءهم لأحد ، وإذا كان الكفر جمعهم وبغض الرسالة وصاحبها وحدهم فقلوبهم شتى لكن - كما قدّمت - جمعتهم مصالحهم العاجلة ففوجيء بأن حلفاءه وأنصاره نقضوا ما بينهم وبين رسول الله - ﷺ - من عهد بناء على ما عهد عنهم من خيانة وعدم أمانة ، وسبب هذا الغدر أن امرأة مسلمة قدمت بجلب لها فباعته في سوق بني قينقاع ، وكانوا صاغة يقيمون بالمدينة فباعت إبلًا وغنمًا لها ثم جلست إلى صائغ منهم فجعل جماعة من اليهود يراودونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وخلّه بشوكة وهي لا تشعر فلما

قامت انكشفت عورتها فضحك اليهود منها فصاحت فقام رجل من المسلمين إلى الصائغ فقتله فقام اليهود إلى المسلم فقتلوه فهبّ المسلمون وغضبوا ووقعت فتنة بين المسلمين واليهود فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال ما على هذا أقررناكم وأرسل إلى حلفائهم من المسلمين فحضر اثنان من رؤساء الخزرج وأحلاف بني قنيقاع إلى رسول الله - ﷺ - وكان أحدهما عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - والثاني عبدالله بن أبي بن سلول .

أما عبادة بن الصامت فخلع حلفهم وتبرأ إلى الله ورسوله منهم وقال : يارسول الله أتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم .

وأما عبدالله بن أبي فتشبت بحلفه مع اليهود وقال : ولكني لا أبرأ من ولاء يهود إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالي ، فقال له رسول الله - ﷺ - ياأبا الحباب أرأيت الذي نفّست به من ولاء يهود على عبادة فهو إليك دونه قال : إذن افعل ، وفيه وفي أمثاله من المنافقين كما فيها أيضاً تحذير للمؤمنين الآخرين من ولايتهم والعرب منهم ^(١) نزل قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ، إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ ^(٢) .

وعند ذلك حاول الرسول - ﷺ - إسلامهم وإقناعهم في الدخول في دين الله ليربحوا الدنيا والآخرة ويعلموا ويحموا بذلك دماءهم وأموالهم ،

(١) النفاق والمنافقون/١٠٥ ، ١٠٦ ، والسيرة النبوية لابن هشام/٣/٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآيات (٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) .

ولكنّ خبث اليهود ومكرهم وما جبلوا عليه من مكر وخديعة وبغض للإسلام وأهله والناس جميعاً أبوا إلاّ البقاء على الكفر، ولذا لما جمعهم رسول الله - ﷺ - وقال لهم يامعشر يهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النعمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنّي نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله تعالى إليكم، ولكنهم بخبثهم وغرورهم وغطرستهم وبغيهم وعنادهم قالوا للرسول - ﷺ - يا محمد إنك ترى أنّا كقومك، لا يغرّنك أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس^(١)، وهذا منتهى العناد والغطرسة وهي أمور معروفة من اليهود أعداء الرسل فقال الله تعالى مكذباً لأقوالهم: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فنته تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾^(٢).

وبعد محاولات الرسول لهم لعلهم يرجعون إلى الصواب، ويدخلون في دين الله حقناً لدمائهم وصوناً لأموالهم وممتلكاتهم أصروا وعاندوا وطغوا وتجبروا ورأوا أنهم لن يغلبوا، وأن النصر سيكون حليفاً لهم أخذتهم العزة بالإثم وبعد ذلك تحصنوا في حصونهم وبيوتهم وما عملوه لأنفسهم ظانين أنها ستغني عنهم من الله شيئاً وما عرف أعداء الله أن النصر بيد الله وأن القوة المادية الأرضية مهما كانت فهي صغيرة ضعيفة أمام جنود الله وحزب الله حيث أنّ حزب الله هم الغالبون، ولذا خرج إليهم رسول الله - ﷺ - وحاصرهم خمس عشرة ليلة^(٣) حصاراً قوياً شديداً وذلك من الخامس عشر من شهر شوال إلى أوائل شهر ذي القعدة وحمل اللواء في هذه الغزوة عمّ

(١) السيرة النبوية لابن هشام/٣/٥٠ ط البابي الحلبي، وتاريخ الطبري/٢/٤٧٩/.

(٢) سورة آل عمران، الآيات (١٢ - ١٣).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام/٣/٥٢/، والكامل في التاريخ/٢/٩٦/.

رسول الله - ﷺ - حمزة بن عبدالمطلب - رضي الله عنه - فقذف الله في قلوبهم الرعب وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، ولما أحسوا بالضيق، وتبين لهم عياناً أنهم واقعون لا محالة، وأنه ليس هناك مخرج من أمر الله وأن الرسول - ﷺ - منتصر عليهم ومتفوق تماماً في حصاره لهم نزلوا على أمر رسول الله - ﷺ - وعرضوا عليه أن يخلي سبيلهم، وأن يجلووا عن المدينة وأن لهم النساء والذرية ويبقون الأموال والسلاح وهم النبي - ﷺ - بقتلهم فربطوا وقام على ذلك المنذر بن قدامة السلمي، وهنا ثارت حمية عبد الله بن أبي وطار قلبه وأخذ عدو الله يتخبط في ظلماته، وانبرى للدفاع عنهم وتولى قضيتهم بنفسه ورمى بثقله المزيف في وسط القضية فبان ربه واتضح كفره وأنه إلى أعداء الله اليهود أقرب من المسلمين، وهو وإن كان أمره واضحاً وإسلامه مزيفاً تستراً - أي أنه كشف عن وجهه القبيح وعرّى نفسه كثيراً في هذا الموقف - فأغضب الرسول وصحبه وشدد في إلحاحه وشفاعته الممقوتة .

وهو رجل لحوح لا يملّ الحديث في القضايا نزع الله الحياء عن وجهه حيث نزع الإيمان من قلبه حيث الحياء والإيمان قرينان، فقد تكلم وأكثر وتطاول وقال: يا محمد أحسن في موالي فأعرض عنه فأدخل يده في درع جيب رسول الله - ﷺ - من خلفه فقال له رسول الله - ﷺ - ويحك أرسلني، وعند ذلك غضب رسول الله - ﷺ - غضباً شديداً وتغيّر وجهه قال لعدو الله ويحك أرسلني فقال والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، وكانوا أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع فإنهم عدتي وأنا امرؤ أحشى الدوائر وقد منعوني من الأحمر والأسود تحصدتهم في غداة واحدة^(١) . فقال رسول الله - ﷺ - «خلّوهم لعنهم الله ولعنه معهم»^(٢) وخلّى سبيلهم فلم يقتلهم، وقال

(١) السيرة النبوية لابن هشام/٥٢/٣ ط الباي الحلبي، والبداية والنهاية/٤/٤ / الطبعة الأولى

١٩٦٦م، وتاريخ الطبري/٤/٤٨٠ .

(٢) الكامل في التاريخ/٩٧/٢ / دار الفكر - بيروت - سنة ١٣٩٨هـ .

له خذهم لا بارك الله لك فيهم ثم أمر أن يجلبوا عن المدينة ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت الصحابي الجليل - رضي الله عنه وأرضاه -^(١) وأمهلهم ثلاثة أيام . . . ولما انتهى اليوم الثالث سألوا عبادة أن يمهلهم أكثر من ذلك فقال لا ولا ساعة واحدة، وعند هذه النقطة بالذات نجد موقفاً خسيساً ولبئياً وحاقداً وماكراً من عدو الله ابن أبي فقد عاود الكرة الثانية وحاول الاستشفاع بهم وهو - كما أسلفت - لحوح لا يستحي قد نزع الله الحياء من وجهه فتوجه إلى مكان رسول الله - ﷺ - ولما وصل إليه أراد الدخول فمنعه الصحابة الكرام - رضي الله عنهم وأرضاهم - لمعرفتهم به وبجاحته وكره الرسول وبغضه له ولما جاء من أجله، ولولا حلم الرسول وكرمه ووفائه ورحمته لأوقع به حيث تبين في مثل هذا الموقف للناس جميعاً أنه أشدّ عداوة من اليهود وأنه يسير معهم حيث ساروا، بل قد يكونون أحياناً أخف ضرراً وشرّاً منه، فهم وإن كانوا من الأعداء إلا أن عداوتهم ظاهرة مكشوفة - كما أسلفت - أمّا هو فهو عدو متستر، ولما منعه الصحابة من الدخول همّ أن يدخل عنوة، عند ذلك دفعه أحد الصحابة دفعة شديدة فاصطدم وجهه بالجدار فشجه فذهب مغضباً عند ذلك علم بنو قينقاع علم اليقين أنه لا مقام لهم بالمدينة بعد اليوم وأنّ الرسول عازم بما لا يدع مجالاً للشك على رحيلهم وإجلائهم، وقالوا: لا نمكث في بلد يفعل فيه بأبي الحباب هذا، ولا ينتصر له، وعقدوا العزم مكرهين على الرحيل ومغادرة المدينة .

أعمال المنافقين في غزوة أحد، وموقف ابن أبي منها :

وقعة أحد من المواقع التي ابتلي فيها المؤمنون ليطمئذوا عن المنافقين قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب،

(١) الكامل في التاريخ / ٢ / ٩٧، وتاريخ الطبري / ٢ / ٤٨١ . .

وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم ﴿١﴾ .

كانت هذه المعركة ابتلاء وتمحيصاً وتمييزاً بين الطيب والخبث، والخبث المستتر المتمثل في جماعة المنافقين الضالين الحاقدين الذين ما فتئوا يحوكون شتى الحيل والدسائس وصنوف المكر والخداع، ولذا تبين للمسلمين واضحاً حقدهم وعنادهم وأنهم ألد أعدائهم وأقبح خصومهم ومناوئهم، ولهذا لما انتهت المعركة وأكرم الله بالشهادة من أكرم من الصحابة الكرام رضوا وأطاعوا وأذعنوا لقضاء الله وقدره غير عابئين بالنكسة المؤقتة لعلمهم التام أن الله معهم وهو الذي يتولى شئونهم ويدبر أمورهم - أما المنافقون فقد كانت الفرصة - حسب رأيهم - مواتية للوم والشماتة والقييل والقال جرياً على عاداتهم في كل وقت وحين يشتمون بالمؤمنين ويلومون الصادقين المخلصين، حيث كانوا قد خططوا لما هو أعظم من ذلك قاصدين إيقاع هزيمة أكبر بالمسلمين وذلك عندما أشار ابن أبي البقاء بالمدينة وعدم مبارزة العدو خارجها، وذلك ليظفر ببيغيته لينضم اليهود والمنافقون إلى صفوف المشركين ويقاتلوا المسلمين جميعاً ولذلك غضب وتكلم بكلام قبيح لما لم يطع أمره، ومكر بالمسلمين وخالفهم ورجع بمن معه من المنافقين واليهود^(١) الذين قدر عددهم بتسعمائة رجل من الفريقين مما يدل على خبثه ومكره وفساد خلقه وطبعه^(٢) .

عدو الله ابن أبي يعاقب ابنه :

العدو اللدود للإسلام والمسلمين ابن أبي فرح كثيراً بل طار من الفرح بما أصاب المسلمين يوم أحد، وحدثته نفسه المريضة أن الكفر سينتصر وأن

(١) سورة آل عمران، الآية (١٧٩).

(٢) انظر تفسير ابن كثير/١/٤٢٥/ وفتح الباري/٤/٩٧، و/٧/٣٥٦، و/٨/٢٥٧،

وسيرة ابن هشام/٢/٦٠، ٦٤، وتاريخ الطبري/٢/٤٩٩.

(٣) النفاق والمنافقون/١٢٠ وما بعدها.

الحق سينهزم ولا أدل على ذلك من شهادته بأقرب الناس إليه وهو ابنه^(١) فبدأ يوبخه ويؤنبه لعله يرجع عن دينه ويساعده في غيّه وضلاله وكفره وافترائه وخاصة أن الابن المؤمن التقي البار بوالده الفاجر قد أصيب ورآه أبوه وهو يكوي جراحه بالنار فقال له ما كان خروجك معي إلى هذا الوجه برأى، عصاني محمد وأطاع الولدان لكأني كنت إلى هذا ولكن الشاب المؤمن التقي الذي امتلأ قلبه بحب الله ورسوله وآثر الآجل على العاجل وعزف عن الدنيا وزخرفها ومتاعها فكان على النقيض من والده الشقي الذي غلبته شهوته ونفسه المريضة فباع آخرته بدنياه إنه بيع خاسر فإذا كان جواب الولد التقي لوالده الشقي أنه الجواب الشافي قال له: «الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خيراً»^(٢).

ابن أبي بعد غزوة أحد :

أشرنا من قبل أن عدو الله ابن أبي نافع وباعد رسول الله - ﷺ - وفارق الإسلام حقيقة، وإن كان في ظاهر أمره يدعي الإسلام بدافع من عقدة أصلية في نفسه وهي حبّ الزعامة والولاية والرئاسة فهو متهالك على السلطة مغرم بها إلى أقصى حدّ، وحبّه للظهور هذا هو الذي أرداه وأوقعه في الهلكة وسوء العاقبة والمصير، ولذا فإنّه لما انتهت المعركة وعاد الرسول - ﷺ - وصحبه الكرام إلى المدينة ورجعت قريش إلى مكة ورأى أن المسألة أقلّ مما تصوّر بكثير فالرسول عاد إلى المدينة سالماً مسلماً والتف أصحابه من حوله أقوى ما يكونون شدة وصلابة في دينهم ودفاعاً عن نبيهم وكأن شيئاً لم يكن فالإيمان الصادق أنساهم كل شيء في سبيل الله وابتغاء مرضاته

(١) قتل عبدالله بن عبدالله بن أبي في خلافة أبي بكر الصديق سنة اثنتي عشرة كما ذكر ذلك ابن سعد وابن الأثير وابن حجر.

(انظر طبقات ابن سعد/٣/٥٤٢، وأسد الغابة/٣/٢٩٨، والاصابة/٢/٣٣٦).

(٢) السيرة الحلبية/٢/٢٧٠، والسيرة النبوية والآثار المحمدية لأحمد زيني دحلان/٢/٧٢.

ووثوقاً بما عنده هان عليهم كل شيء ، ومحاولة من ابن أبي لإستعادة مركزه ومكانته السابقة في قومه ، وليبني له مكاناً معيناً في صفوف المسلمين .

ولذا حاول الإستمرار في فعله السابق وهو أنه عندما يأتي رسول الله - ﷺ - ليخطب في المسلمين يوم الجمعة يقوم ابن أبي - مخادعة ونفاقاً - فيقول: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله تعالى به وأعزكم فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ثم يجلس .

ونظراً لحماقته وجهله وخسّة طبعه ووقاحته وخبثه ومكره عاود الكلام ثانية بعد أحد ، ولم يمنعه الحياء من ذلك على الرغم من مواقفه اللعينة المشينة قبل الحرب وأثناءها وبعدها وقد قدمت طرفاً من ذلك إلا أن المسلمين في هذه المرة لم يكونوا من الغفلة والسذاجة بحيث تنظلي عليهم مخططاته وافتراءاته فقد ضاقوا به ذرعاً وامتلات نفوسهم منه ، وأصبح أمره واضحاً مكشوفاً لكل ذي عينين ، وكان الأحرى به أن ينجل من نفسه حيث لم يعد أمره خافياً على أحد لكنّه أدركه الحمق والغرور وحبّ الرئاسة والظهور فنسي أو تناسى كل ما حصل منه من قبح وفساد وأذية للعباد فأخذ المسلمون هذه المرّة بثيابه من جميع النواحي وقالوا له : اجلس عدو الله لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت فخرج عدو الله يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنّنا قلت بجرا أن قمت أشدد أمره ، فلقية رجل من الأنصار بباب المسجد فقال له : مالك ويلك ، قال : قمت أشدد أمره ، فوثب عليّ رجال من أصحابه يخذلونني ويعنفونني لكأنّنا قلت بجرا أن قمت أشدد أمره ، قال : ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله قال : والله ما أبغى أن يستغفر لي^(١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام/٣/١١١/ ط الحلبي ، والسيرة الحلبية/٢/٢٧٠/ والسيرة النبوية والآثار المحمدية لأحمد زيني دحلان على هامش السيرة الحلبية/٢/٧٢/ ط المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٠هـ .

موقف ابن أبي حول إجلاء بني النضير :

علم ابن أبي ومن معه من المنافقين قبول بني النضير لفكرة الجلاء عن المدينة المنورة حسب أوامر الرسول - ﷺ - فكبر الأمر عليهم وضاعت بهم السبل وبدأوا حرباً داخلية تتم كعادتهم في الخفاء خاصة وأن جلاء بني النضير معناه تناقص القوة المضادة حسب اعتقادهم الفاسد ورأيهم الضال الكاسد وخاصة كبيرهم وشيخهم ابن أبي فلقد عزّ الأمر عليه كثيراً وضاعت نفسه الخبيثة بمثل هذا العمل وأصبح في موقف محير كيف يخرج حلفاءه وأنصاره وأشياعه ومدبروا أمره، إنها الغلبة للإسلام والمسلمين والخيبة والدمار وسوء العاقبة والمصير للمنافقين والمناوئين وأعداء الدعوة عموماً، فأرسل إليهم ابن أبي بعض المنافقين أن اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ولن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وأرسل إليهم ابن أبي أن لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فيها داخل حصونكم، وقال لهم وقوله الإفك والكذب: إن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم وتمدكم قريظة وحلفاءؤكم من غطفان.

اغترزعماء اليهود بهذه الوعود من ابن أبي^(١) - وهو الكاذب - الكذوب، وهم مع علمهم بمواقفه الذائبة المائعة وكذبه ودجله وافترائه إلا أنه غرهم بكلامه وانتظروا نجدته ونصرته ولكن الخبيث أقل وأحقر من ذلك.

ولقد اتصل عبدالله بنبي قريظة وطلب منهم نصره بني النضير فداخلهم الخوف والذعر من نقض العهود مع الرسول - ﷺ - كما طلب من أناس آخرين من المنافقين وغيرهم ولكنه باء بالفشل الذريع . . . والعجيب أن

(١) انظر سيرة ابن هشام/٢/١٩٠، ١٩٥، وتاريخ الطبري / ٥٥١/٢ / وتفسيره/٢٨ - ٢٩، وفتح الباري/٧/٣٣١.

عقلاء اليهود وأهل الرأي فيهم صدّقوا ابن أبي وانغروا بكلامه ووعوده أمثال حيي بن أخطب، وهو أمر بمنتهى الغرابة وإلا فكيف يستطيع ابن أبي أن يقدم شيئاً وهو الجبان الذليل الخائف على نفسه دائماً وأبداً، إنه الحقد والبغض والكرهية من اليهود للإسلام وأهله، هذه الصفات الذميمة القبيحة من أعداء الله اليهود أنستهم الحقيقة وغرتهم وتمادوا في غيهم وضلالهم حتى وقع بهم ما وقع . . . والواقع أن بعضاً منهم لم يوافق على هذا الرأي أمثال سلام بن مشكم فقد خالف سلام هذا حيي بن أخطب واعترض عليه قائلاً: متتك نفسك والله يا حيي الباطل، فإن قول ابن أبي ليس بشيء وإنما أراد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً فيجلس في بيته ويتركك ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة أن تمدكم بنو قريظة فقال لا ينقض رجل منا العهد فأيس من بني قريظة وأيضاً قد وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد وحصروا أنفسهم في صياصبيهم وانتظروا ابن أبي فجلس في بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه .

فإذا كان ابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ونحن لم نزل نصره بسيوفنا مع الأوس في حروبهم، ورغم هذه المجادلة والمحاورة بين عدو الله حيي وسلام انتصر الأول لرأيه وأصر على بغيه وعدوانه وأبى إلا الردى، وسوء العاقبة والمصير حيث أجاب بهذه الإجابة المليئة حقداً وعناداً وأبى إلا عداوة محمد، وإلا قتاله فأجابه سلام: فهو والله جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا . . . ولقد أصر حيي وعاند وعقد العزم على رأيه الضال الفاسد وتابعه على ذلك قومه بنو النضير وقالوا له بدافع من الحقد والبغض والكرهية للرسول - ﷺ - وصحبه، وقالوا له بكل صلف وغرور: أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك فبعث عدو الله أخاه جديا إلى رسول الله - ﷺ - وقالوا له: إنا لن نخرج من ديارنا

فافعل ما بدالك فكبر رسول الله - ﷺ - وكبر معه المسلمون وقال : حاربت يهود، وبعد ذلك نادى منادي رسول الله - ﷺ - بالسير إلى اليهود فحاصرهم حصاراً شديداً فخرج بنو النضير يجرون أذيال الخزي والعارهم ومن تعلقوا به من المنافقين وصدق سلام بن مشكم وهو كذوب حيث قال إن ابن أبي لن يفعل شيئاً ووعوده وأقاويله ليست بشيء فقد قعد وجلس في بيته ولم يفعل شيئاً على الرغم من أنه وأشياعه وأتباعه من المنافقين كانوا يبعثون لهم الرسل أثناء الحصار وقبله أن اثبتوا وابقوا في حصونكم فإننا سنفعل ونفعل ولكن المنافقين - وكعادتهم في الكذب والدجل والتخلي عن أقرب الأصدقاء - خانوهم وتركوهم ولم يقدموا لهم شيئاً فضاقت بهم الدنيا بأسرها وتبين لأعداء الله اليهود عاقبة فعلهم وخطل رأيهم وكذب المنافقين وخيانتهم لهم حيث جعل سلام بن مشكم، وكنانة بن صوريا يقولان لحبي بن نصر ابن أبي الذي زعمت فيقول ما أصنع هي ملحمة كتبت علينا فقتل الله في قلوبهم الرعب وسألوا رسول الله - ﷺ - أن يجليهم وأن يكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة^(١) «السلاح» ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الواحد منهم - والعياذ بالله - يهدم بيته عن نجاف بابه «العتبة العليا» فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام^(٢).

ونزل في بني النضير سورة الحشر كاملة يذكر فيها ما أصابهم الله من نعمته وما سلط عليهم به رسوله - ﷺ - وما عمل به فيهم فقال تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن

(١) الحلقة بسكون اللام السلاح عامة وقيل الدروع خاصة... (النهاية لابن الأثير/١/٤٢٧).

(٢) ابن هشام/٣/١٠٩، والنفاق والمنافقون - إبراهيم علي سالم/١٥٦ وما بعدها.

يخرجوا وظنّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعدّ بهم في الدنيا وهم في الآخرة عذاب النار، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب، ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين، وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴿١﴾.

وفي سورة الحشر ذكر جل ذكره وعد المنافقين الكاذب لهم بالنصرة والمعونة وأنهم معهم في السراء والضراء فكذبهم وفضحهم وبين أسرارهم وهتك أستارهم فقال: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، لا يقاتونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون، كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴿٢﴾.

وفي هذه الآيات بيان واضح لحال المنافقين وأعداء الله اليهود وموقف الفتيتين حقاً من الإسلام والدعوة الإسلامية، وأنهم من ألد أعداء المؤمنين في كل وقت وحين جمعهم الكفر ووجد فيما بينهم وإن كانوا متفرقين، الكره

(١) قطع نخيل بني النضير وتحريقه ثابت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنها... (انظر البخاري/٧٤/٥ كتاب المغازي ومسلم/١٤٥/٥ كتاب الجهاد والسير...)

(٢) سورة الحشر، الآيات (٢، ٣، ٤، ٥، ٦).

(٣) سورة الحشر، الآية (من ١١ - ١٥).

الشديد والبغض الأكيد للمسلمين الصادقين فهم - كما قال القرآن - إخوان حيث قرر الحق جلّ وعلا الصلة فيما بينهم من أجل طمس نور الإسلام .

ابن أبي يوم الحديبية :

لَمَّا حصل صلح الحديبية ليرجع الرسول - ﷺ - وأصحابه فلا يؤدون عمرة أرسلت قريش إلى عدو الله ابن أبي قالت له : لو يشاء أن يطوف بالبيت فانتفخ بذلك سحره وبدت كبرياؤه المصطنعة وغطرسته الحاقدة تظهر وهمّ بذلك فعلاً إلا أن ولده الصحابي الجليل الرجل الصالح المناصر لله ورسوله ناشده ووقف في وجهه ألا يفضحه ويعرضه للنقد في كل مكان ، وقال له كيف تطوف بالبيت ورسول الله - ﷺ - لم يطف ولا زال يعذل فيه حتى نزل على رغبته وترك ما همّ به . . . ولَمَّا خضعت قريش وهوازن وثقيف وغيرها من قبائل العرب لرسول الله - ﷺ - سخر وتهكم من رسول الله - ﷺ - وقال قولته الفاجرة : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعزّ وأمنع من ذلك . . . ونزل قول الحق جل ذكره ردّاً عليه وعلى إخوانه من الشامتين والمعاندين : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾^(١) .

موقفه يوم تبوك :

موقعة تبوك من المعارك التي اختبر الله بها المؤمنين ومحصهم وميزهم عن زمرة المنافقين الكاذبين المخادعين حيث أن الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - لبوا نداء الصادق الصدوق وخرجوا مسرعين رغم حرارة الجو وقسوته وبعد المسافة ، ولذا فإن ابن أبي الكاذب المفترى اعتذر هو

(١) سورة آل عمران ، الآية (٢٦) .

وإخوانه المنافقون الآخرون عن الخروج قال الحق جل ذكره فيهم ذاماً ومكذباً لهم ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾^(١).

وفيه وفي إخوانه وأعوانه من المنافقين نزل الكثير من آي القرآن وقدّمنا شيئاً من ذلك كما هو الحال في سورة البقرة والتوبة والمنافقون وغيرها وتسمّى سورة التوبة بالفاضحة لأنها فضحت المنافقين وكشفتهم وبيّنت تماماً أمرهم ومخططاتهم ومكنوناتهم . . . ولقد حاول عدو الله أن يثير كلاماً ساقطاً حول فارس الفرسان وزاهد الزهاد أبي الحسن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما خلفه - على المدينة فقال عدو الله ما خلفه إلا استثقلاً له وتخففاً منه فلحق برسول الله - ﷺ - فقال له عليه الصلاة والسلام: «كذبوا ولكني خلقتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(٢).

مشاهير المنافقين :

قدّمنا أن النفاق إحدى العقبات والصعوبات التي واجهت الدعوة الإسلامية وصاحبها - ﷺ - منذ حلوله بالمدينة المنورة .
والحديث عن النفاق والمنافقين حديث متشعب وطويل ولعلنا فيما مضى ألمحنا بأهم جوانبه وأتينا أثناء حديثنا عنه على بعض الأسماء ممن تميّزوا ووضحوا أكثر من غيرهم وإلا فالمنافقون كثير.
وفي ختام هذا الحديث عنهم لعله من المناسب أن أختتم حديثي عنهم

(١) سورة التوبة، الآية (٤٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام/٤/١٢١/ ط مطبعة الرياض.

بذكر أهم أعداء الإسلام من المنافقين الذين برزوا في النفاق وكانوا قادة لهؤلاء المفترين الضالين:

١ - عبدالله بن أبي بن سلول: وقد مرَّ اسمه مراراً وأثبتُّ ترجمة له فلا داعي للإعادة.

٢ - معتب بن قشير الأوسي^(١): كان ممن اشترك في بناء مسجد الضرار وقد نزل فيه قرآن يتلى كشف فسقه ونفاقه قال يوم أحد لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا فرد الحق جل وعلا عليه حيث قال: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾^(٢).

ولقد قال عدو الله يوم الأحزاب زوراً ونفوه منكرأً (كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط وقال عنه القرآن وفضحه: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾^(٣).

٣ - ودیعة بن ثابت: وهو من بني عمرو بن عوف من الأنصار كانت مساكنهم في قباء حيث بني بها أول مسجد أسس على التقوي من أول يوم اشترك عدو الله في بناء مسجد الضرار وكان متعاوناً مع شيخ

(١) النفاق والمنافقون/٤١٠/.

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٥٤).

(٣) ابن هشام/٢/١٤٩/.

(٤) سورة الأحزاب، الآية (١٢).

المنافقين ورأسهم عبدالله بن أبي بن سلول وهو الذي قال: إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن^(١).

٤ - زيد بن اللصيت: من بني قينقاع إحدى طوائف اليهود التي تسكن المدينة كان دجالاً أفاكاً عمله الرئيسي إثارة الشبه والشكوك حول محمد ﷺ - ورسالته، لما مرض عبدالله بن أبي زعيم المنافقين، اشترك في التردد عليه وتمريضه، وكان يطمئن التف حوله أثناء مرضه وأسفوا لفراقه بعد موته.

٥ - ذو الخويصرة التميمي: منافق معلوم النفاق تبين خبثه ونفاقه جلياً حين قسم رسول الله - ﷺ - غنائم الطائف قال للرسول - ﷺ - أعدل يارسول الله، فقال الرسول - ﷺ - ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل.

٦ - أوس بن قيطي: الذي قال لرسول الله - ﷺ - يوم الخندق: يارسول الله: إن بيوتنا عورة فأذن لنا لنرجع إليها^(٢)، وفيه وفي إخوانه وأعوانه يقول القرآن: ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تتمعون إلا قليلا﴾^(٣).

٧ - رفاعة بن التابوت: يهودي من بني قينقاع يسمّى كهف المنافقين، هلك حين عودة جيش المسلمين من غزوة بني المصطلق فهبت ريح شديدة فقال لهم رسول الله - ﷺ - مات اليوم منافق عظيم بالمدينة

(١) ابن هشام/٢/١٧٠.

(٢) ابن هشام/٢/١٧٠، والنفاق والمنافقون/٤١٢، ٤١٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآيات (١٣، ١٤، ١٥، ١٦).

حزن عليه زعيم المنافقين ابن أبي كثير وأصابه هم وغم من جراء ذلك حيث فقد أحد أشياعه وأنصاره^(١).

نهاية عدو الله ابن أبي :

لكل شيء نهاية ينتهي إليها وأمد يقف عنده، وبنو آدم كغيرهم من الموجودات على ظاهر هذه الأرض يوجدون وينتهون لكن الفرق بينهم في حياتهم وبعد مماتهم كبير، فالآخرة وما فيها من نعيم مقيم خاص بالمتقين، أما الأشقياء التعساء قلما كان حظهم في هذه الدار الشقاء والعذاب النفسي، فعذاب الآخرة أشق وأكبر والآخرة وما فيها من نعيم مقيم إنما هو خاص بالمتقين . . . وموضوع فصلنا هذا هو ابن أبي وكيف كانت نهايته، وكيف كان الصادق الصدوق وفيما حتى مع أعدائه ناصحاً ومخلصاً حتى مع الذين آذوه وطاردوه وحاربوه وترصدوا له ووقفوا في وجه دعوته وعارضوا رسالته، وصدق الله العظيم ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فهو - ﷺ - رحمة ونعمة.

مرض ابن أبي :

كان ابتداء مرضه في شوال ومكث عشرين ليلة^(٢) وذلك في السنة التاسعة للهجرة وذلك بعد غزوة تبوك وقد مرض في ليال من شوال ومات في ذي القعدة.

قال الواقدي : مرض عبدالله بن أبي في ليال بقين من شوال ومات في ذي القعدة وكان مرضه عشرين ليلة^(٣).

(١) النفاق والمنافقون / ٤٢٠ وما بعدها / .

(٢) الكامل لابن الأثير / ٢ / ١٩٩ / .

(٣) البداية والنهاية / ٢ / ٣٤ / .

قال ابن كثير: وكان رسول الله - ﷺ - يعودها فيها فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله - ﷺ - وهو يجود بنفسه فقال: «قد نهيتك عن حب يهود» فقال: قد أبغضهم سعد بن زرارة فما نفعه، ثم قال: يارسول الله ليس هذا الحين عتاب هو الموت فاحضر غسلي وأعطني قميصك الذي يلي جلدك فكفني به وصل علي واستغفر لي ففعل ذلك به رسول الله - ﷺ - (١).

وقد ذكر الإمام البخاري: رحمه الله - في صحيحه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: لما توفي عبدالله بن أبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله - ﷺ - فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله - ﷺ - ليصلي عليه فقام عمر وأخذ بثوب رسول الله - ﷺ - فقال: يارسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه فقال رسول الله - ﷺ - إنما خيرني الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وسأزيد على السبعين، قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله - ﷺ - فأنزل الله عز وجل الآية: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾ (٢).

كذلك روى البخاري (٣) - رحمه الله - رواية أخرى عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - قال لما مات عبدالله بن أبي بن سلول دعي رسول الله - ﷺ - ليصلي عليه فلما قام فوثبت إليه فقلت: يارسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا وكذا قال: أعدد عليه قوله . فتبسم رسول الله - ﷺ - وقال أخرجني يا عمر، فلما أكثرت عليه قال: إني

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة التوبة، الآية (٨٤).

(٣) فتح الباري/٨/٣٣٦ - ٣٣٨.

خيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها،
قال: فصلى عليه رسول الله - ﷺ - ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى
نزلت الآيتان من سورة براءة قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله
- ﷺ - .

كذلك أورد البخاري رواية ثالثة لا تخرج عن الروایتين الأولين كما أورد
مسلم في صحيحه مثل ذلك، وكذلك الإمام أحمد^(١).
وحديث عمر - رضي الله عنه - هذا مروى في كتب السير كابن هشام
والبداية والنهاية لابن كثير وغيرهما، والله أعلم.

وقال ابن كثير - رحمه الله - قال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار:
سمع جابر بن عبد الله يقول: أتى رسول الله قبر عبد الله بن أبي بعدما
أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه أو فخذه ونفث عليه من
ريقه وألبسه قميصه^(٢).

وفي صحيح البخاري بهذا الإسناد مثله وعنده: أنه إنما ألبسه قميصه
مكافأة له لما كان كسا العباس قميصاً حين قدم المدينة فلم يجدوا له ما
يصلح له إلا قميص عبد الله بن أبي^(٣).

وذكر أصحاب السير أن عدو الله ابن أبي أحاط بجنازته جمع كبير من
المنافقين الذين حملوا لواء النفاق وتصدوا للدعوة الإسلامية جميع جماعات

-
- (١) النفاق والمنفقون - إبراهيم علي سالم / ٢٧٠ - ٢٧١ / .
(٢) أما ما ورد عن كيفية دفنه وحضور النبي - ﷺ - ذلك في إحدى الروايات واستخراجه بعد
الدفن بأمر النبي - ﷺ - فتبدو على تلك الروايات تناقض يدعو إلى الشك والتأمل، وهي
تهدف إلى التهويل من شأن عبد الله بن أبي . . .
(٣) البداية والنهاية لأبن كثير / ٣٥ / ٥ / وقد نسب الحديث إلى البخاري .

اليهود في المدينة، ولذا لما مرض كبيرهم وزعيمهم ابن أبي أصابعهم الذعر والخوف وهم الذين كانوا عنده يمرضونه ويؤانسونه وكان يقول لهم: أنتم والله أحب إلي من الماء على الظمأ ويقولون: ليت أنا نفديك بالأنفس والأموال والأولاد.

وذكر المؤرخون أيضاً أنهم تراحموا على حفرته، وكان رسول الله - ﷺ - ينظر إليهم، وعند قبره ارتفعت أصواتهم وأصيب أنف داعس وسال الدم منه، وكان يريد أن ينزل إلى قبر ابن أبي ويتولى جانباً من دفنه فنحي، وكان عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - يذّبهم ويقول: اخفضوا أصواتكم عند رسول الله - ﷺ - وبعد دفنه عزى - - ﷺ - ابنه عبدالله الصحابي الجليل وانصرف.

أما المنافقون فقد حثوا عليه التراب وهم يقولون: ياليت أنا فديناك بالأنفس وكنا قبلك، وحثوا على رءوسهم التراب^(١).

(١) فيما يتصل بتجمع خلق كثير في دفن عبدالله بن أبي كما أورده إبراهيم علي سالم في كتابه: (النفاق والمنافقون ص/ ٢٧٤/ .) معتمداً على كتاب امتاع الأسعاع فلم أعره عليه في الكتب التي اطلعت عليها، انظر هامش ص/ ١٣٧/ . . . والله أعلم.

الباب الثاني

الفصل الثاني

في

الإفك : مفهومه ودوافعه وتخطيطه وصلته بالحرب
النفسية المدمرة لأهداف الدعوة



البحث الأول

في مفهوم الإفك

١ - الإفك بمعنى الكذب .

٢ - الإفك بمعنى الصرف .

٣ - الإفك بمعنى القلب .

٤ - الإفك بمعان أخرى .

١ - الإفك بمعنى الكذب :

أفك : كضرب وعلم إفكاً بالكسر والفتح : كذب .

أفك : وأفوكاً : كذب^(١) .

وكذلك ، أفكاً : وقرىء بهنّ قوله تعالى : ﴿وذلك أفكهم﴾ .

قال رؤبة : لا يأخذ التأفيك والتحزي : فينا ولا قول العدا ذو الأز .

الافك : الإثم والكذب والجمع الأفائك .. ورجل أفاك وأفيك وأفوك

كذاب^(٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ .

ويقول صاحب التهذيب :

أفك يأفك ، وأفك يأفك ، إذا كذب : وأفك الناس : كذبتهم وحدثهم

بالباطل ، قال وأفك وأفكته مثل كذب وكذبتهم بالباطل . . . وفي

حديث عائشة - رضي الله عنها - حين قال فيها أهل الإفك ما قالوا . . .

الإفك في الأصل : الكذب وأراد به هاهنا ما كذب عليها مما رميت به

وأفك كعنى والأفيكة بهاء : الكذب كالإفك وجمعه أفائك وأفكه فلان أفكا

(١) القاموس المحيط ٣/٣٠٢ .

(٢) لسان العرب ١٢/٢٧٠ .

جعله يَأفك : أي يكذب .
والأفِيكة : الكذبة العظيمة أو الداهية العظمى .

٢ - الإفك بمعنى الصرف :

الإفك : بالهمزة والفاء والكاف : أصل واحد يدل على قلب الشيء
وصرفه^(١) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَجْتَنَّا لَأْتَأْكُنَّا عَنْ آهْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ . . . قيل :
صرفه بالإفك .
قال عمر بن أذينة :

إن تك عن حسن الصنعة مأفوكا ففي آخريـن قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت في قوم قد صرفوا عن ذلك ، وفي
حديث عرض نفسه على قبائل العرب «لقد أفك قوم كذبوك» .
أي ظاهرُوا عليك : أي صرفوا عن الحق ومنعوا منه ، وفي التنزيل يؤفك
عنه من أفك ، يقول الفراء يصرف عن الإيمان من صرف أفكه عنه يَأفكه
أفكا بالفتح فقط صرفه عن الشيء وقلبه^(٢) ولم يستعمل أفكه الله بمعنى
أضعف عقله ، وإنما أتى أفكه بمعنى صرفه .

٣ - الإفك بمعنى القلب :

المؤتفكات : مدائن قلبت على قوم لوط - عليه السلام - وهي صعبة
وصعدة وعمرة ودوما وسدوم وهي أعظمها^(٣) ، ذكره الطبري وسميت بذلك
لأنقلابها بالخسف ، قال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ وفي حديث سعيد بن
جبير وذكر قصة هلاك قوم لوط قال : فمن أصابته تلك الأفكة أهلكته ،

(١) معجم مقاييس اللغة / ١ / ١١٨ .

(٢) تاج العروس / ٧ / ١٠٢ .

(٣) تاج العروس / ٧ / ١٠٢ .

يريد العذاب الذي أرسله الله عليهم فقلبت بها ديارهم ، والمؤتفكات :
الرياح التي تقلب الأرض وهي التي تختلف مهاجتها ، تقول العرب : إذا
كثرت المؤتفكات . . . زكت الأرض أي زكا زرعها ، قال رؤبة : وجون
خرق بالرياح مؤتفك . . . أي اختلفت عليه الرياح من كل وجه ،
والائتفك عند أهل العربية الانقلاب .

٤ - الإفك بمعانٍ أخري :

وأفكه أفكا : حرمه مراده .
والأفيك : كأمير: العاجز القليل الحزم والحيلة ومنه : مالي أراك عاجزاً
أفيكا وقيل : هو المخدوع عن رأيه .
والائتفك : عند أهل العربية الانقلاب .
ومأفوكه : أرض مأفوكه : هي التي لم يصبها المطر فأمحلت^(١) . . .
قال ابن الأعرابي : ائتفكت تلك الأرض أي احترقت من الجذب
وأنشد :

كأنها وهي تهاوي تهلك شمس بظل ذا بهذا يأتفك
قال ذلك يصف قطاة باطن جناحيها أسود وظاهره أبيض فشبه السواد بالظلمة وشبه
البياض بالشمس .

ورجل مأفوك : لا يصيب خيراً ولا يكون عندما يظن به من خير^(٢) . . .
والأفك : محرقة : مجمع الفك والخطمين . .
ومن المجاز : الأفكة : كفرجة : السنة المجذبة ، وسنون . . .
أوافك : مجذبات^(٣) نقله الزمخشري .

(١) لسان العرب/١٢/٢٧٠/ .

(٢) الصحاح/٤/١٥٥٣/ .

(٣) تاج العروس/٧/١٠٢/ .

هذا عن مفهوم الإفك: وفي الواقع أن معنى الإفك كما جاء في كتب التفسير يتناول المعاني الثلاثة: الكذب والصرف والقلب، فقد جاء في القرطبي^(١) أن الإفك الكذب، وجاء في البيضاوي «إن الذين جاءوا بالإفك» بأبلغ ما يكون من الكذب من الإفك وهو الصرف^(٢). وجاء في فتح القدير للشوكاني: والإفك أسوأ الكذب وأقبحه وهو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه فالإفك هو الحديث المقلوب. ومن هذا يتبين لنا أن الإفك في الآية تضمّن المعاني اللغوية الثلاثة^(٣).

(١) القرطبي/١٣/١٩٨.

(٢) حاشية الشيخ محيي الدين زاده على البيضاوي/٣/٤١٧.

(٣) فتح القدير للشوكاني/٤/١٢، وكذلك الفخر الرازي/١٣/١٧٤.

المبحث الثاني في دوافع الإفك وتخطيطه

فقد أسلفت شيئاً كافياً من مواقف المنافقين من الدعوة الإسلامية وأنهم وقفوا وبكل ما يستطيعون من قوة في وجهها خشية ظهورها وعلوها، ولكنهم - والحمد لله - باءوا بالفشل الذريع في نهاية الأمر وبطل ما كانوا يعملون .

البحث الثالث

في

صلة الإفك بالحرب النفسية المدمرة التي يشعلها المنافقون

إن حادث الإفك وما قبله وما تبعه من افتراءات ظالمة وأقوال جائرة كاذبة موجهة للرسول - ﷺ - بمختلف الطرق وصحبه الكرام كلها من قبيل الحرب النفسية التي يقصد بها التدمير والوقوف في وجه الدعوة الإسلامية .

إن عبدالله بن أبي بن سلول أراد بالإفك على عائشة أن يحقق عدة أهداف من وراء جرمه هذا :

فأولاً : أراد أن يوجه أشد ما يمكن من الطعن في عرض النبي - ﷺ - وأبي بكر الصديق - رضي الله عنه .

وثانياً : أراد أن يضع من المكانة الخلقية للدعوة الإسلامية .

وثالثاً : أنه أشعل في داخل المجتمع الإسلامي جذوة من نار الفتنة جعلت الحيين من الأوس والخزرج يحتكان بينهما شر احتكاك ، لو لم يكن الإسلام قد بدّل طبائع أتباعه وخصالهم^(١) .

إن المنافقين ومن ورائهم أعداء الله اليهود لما أفلسوا في الناحية العسكرية وخابت آمالهم في القضاء على الدعوة الإسلامية واندحر الشرك وانهمزت الوثنية وارتفعت راية الإسلام عالية خفاقة وأصبح الإسلام قوة لا يستهان بها وخافها القاصي والداني من أعداء الإسلام ، أقول إنهم لما أفلسوا فيما تقدم اتجهوا اتجاهاً آخر وساروا مساراً ثانياً حيث أنهم في جميع أعمالهم يتخبطون ويسلكون كل طريق مهما كان نوعه من أجل الوقوف في وجه

(١) تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي / ٢٢ / .

الدعوة الإسلامية وفي هذه المرة سلكوا طريقاً خبيثاً وسيئاً . . . ومما يدل على خستهم ونذالتهم أنهم يريدون أن يهزموا المسلمين في ميدان الأخلاق فيوقعوا في أخلاقهم ويخوضوا في أعراضهم وهي صفة ثابتة في المنافقين في كل وقت وحين تجدهم دائماً وأبداً يقعون في أعراض المسلمين ولا يتورعون عن قذف أحد، ورميه بالزور والإفك والبهتان مهما علا مكانه وارتفعت منزلته، وخاصة القياديين من الإسلاميين وأصحاب الجراءة في قول الحق ومطاردة الباطل ودحض حجج المعاندين والجاحدين وبقدر ما يبذل المسلم في الدعوة والجهاد في سبيل الله توجه له المطاعن والتهم وتلفق ضده الدعايات المغرضة والأقاويل الباطلة . . . إن التاريخ يعيد نفسه، وما أشبه الليلة بالبارحة، وهذا كله واضح ومشاهد لكل فطن لبيب .

إن ميدان الأخلاق ميدان واسع وكبير وينجح فيه المنافقون أكثر من غيرهم لأسباب عديدة مر شيء منها :
فهم أهل الإفك والبغي والعدوان
وقبل ذلك عامل الحسد الذي يستعر في نفوسهم ويشتعل في قلوبهم وترتب على هذا الحسد الكبر والحقد والغطرسة والطغيان وتولد من هذه الأشياء مجتمعة الكفر والعياذ بالله .

إنها مسألة إبليس مع آدم - عليه السلام - ولكل قوم وارث - وهناك أمثلة عديدة وكثيرة أثارها أعداء الإسلام عموماً والمنافقون بوجه خاص ضد الدعوة الإسلامية بقصد التشكيك والإثارة وبلبلة الأفكار، ولا أدل على ذلك ولا أعظم من الفتنة والفرية القبيحة التي أثارها المنافقون عند نكاح النبي - ﷺ - - لزينب بنت جحش - رضي الله عنها - وقد أسلفت أنهم انهزموا في كل معركة دخلوها ضد الرسول - ﷺ - - وصحبه الكرام سواء كانت معركة عسكرية أو كلامية قصد بها الافتراء والتشكيك والتخويف

والارهاب وإكبار شأن الأعداء وتقليل شأن المسلمين ولكنهم في هذه المرة رأوا أن جانب الأخلاق فيه حساسية كبيرة وأنه ميدان واسع وكبير لإفكهم وكذبهم وافتراءهم، وهو ولاشك ميدان خطير، ولهذا نجد القرآن عاجله بعلاج حاسم حكيم لثلاث تكون أعراض المسلمين فريسة وألعوبة للحاقدين والمعرضين والمعاندين .

إن المنافقين في هذه المرة اتجهوا اتجاهاً خبيثاً وماكراً ولكن الله كان لهم بالمرصاد فحق الحق وبطل ما كانوا يعملون، ولكون المنافقين اتجهوا هذا الاتجاه الفاسد الحاقد نجد القرآن رسم طريقاً معيناً للمؤمنين يتم من خلاله صلاحهم الاجتماعي . . . وكما هو واضح من خلال سورة النور . . . ولذا نجد القرآن الكريم اهتم كثيراً بأمر هؤلاء القاذفين الوالغين في أعراض المسلمين واعتبرهم أشد خطراً على الأمة من الزناة وذلك لما يترتب على أفكهم وزورهم من شرور ومفاسد عظيمة، ونجد القرآن الكريم رسم لنا طريق الخلاص منهم وبين لنا الطريقة المثلى في التخلص من بهتانهم . . . إنها أعظم الطرق الوقائية المجدية لثلاث تكون أعراض المسلمين مادة للهو والعبث وذلك بأن يطالب كل مفتر بالدليل على ما يقول وإلا وجب حد في ظهره وأوضحت السورة أنه لا ينبغي أن نأخذهم مأخذ الرحمة والرأفة لأن الرحمة والرفق بهم معناه الظلم الكبير للمجتمع كله إن شخصاً يقع في أعراض المسلمين ويدنس كرامتهم ويحاول أن يشفي غليله بالإفك والزور والبهتان لا ينبغي أن يرحم بل يعامل وفق ما دلت نصوص القرآن عليه، وهذا من أشد وسائل مكافحة الإفك والزور والبهتان، وهذا يعطينا الدليل القاطع أن كرامة المسلم فوق كل كرامة وأن المجتمع الذي يطبق شرع الله ستكون فيه أعراض المسلمين مصونة وكرامتهم موفورة، وليس هناك أي بديل لهدى الله، وهذا شاهد وملموس . . . فلن تصان الأعراض بوسائل الإعلام المختلفة ولا بالمحاضرات والندوات ولا بالبحوث النفسية

والإجتماعية وإن كنا لا ننكر دورها وأهميتها وأنها يجب أن تستغل في هذا
وأمثاله ولكن أقول سيبقى الحل الإسلامي والتشريع الخالد هو المنجي وهو
الشافعي والكافي .

الفصل الثاني

في

تفاصيل حديث الإفك وما جاء في ذلك من روايات
في السنة المطهرة

عرض تاريخي موجز

- هناك اختلافات بين المؤرخين وأهل السير. . . هل وقعت غزوة بني المصطلق سنة أربع أو خمس أو ست من الهجرة خلاف مطول نستعرضه بإيجاز فيما يلي:
- ١ - القائلون بأنها سنة ست، منهم محمد بن إسحاق حيث قال: بعد غزوة ذي قرد فأقام رسول الله - ﷺ - بالمدينة المنورة بعض جمادى الآخرة ورجبا ثم غزا بني المصطلق من خزاعة سنة ست^(١). . . ونحا نحوه خليفة بن خياط وابن جرير الطبري وابن حزم وابن عبد البر وابن العربي وابن الأثير وابن خلدون^(٢) وأنكروا وجود سعد بن معاذ في هذه الغزوة، ووهموا غيرهم من العلماء اعتماداً على أنه استشهد في غزوة بني قريظة حيث وقعت بعد الخندق مباشرة ويرى ابن حزم أن غزوة الخندق وقعت في السنة الرابعة. . . وتابعه طائفة من العلماء^(٣). . . وقد أيد بعض العلماء المحققين هذا الرأي أمثال ابن حزم وابن القيم وأبي الأعلى المودودي وصححوا رواية ابن إسحاق، ورجحوها على رواية ابن سعد لأسباب ليس هذا محل بحث لها^(٤).
- ٢ - القائلون بأنها سنة خمس: منهم موسى بن عقبة، نقله عنه ابن كثير^(٥) وتبعهم

-
- (١) سيرة ابن هشام/٢/٢٨٩/.
- (٢) انظر تاريخ خليفة/٨٠/ والطبري/٢/٦٠٤/ وجوامع السير لابن حزم/٢٠٦/ والدر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر/٢٠٠ - ٢٠٢/، وعارضة الأحوذى لشرح جامع الترمذي لابن العربي/١٢/٤٩/، وابن الأثير/٢/١٩٢/، وابن خلدون/٢/٢٩-٣٣/.
- (٣) ومن هؤلاء العلماء مالك بن أنس والبخاري وابن قتيبة ويعقوب بن سفيان النسوي وابن كثير في البداية والنهاية/٤/٩٣-٩٤/، وفتح الباري/٥/٢٧٨/، و/٧/٣٩٣/، والمعارف لابن قتيبة/٧٠/، وشرح صحيح مسلم للنووي/٤/٥٣٢/، وانظر تاريخ ابن خلدون/٢/٢٩/.
- (٤) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي/٧/، ٨، ٩، ١٠/ والهدي النبوي لابن القيم/٢/١١٥-١١٦/.
- (٥) انظر صحيح البخاري/٥/٩٦/ كتاب المغازي باب غزوة بني المصطلق من خزاعة.

الواقدي وابن سعد وابن قتيبة والبلاذري^(١) والذهبي^(٢) والغزالي^(٣) والبوطي
والدكتور أبو شهبة^(٤) والساعاتي والصابوني^(٥).
٣ - القائلون بأنها سنة أربع منهم المسعودي^(٦) وابن العربي المالكي^(٧) ومحمد أحمد
باشميل ذكرها في حوادث سنة أربع^(٨) وهو مرجوح بما سبق .

ومما سبق ندرك صحة ما ذهب إليه ابن إسحاق ورجحانها على رواية ابن سعد كما
هو رأى بعض المحققين من العلماء كما أشرت إليهم قبلاً من أنها سنة ست وإن كان
في هذا مخالفة لما ورد في الأحاديث الصحيحة حيث يرون أن ورود اسم سعد بن معاذ
وهم أو سبق قلم فإن المشتكى إليه إنما هو أسيد بن حضير كما في سيرة ابن هشام . . .
وقد أشرنا إلى ذلك من قبل . . . والله أعلم .

-
- (١) انظر طبقات ابن سعد/٢/٦٣، والمعارف لابن قتيبة/٧٠، وأنساب الأشراف
للبلادري/٣٤١-٣٤٣.
 - (٢) انظر العبر في خبر من غير/١/٧، وتاريخ الإسلام/٢/٢٧٥.
 - (٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة/١٩٦.
 - (٤) انظر الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد/١٤/١٠٩ وروائع البيان تفسير آيات الأحكام
للصابوني/٢/١١٩.
 - (٥) مروج الذهب/٢/٢٩٥.
 - (٦) عارضة الأحوذى شرح جامع الترمذي/٧/١٧٣.
 - (٨) غزوة الأحزاب/٩٤/باشميل.

حديث الإفك

في صحيح البخاري في باب «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً . إلى قوله الكاذبون» .

قال : حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي - ﷺ - حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوا - وكل حديثي طائفة من الحديث وبعض حديثهم يصدق بعضاً ، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض - الذي حدثني عروة عن عائشة^(١) - رضي الله عنها - أن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي - ﷺ - قالت : «كان رسول الله - ﷺ - إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله - ﷺ - معه» ، قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها^(٢) فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله - ﷺ - بعدما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - ﷺ - من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل ، فقمنا حين آذنوا بالرحيل فمشيت

(١) ليس المراد أن عائشة تروي عن نفسها بل معنى قولها عن عائشة أي عن حديث عائشة في قصة الإفك ثم شرع يحدث عن عائشة فقال : أن عائشة قالت . . .

(٢) في غزوة غزاها : هي غزوة المصطلق صرح بذلك ابن إسحاق من رواية عباد بن عبدالله بن الزبير وعمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة ومن طريق ابن إسحاق أخرجه ابن جرير الطبري ، وعند أبي يعلى من رواية بن كيسان عن الزهري عن عروة وابن المسيب وعلقمة وعبيدالله ولفظه «قالت عائشة» كان رسول الله - ﷺ - إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كانت غزوة بني المصطلق . . . الخ . . .

(انظر سيرة ابن هشام / ٢ / ٢٩٧ ، وتاريخ الطبري / ٢ / ٦١١ / وتفسيره / ١٨ / ٩٣ ، ومسند أبي يعلى / ٤ / ٤٥٠ / وفتح الباري / ٨ / ٤٥٨ / .)

حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزع أظفار^(١) قد انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط^(٢) الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما يأكلن العلقة^(٣) من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأمت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي... فبينما أنا جالسة في

(١) جزع بفتح الجيم وسكون الزاي بعدها مهملة خرز معروف في سواه بياض كالعروق. قال ابن القطاع هو واحد لا جمع له. وقال ابن سيده هو جمع واحد جزعة وهو بالفتح، فأما الجزع بالكسر فهو جانب الوادي.

أظفار بآلف وكذا في رواية فليح. فلعل عقدها كان من الظفر أحد أنواع القسط وهو طيب الرائحة يتبخر به فلعله عمل مثل الخرز فأطلقت عليه جزعا تشبيهاً به. وفي رواية ظفار قال ابن بطال الرواية أظفار بآلف وأهل اللغة لا يعرفونه بآلف ويقولون ظفار فهي مدينة باليمن وقيل جبل. قال ابن قتيبة جزع ظفاري.

(فتح الباري/ج/٨/٤٥٩)، وانظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير/١/٢٦٩، والقاموس المحيط/٣/١٢، وشرح مسلم للنووي/٥/٦٣٠.

(٢) الرهط من الرجال ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه ويجمع على أرهط وأرهاط وأراهط جمع الجمع (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير/٢/٢٨٣). وقال ابن حجر لم أعرف منهم هنا أحداً إلا أن في رواية الواقدي أن أحدهم أبو موهوبة مولى لرسول الله - ﷺ - وعند البلاذري شهد أبو ميهبة غزوة المريسيع وكان يقود بعير عائشة وكان من مولدي مزينة وكان الأصل أبو موهوبة ويصغر فيقال موهبة. (فتح الباري/٨/٤٥٩)، وانظر مغازي الواقدي/٢/٤٢٦، وأنساب الأشراف للبلاذري/٤٨٣).

(٣) العلقة: يضم العين المهملة وسكون اللام ثم قاف: أي القليل... قال القرطبي: كأن المراد الشيء القليل الذي يسكن الرمق. (فتح الباري/٤٦٠).

منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الزكواني^(١) من وراء الجيش^(٢)، فأولج، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأي، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه^(٣) حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبائي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطيء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك^(٤)، وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله - ﷺ - اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى إنما يدخل علي رسول الله - ﷺ - فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟... ثم ينصرف، فذاك الذي يريني ولا أشعر بالشر، حتى

(١) الذكواني: نسبة إلى ذكوان بن ثعلبة بن هبة بن سليم، وذكوان بطن من بني سليم... (فتح الباري/٨/٤٦١/.)

(٢) وقع في حديث ابن عمر بيان سبب تأخر صفوان ولفظه: سأل النبي - ﷺ - أن يجعله على الساقة فكان إذا رحل الناس قام يصلي ثم اتبعهم، فمن سقط له شيء أتاه به... وفي حديث أبي هريرة: وكان صفوان يتخلف عن الناس فيصيب القدح والحراب والأداة... وفي مرسل مقاتل بن حبان فيحمله فيقدم به فيعرفه في أصحابه. (فتح الباري/٨/٤٦٠/، /٤٦١/.)

(٣) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون، وصرح بها ابن إسحاق في روايته وكأنه شق عليه ما جرى لعائشة أو خشي أن يقع ما وقع أو أنه اكتفى بالاسترجاع رافعاً به صوته عن مخاطبتها بكلام آخر صيانة لها عن المخاطبة في الجملة. (فتح الباري/٤٦٣/.)

(٤) فهلك من هلك: زاد صالح في روايته: في شأني، وفي رواية أبي أويس فهناك قال في وفيه أهل الإفك ما قالوا، فأهمت القائل وما قال وأشارت بذلك إلى الذين تكلموا بالإفك وخاضوا في ذلك، وأما أسأؤهم فالمشهور من الروايات الصحيحة: عبدالله بن أبي ومسطح بن أثانة وحسان بن ثابت، وحنة بنت جحش... (فتح الباري/٨/٤٦٥/.)

خرجت بعدما نقهت^(١) فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع^(٢)، وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف^(٣) قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح^(٤) - وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة^(٥) - فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها^(٦)، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بشس

(١) نقه المريض من باب طرب وخضع إذا برأ وأفاق وكان قريب العهد بالمرض ولم يرجع إليه كمال صحته وقوته. . (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير/٥/١١/، والقاموس المحيط/٤/٢٩٤/٠). وعند ابن إسحاق حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة. . (سيرة ابن هشام/٢/٢٩٩/٠).

(٢) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة واحدها منصع كمقعد. (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير/٥/٦٥/، والقاموس المحيط/٢/٨٩/٠).

قال في فتح الباري/١/٢٤٩: المناصع أماكن معروفة من ناحية البقيع. . . (القاموس المحيط/٣/١٩٢/٠).

(٣) الكنف جمع كنيف: المكان الساتر وأرادت به هنا المكان المعد لقضاء الحاجة. . . (القاموس المحيط/٣/١٩٢/٠).

(٤) قال ابن عبد البر اسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم وهي ابنة خالة أبي بكر الصديق وقيل أم مسطح اسمها ربيعة بنت صخر بن عامر بن سعد بن تيم، قال ابن حجر: رائطة: (انظر فتح الباري/٨/٤٦٥/، والاستيعاب على هامش الاصابة/٣/٤٩٤/، وطبقات ابن سعد/٨/٢٢٨/، و/٣/٥٣، ١٦٩، وأسد الغابة لابن الأثير/٤/٣٠٨/، و/٥/١٥٦/٠).

(٥) هذا لقب واسمه عوف ويكنى بأبي عباد أو عبدالله توفي عام ٣٤ في خلافة عثمان وقيل عاش إلى خلافة علي وشهد معه صفين ومات سنة ٣٧ هـ. . . (انظر الاصابة/٣/٤٠٨/، وفتح الباري/٨/٤٦٥/، وأسد الغابة/٤/٣٠٨/، والاستيعاب/٣/٣٩٤/).

(٦) المرط بكسر الميم واحد المروط وهي أكسية من صوف أو خز كان يؤتزر بها. . . (مختار الصحاح/٤١٢، ٦٢٥/٠).

ما قلت ، أتسببن رجلاً شهيداً بدراناً؟ قالت : أي هنتاه^(١) ، أو لم تسمعي ما قال؟ قالت قلت : وما قال : فأخبرتني بقول أهل الإفك^(٢) ، فازددت مرضاً على مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله - ﷺ - تعني سلم ثم قال : كيف تيكم؟ فقلت أتأذن لي أن آتي أبوي - قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما - قالت فأذن لي رسول الله - ﷺ - فجئت أبوي فقلت لأمي : يا أمّته ما يتحدث الناس؟ قال : يا بنية هوني عليك ، فوالله لقلماً كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قالت فقلت : سبحان الله ، أو لقد تحدّث الناس بهذا؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي فدعا رسول الله - ﷺ - علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد - رضي الله عنهما - حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار علي رسول الله - ﷺ - بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال : يارسول الله ، أهلك ، وما نعلم إلا خيراً ، وأما علي بن أبي طالب فقال : يارسول الله ، لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك ، قالت : فدعا رسول الله - ﷺ - بريرة^(٣) ،

(١) هنتاه : بفتح النون وسكونها وضم الهاء الآخرة وتسكن معناها يابلهاء كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكاييد الناس وشروورهم .

(النهاية في غريب الحديث لابن الأثير/٥/٢٧٠ - ٢٨٠ / .)

(٢) قال ابن حجر: طرق حديث الإفك مجتمعة على أن عائشة بلغها الخبر من أم مسطح لكن وقع عند البخاري في المغازي من حديث أم رومان ما يخالف هذا ونسب إلى امرأة من الأنصار... (انظر البخاري كتاب الأنبياء/٤/١٢٠ / وكتاب المغازي/٥/١٠٠ /). قال ابن حجر لم أقف على اسم هذه المرأة الأنصارية ولا على اسم والدها... (انظر فتح الباري/٨/٤٦٧ / .)

(٣) حقق ابن القيم - رحمه الله - أن الجارية التي سئلت لم تكن بريرة لأن بريرة إنما كتبت وعثقت بعد هذا بمدة طويلة ، إنها قال علي فسل الجارية فظن بعض الرواة أنها بريرة فسماها... (زاد المعاد/٢/١١٦ / .)

فقال: «أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن^(١) فتأكله.

فقال رسول الله - ﷺ - فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال رسول الله - ﷺ - وهو على المنبر: «يامعشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري^(٢) فقال: يارسول الله، أنا أعذك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك... قالت: فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين... فتساور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن

= وهو رأي للبدر الزركشي فيما استدرسته عائشة على الصحابة، حيث ذكر ثلاثة أوهم تتعلق بحديث الإفك وهم في ذكر بريرة ووهم في ذكر سعد بن معاذ ووهم في سماع مسروق من أم رومان أم عائشة - رضي الله عنها - وقد حكا عنه ابن حجر في فتح الباري / ٤٦٩ / ٨، وهذه الأشياء ثابتة في أصح الصحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة وما ذهب إليه المحققون وجيه ومقبول، والله أعلم.

(١) الداجن بدال مهملة ثم جيم: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى وقيل: هي كل ما يألف البيوت مطلقاً شاة أو طيراً، وما يفسر أن المراد بالداجن الشاة ما جاء في رواية مقسم: ما رأيت منها مذكنت عندها إلا أني عجنت عجيناً لي فقلت احفظي هذه العجينة حتى اقتبس ناراً لأخبزها ففعلت: فجاءت الشاة فأكلتها. (فتح الباري / ٤٧١ / ٨).

(٢) وفي رواية ابن إسحاق: أن سعد بن معاذ قد توفي بعد غزوة بني قريظة قبل حديث الإفك وأن الذي قال ما قيل هو أسيد بن حضير وكذلك قال ابن حزم فالله أعلم... (زاد المعاد / ١١٥ / ٢).

يقتتلوا ورسول الله - ﷺ - قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله - ﷺ - يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار^(١) فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله - ﷺ - فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً^(٢) لا يوحى إليه في شأني قالت: فتشهد رسول الله - ﷺ - حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله - ﷺ - فيما قال . . . قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله - ﷺ - قالت: فقلت لأمي: أجيبي رسول الله - ﷺ - قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله - ﷺ - قالت: فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن -: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقني والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف، قال ﴿فصبر جميل، والله

(١) قال ابن حجر: لم أقف على اسمها. (فتح الباري/٨/٤٧٤).

(٢) ويرى ابن حزم أن المدة كانت خمسين يوماً أو أكثر.

قال ابن حجر: ويجمع بأنها المدة التي كانت بين قدومه المدينة ونزول القرآن في قصة الإفك، وأما التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها حين بلغها الخبر. . . (فتح الباري/٨/٤٧٥).

المستعان على ما تصفون»^(١) قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي .
 قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي براءتي، ولكن والله ما كنت
 أظن أن الله منزل في شأني وحيأ يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن
 يتكلم الله في أمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - ﷺ - في النوم
 رؤيا يبرئني الله بها . . . قالت: فوالله مارام^(٢) رسول الله - ﷺ - ولا خرج
 أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء^(٣)
 حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان^(٤) من العرق وهو في يوم شات من ثقل
 القول الذي ينزل عليه . . . قالت: فلما سرى^(٥) عن رسول الله - ﷺ -
 سرى عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة: أما الله
 عز وجل فقد برأك، فقالت أمي: قومي إليه، قالت فقلت: والله لا أقوم
 إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل، وأنزل الله ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة
 منكم لا تحسبوه...﴾ العشر الآيات كلها . . . فلما أنزل الله في براءتي قال
 أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربته
 منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما
 قال، فأنزل الله ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى
 والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم
 والله غفور رحيم﴾ قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع

-
- (١) جزء من آية ١٨ من سورة يوسف ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم
 أمراً فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾
 (٢) أي ما برح وما فارق مجلسه، يقال، رام يريم إذا برح وزال من مكانه وأكثر ما يستعمل في
 النفي . . . (النهاية في غريب الحديث لابن الأثيرج/٢/٢٩٠/.)
 (٣) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي . . . المصدر السابق/١/١١٣/
 (٤) الجمان: هو اللؤلؤ الصفار، وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ . . . المصدر
 السابق/١/٣٠١/
 (٥) سرى: انكشف عنه ما يجده من الهم والثقل . . . (مختار الصحاح/٣٩٧/.)

إلى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله - ﷺ - يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يارسول الله أحمي سمعي^(١) وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني^(٢) من أزواج رسول الله - ﷺ - فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك^(٣).

وأورد البخاري الحديث بإسناد آخر في باب «حديث الإفك» إذ قال: «حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب^(٤)... الخ...»

قال: وحدثنا فليح عن هشام بن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - وعبدالله بن الزبير مثله قال: وحدثنا فليح عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن ويحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد بن أبي بكر مثله، وهذا الحديث أخرجه الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - في مواضع منها/٤٣٦/٨، /١٠/٦٨، /١٠٦، /١٤/٣٧٣ مختصراً، /١٧/٣٢ مختصراً أيضاً، ورواه أيضاً الإمام مسلم/١٧/١٠٢، والترمذي/٤/١٥٥، وعبدالرزاق في المصنف/١٥/٤١٠، والإمام

(١) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعها من أن أنسب إليهما ما لم يدركا من العذاب لو كذبت عليهما... .

(النهاية في غريب الحديث لابن الأثير/١/٤٤٨/.)

(٢) أي تعاليني وتفاخرنني وهو مفاعلة من السمو أي تطاولني عنه - ﷺ - (المصدر السابق/٢/٤٠٥/.)

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري المجلد الثامن - طباعة دار المعرفة - بيروت - /٤٥٢ - /٤٥٥.

(٤) فتح الباري في شرح صحيح البخاري / المجلد السابع / ٤٣١ - ٤٣٥ /.

أحمد / ٥٩ / ٦ / ١٠٣ / مختصراً، وابن جرير / ١٨ / ٩٠ / ، في التاريخ / ٦٧ / ٣ / ، وابن إسحاق كما في السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٦٧ / (١) .

وقد أورده جلال الدين السيوطي بلفظ قريب مما تقدم وقال : أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة وساق الحديث وقال في آخر الحديث وفي الباب عن ابن عباس وابن عمر عند الطبراني وأبي هريرة عند البزار وأبي اليسر عند ابن مردويه وقال جلال الدين السيوطي في كتابه لباب النقول في أسباب النزول بعد ذكر رواية الشيخين المشار إليها، وأخرج الطبراني عن حصيف قال : قلت لسعيد بن جبير أي أشد الزنا أو القذف؟ قال : الزنا، قلت : إن الله يقول : ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ قال : إنما أنزل هذا في شأن عائشة خاصة، وقال في إسناده يحيى الحماني ضعيف . . . وقال : وأخرج عن الضحاك بن مزاحم قال : نزلت هذه الآية في نساء النبي - ﷺ - خاصة إن الذين يرمون المحصنات الغافلات . . الآية . وقال أيضاً : وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في عائشة خاصة .

وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك فبينما رسول الله - ﷺ - عندي إذ أوحى الله ثم استوى جالساً فمسح وجهه وقال : يا عائشة أبشري فقلت بحمد الله لا بحمدك فقراً ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات حتى بلغ أولئك مبرءون مما يقولون﴾ .

وأخرج الطبراني بسند رجاله ثقات عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿الخبيثات للخبِيثين﴾ الآية . . قال : نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية فبرأها الله من ذلك ، وقال أيضاً : وأخرج الطبراني بسندين

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول مقبل بن هادي الوادعي بالإضافة إلى الكتب الموضحة أعلاه .

فيهما ضعف عن ابن عباس قال : نزلت الخبيثات للخبيثين - الآية - للذين قالوا في زوج الرسول - ﷺ - ما قالوا من البهتان . . . وقال : وأخرج الطبراني عن الحكم بن عتيبة قال : لما خاض الناس في أمر عائشة أرسل رسول الله - ﷺ - إلى عائشة فقال : يا عائشة ما يقول الناس . . . ؟ فقالت : لا أعتذر بشيء حتى ينزل عذري من السماء فأنزل الله فيها خمس عشرة آية من سورة النور ثم قرأ حتى بلغ الخبيثات للخبيثين . . . الآية . . . وقال مرسل : . صحيح الإسناد^(١) .

(١) لباب النقول في أسباب النزول - جلال الدين السيوطي / ١٥٤ - ١٥٥ / ١٥٦ - ١٥٧ -
./ ١٥٨

الفصل الثالث

في

موقف الرسول ﷺ وكبار الصحابة

من حديث الإفك

وفيه مباحث

المبحث الأول

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم

أسلفت قبلاً شيئاً من أعمال المنافقين وكيدهم وحقدهم على الإسلام وأنهم الداء العضال في جسم الأمة الإسلامية وبينت كيف أنهم يسلكون مختلف الطرق وشتى السبل للنيل من الإسلام وتشويه حقائق الدين وأنهم منذ وطىء الرسول - ﷺ - المدينة ما فتئوا بزعامة شيخهم ابن أبي ومن ورائهم أعداء الله اليهود يرجفون ويخوفون ويطلقون مختلف الشائعات والأقاويل في السفر والحضر وكان موقف الرسول - ﷺ - وكبار الصحابة ومنهم أبو بكر الصديق بتعليم وتوجيه من صاحب الخلق القويم الصبر والتحمل وعدم الضجر لأنه - صلوات الله وسلامه عليه - واثق بمعبوده مطمئن إلى صدق وعده وتأيده له وأن الله معه يرعاه ويكلؤه ويتولى أمره وهو - صلوات الله وسلامه عليه - صابر ومحتسب ويتحمل الأذى ويقبل صنوف التحدي في ذات الله - تعالى - فهو رحيم وحكيم وناصح لأمته يحب الخير لهم يطمع في هدايتهم وإنابتهم فهو غيث ورحمة من الله - تعالى - لخلقه - وما حديث الإفك مع ما فيه من قسوة وصعوبة إلا حلقة واحدة من عدة حلقات متتالية سبكها ونظمها أعداء الله من اليهود والمنافقين .

وحديث الإفك هذا فيه امتحان وابتلاء من الله - تعالى - لنبيه ورسوله محمد - ﷺ - امتحن في زوجته وأحب الناس إليه . . . امتحن في زوجته الحبيبة العفيفة الطاهرة بنت أبي بكر الصديق رفيق الرسول - ﷺ - في الغار وفي هجرته إلى المدينة وأفضل هذه الأمة بعد نبيها - ﷺ - فهو الصابر المحتسب على البلاء الذي صب عليه زوراً وبهتاناً .

وإذا كان الرسول - ﷺ - الذي اختاره ربه واصطفاه وأكرمه وأعلى مكانه يرمى في زوجته ويرمى في فراشه النظيف الطاهر ويتحدث الناس بذلك شهراً كاملاً فلا يملك سوى الاعتماد على الله والتوكل عليه والإنابة إليه وحده دون سواه . . . إنه امتحان صعب لقلب النبي الرحيم وبلاء كبير ولكنه - صلوات الله وسلامه عليه - تجلد وصبر رغم ما كان يعانيه من الآلام النفسية طيلة تلك المدة^(١) .

(١) انظر الواقدي / ٢ / ٤٣٠ / وما بعدها، السيرة النبوية لابن هشام / ٣ / ١٨٧ - ١٩٦ . /

المبحث الثاني

في

موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه

أما أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - والذي صب عليه البلاء صباً فهو الصابر المحتسب الحيي الوقور ذو الأخلاق العالية والشمائل النادرة والنفس الطيبة والحس المرهف والذي أدمى الألم فؤاده وعصر قلبه عصراً... إنها تجربة قاسية... وإنه لظرف حرج ذلك الظرف الذي أحاط بأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - طيلة تلك المدة... إنه في وقاره وصبره وتحمله - رضي الله عنه - يتمثل نموذجاً فريداً من الرجال... إنه تحمل كثيراً وصبر أكثر... ولكن الله أعانه حتى مرت المحنة بسلام وحق الحق وبطل الباطل... إن المرارة والحزن ليحسّان من كلامه - رضي الله عنه - حيث يقول بعد صبر وتجلد «والله ما رمينا بهذا في الجاهلية أفزمني به في الإسلام»... إنها كلمات مؤثرة تنبع من نفس شريفة نظيفة عفيفة امتلأت بحب الله ورسوله وآثرت الإسلام على كل شيء في الوجود، ومن الناس من لا يعرف أبا بكر الصديق رضي الله عنه^(١).

(١) المغازي للواقدي ٢/٤٣٢.

البحث الثالث

موقف السيدة عائشة رضي الله عنها

أمّا عائشة الصديقة بنت الصديق النظيفة العفيفة فقد رميت في طهارتها وعفتها وأمانتها وإيمانها، لقد ألصق بها أعداء الإسلام ما هي منه براء، ولذلك لا تجد من يبرئها تماماً رميت به وتحار في ألم قاتل وهموم مميتة فقد طعنت في أعلى ما تملك . . . طعنت في شرفها ومكانتها لدى رسول الله - ﷺ - وتبقى في هذه المحنة العظيمة شهراً كاملاً حتى يكاد يقتلها الأسي والألم، ولذا قالت ثم التمس اسم يعقوب فلم أجده فقلت^(١): لا أجدي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ . . . قالت: «والله ما يحضرنى ذكر يعقوب وما اهتدى^(٢) من الغيظ الذي أنا فيه» .

إنه امتحان عظيم وبلاء كبير يقع على أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وهي الشريفة العفيفة حبيبة رسول الله - ﷺ - بنت أبي بكر الصديق، إنها شريفة كريمة فاضلة، زوجة أفضل خلق الله محمد - ﷺ - الذي لا يمكن أن يدنس فراشه ويخدش في كرامته، فقد كرمه ربه وحماه واختار له أفضل الزوجات وأكرمهن .

وعائشة - رضي الله عنها - موضع حديثنا هذا - هي من العفاف والطهر والنزاهة والكرم والأصالة بمكان فكيف يمكن أن توجه لها التهمة أو يظن بها السوء . . . إنه البغي والحقد والضعينة . . . إنه الإفك الميين والافتراء الآثم^(٣) .

(١) الكامل في التاريخ / ٢ / ١٣٥ .

(٢) المغازي / ٢ / ٤٣٣ .

(٣) انظر زاد المعاد / ٢ / ١١٥ ، والسيرة النبوية لابن هشام / ٣ / ١٩٠ .

هذا والصديقة بنت الصديق موقنة ببراءتها عزيزة النفس مليئة بالثقة والاعتزاز، شأن الأبرياء الذين لا ترقى إليهم شبهة ولا تلتصق بهم لوثة تعلم أن الله سيربئها ويبعد كل ظنة وتهمة عن ساحة رسول الله - ﷺ - ولكنها لم تكن تظن أن الله منزل في شأنها وحيأ يتلى ويجعله كلمة باقية في أعقاب هذه الأمة ولكنها لم تلبث طويلاً أن أنزل الله على رسوله في شأنها القرآن وأنزل براءتها من فوق سبع سموات فقال: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم﴾^(١) الآية . . . وبذلك انطفأت نار الفتنة وانحسمت مادة الفساد وخزى الشيطان وكأن لم يكن شيء فتشاغل المسلمون بما أمرهم الله به ورسوله، وبما يعود عليهم وعلى الإنسانية بالخير والسعادة^(٢).

إن إشاعة الفاحشة وقول السوء والبهتان ليست من الأمور السهلة بالنسبة للشخص العادي فكيف الحال إذا وجهت مثل هذه الأشياء إلى معدن العفاف وأصل الطهر وموئل الكرامة والشهامة والنبل والخلق والدين . . . إنها تجربة قاسية وامتحان وابتلاء من الله لعباده المؤمنين الصادقين.

لقد كانت - رضي الله عنها - تبيت تلك الليالي الطوال مدة شهر كامل لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم، وما زالت تبكي حتى ظنت - كما عبرت عن ذلك - هي أن البكاء سيصدع كبدها ويفطرها، لقد كان - ﷺ - يأتي أحياناً بيت أبي بكر الصديق كعادته فيجد حبيبته مقرحة الأجفان تبكي طويلاً وقد أنهكها الحزن وطول البكاء فتتأثر زائراتها بذلك من نساء

(١) سورة النور، الآية (١١).

(٢) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي/٢٢٧/، وانظر الكامل في التاريخ ١٣٢/٢/، والواقدي/٤٢٦/٢/، والسيرة النبوية لابن هشام/١٨٧/٣/، وتفسير الطبري/٧٥/٩/.

المهاجرين والأنصار ويبكين لبكائها^(١) الكل منهنّ إلا ما ندر، تعرف جلالها ومكانتها السامية في بيت النبوة وفي بيت أبي بكر، كما أنها هي أيضاً - وكما أسلفت - من الطهر والعفاف بمكان، أما أبواها الشفوقان الحنونان، وخاصة أبا بكر الصديق، المعروف سلفاً بحنانه ولطفه وعطفه مع الناس كلهم - وخاصة أولاده - فهو رحيم رقيق . . . وإذا كانت هذه هي صفة الناس جميعاً مع أولادهم بدافع الأبوة فإن الصديق - رضي الله عنه - فاق غيره كثيراً بهذه الصفة ومعروف بره بوالديه وعطفه التام على أولاده . . . أقول - وكما أسلفت - أن رجلاً هذه صفته سيتقطع قلبه من الأسى والحزن . . . إن المصيبة بالنسبة إليه عظيمة . . . وإن الخطب لجلل، ولكن ماذا يفعل؟ ما هي الحيلة؟

وأبو بكر الصديق . . . ذلك الرجل الفذ لم يتمالك ولم يستطع أن يضع حداً لعاطفته الرحيمة الرقيقة لما رأى ابنته المظلومة المجني عليها ظلماً وعدواناً . . . لما رآها تبكي انهمرت دموعه من عيونه وجلس يبكي مع ابنته . . . إنه بيت طاهر حقاً، وقد ظلم ظلماً واضحاً وافترى عليه في أعز ما يعتز به عربي مسلم في عرضه ودينه وأخلاقه ومروءته . . . أبو بكر يبكي . . . ماذا يفعل . . . لا يستطيع أكثر من مشاركة ابنته في آلامها وأحزانها، وفاضت عيناه . . . إنه رجل وقور صمت منتظراً الفرج كحال عائشة التي فوضت أمرها لله عز وجل واستسلمت لقضائه وقدره صابرة، ومحتسبة لكامل علمها ببراءتها ونزاهتها وبعدها عن مواطن الرذيلة إنها الثقة الكاملة بالنفس وهي لا تكون إلا للمؤمنين الصادقين، فالمؤمن دائماً وأبداً واثق من نفسه وواثق من ربه - عز وجل - وفي هذا - أي حديث الإفك - درس بليغ للمؤمنين الصادقين عندما يواجهون الباطل، وعندما توجه لهم

(١) الكامل في التاريخ /١٣٤/، وتاريخ الطبري /٢/٦١٥/، والسيرة النبوية لابن هشام /٣/١٩١/.

التهم الباطلة والأقاويل الحاقدة .

وسنعرض له - فيما بعد - إن شاء الله . . .

وهي - كما قالت عن نفسها واثقة من معبودها وأنه سيبرئها ولكنها رأت أنه لن ينزل بشأنها قرآن يتلى ولكنه - جلت قدرته - أنزل فيها القرآن وبرأها ونزهها وحماها وصارت قصتها الملفقة الكاذبة تشريعاً خالداً وتأديباً وتأنيباً لكل من تسول له نفسه الطعن في أعراض المسلمين أو النيل من كرامتهم . . . فالمؤمن عزيز وكريم عند الله تعالى ولا يجوز أن توجه قالة السوء وكلام البهت والإثم إلى المؤمنين ، فهم أعز وأرفع وأعلى وأمكن .

هذا عن مواقف كل من رسول الله - ﷺ - وأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وهي التي عانت من الألم والأسى ما عانت إلا أن الله تعالى جعل لها في النهاية فرجاً ومخرجاً .

البحث الرابع

في

موقف كبار الصحابة رضي الله عنهم

إن مجيء عائشة ولحوقها بالركب في وضوح النهار وبمنتهى البراءة ليعطي دليلاً واضحاً وأكيداً على براءتها وعفتها وحسن وسلامة قصدها، ولو كان للأفاكين أدنى عقول لعلموا أنها لو أمت - لا سمح الله - بأدنى مخالفة لتوارت عن الأنظار ولجاءت متنكرة أو سلكت طريقاً مغايراً... المهم أن مجيئها بهذه الصورة العلنية الظاهرة يعطي دليلاً واضحاً على نزاهتها وعفتها لكنهم - وكما أسلفت - أعماهم الهوى والحقد فوقعوا في المنكر والبهتان وقول الزور وهم - وكما أسلفت - لما أحسوا أن الهودج خال من صاحبتة بدءوا - وبدون تفكير ولا روية - بإطلاق الشائعات وبث التهم والأراجيف قاصدين تلويث بيت النبوة ومعدن الأصالة، وأنى لهم ذلك فهو أعلى وأرفع من أفكهم وزورهم وضلالهم وبهتانهم... ولقد أحدث المنافقون رجة وبلبلة في الأفكار وهي - كما قالت - لا تعلم شيئاً وقد مرضت بعد وصولها إلى المدينة، وبلغها الخبر وهي في مرضها لم تشف منه بعد، فزاد مرضها أمراضاً نفسية وجسمية... ويقال أن الذين تحدثوا بالإفك وتكلموا به هم: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمه بنت جحش وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول زعيم الخزرج في المدينة الذي كان يجمعهم في بيته ويحدثهم بالإفك^(١)، وكان عدو الله يحدث الناس بذلك كثيراً، ويحاول

(١) المسند/٦/١٩٧-١٩٨، والبخاري/٣/١٠٥، ابن جرير الطبري... انظر خبر الإفك في السيرة النبوية لابن هشام/٣/١٨٧، وحديث الإفك تاريخ الطبري/٢/٦١٠، وذكر عائشة - رضي الله عنها - وأصحاب الإفك في المغازي للواقدي/٢/٤٢٦، حديث الإفك في الكامل لابن الأثير/٢/١٣٢.

التستر والاختفاء جرياً على عادته . . . أما أكابر الصحابة وأغلب سكان المدينة من المهاجرين والأنصار فإنهم على النقيض من ذلك وعلى عكس ما يروجه الأفاكون من المنافقين فإنهم لا يخالطهم شك أو ريب، إنَّ ما قيل بشأن عائشة - رضي الله عنها - ما هو إلا محض افتراء وهي أسمى من ذلك وأرفع، وهذا واضح من الشواهد التي سنوردها فيما بعد إن شاء الله .

ولقد جاء في آخر حديث عائشة السالف ذكره قالت: «فدعا رسول الله ﷺ - علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد - رضي الله عنهما - حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله .

١ - موقف أسامة رضي الله عنه :

قالت: أي عائشة رضي الله عنها - فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم فقال أسامة: «هم أهلك يارسول الله ولا نعلم والله إلا خيراً»^(١).

أما أسامة بن زيد - رضي الله عنه - فلمعرفته التامة بعائشة وأنها شريفة نظيفة لا يرقى إليها تلبس أو عيب فهي من الطهارة والعفة بمكان، ويدرك تماماً محبة الرسول ﷺ - لها وشغفه بها وصعوبة فراقها فيشير بما يعلمه عنها من طهارة ونظافة وبر وعفاف وإن ما نسب إليها محض افتراء ودجل وإفك مبين لاسيما وأن المروج لها والداعي إليها ومثيرها معروف بكذبه وإفكه وافتراءه وبغضه للإسلام وأهله، وأنه عدو لدود لصاحب الرسالة ﷺ - .

(١) جاء في السيرة النبوية لابن هشام/٣/١٩٠ / «فأما أسامة فأتى علي خيراً ثم قال: يارسول الله: أهلك ولا نعلم منهم إلا خيراً» وهذا الكذب والباطل . . . وفي المغازي للوافدي/٢/٤٣٠ / قال أسامة: يارسول الله: هذا الباطل والكذب ولا نعلم إلا خيراً وأن بريرة تصدق . . . وفي الكامل لابن الأثير/٥/١٣٤ / فأما أسامة فأتى خيراً . . . وفي تاريخ الطبري/٥/٦١٥ / ، فأما أسامة فأتى خيراً وقاله (أو قال خيراً) ثم قال: يارسول الله أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل .

إن أسامة بن زيد حبّ رسول الله - ﷺ - يشير على الرسول - ﷺ - بما يعلمه من طهارة ونظافة عائشة - رضي الله عنها - ولذا فإن الرسول - ﷺ - بعد استشارته لمن أسلفت، وحديث الجارية معه استطاع أن يواجه القوم في المسجد بما يعرفه عن عائشة من نظافة وطهارة وأنها بعيدة كل البعد عن كل عيب أو سوء.

٢ - موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أمّا علي بن أبي طالب فقال: يارسول الله: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تحبرك... قالت: فدعا رسول الله - ﷺ - بريرة فقال لها «أي بريرة^(١) هل رأيت فيها شيئاً يريبك» فقالت: لا والذي بعثك بالحق نبياً إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنّها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله^(٢)... ولا يفهم من كلام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أي شيء يشير إلى ارتيابه بشأنها - حاشاه عن ذلك - أو أنه فرح بمصيبتها ومحتها تلك تحمله غيرة وعدم محبته لعائشة كما يحلو للبعض أن يقول ذلك ويدخلون أنفسهم في بحوث عقيمة ساقطة لا أصل لها، فهو - رضي الله عنه - أرفع وأسمى مما يتصورون، ولا يجوز للكاتب المنصف وخاصة المسلم أن يطلق قلمه ولسانه ويخوض فيما جرى بين الصحابة بغير برهان... والغريب في أمر بعض الكتاب المسلمين أنه عندما يبحث في موضوع ما لا يفرق بين أن يكون هذا الموضوع تاريخياً عاماً

(١) انظر زاد المعاد/٢/١١٦/ تحقيق ابن القيم رحمه الله.

(٢) في السيرة النبوية لابن هشام/٣/١٩١/: «وأما علي فإنه قال: يارسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستحلف وسل الجارية فإنها ستصدقك فدعا رسول الله - ﷺ - بريرة ليسألها قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب فضرها ضرباً شديداً ويقول: اصدقني رسول الله - ﷺ - قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أنّي كنت أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله. (والكامل/٢/١٣٤/).

يتناول أفراد الناس أو يبحث في تاريخ الصحابة ومواقفهم فلا يتأدب معهم ولا يلتزم بمذهب أهل السنة والجماعة في ترك الخوض فيما جرى بينهم ومحاول أن يتمحّل ليأتي بجديد يذكر به، وإن كان من بنات أفكاره وتصوره هو بغير مستند صحيح فعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مثلاً لم يقصد ولن يقصد الإساءة إليها أو التفريق بينها وبين الرسول - ﷺ - وإنما يحمل كلامه على زيادة الاطمئنان إلى براءتها، وليخفف عن رسول الله - ﷺ - وقع المصائب الآثم الذي وجّه بالدرجة الأولى إليه وإلى فراشه الطاهر وزوجته الحبيبة القريبة إلى قلبه، أقول: إن كلام علي - رضي الله عنه - في محله وليس عليه فيه مأخذ لأنه كان يشير على الرسول - ﷺ - بالثبوت من الجارية، فعلي رأى أن ما قيل مشكوك فيه أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين ليتخلص رسول الله - ﷺ - من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس فأشار بحسم الداء^(١).

٣ - موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

هذا، وأن شهادة الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لها بالطهر والعفاف هي خير دليل على الشعور السائد بين الصحابة الكرام، وأن الإفك محض افتراء، وأن فراش الرسول - ﷺ - طاهر مطهر ولا يمكن أن يمسّه نقص أو عيب، فالله - تعالى - طهره وحماه، وعمل مثل هذا لا يليق بمقام النبوة وشرف الرسالة كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً.

ولقد ورد في بعض كتب السير أن الرسول - ﷺ - لما استشار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في الأمر قال له: من زوجها لك يارسول الله؟

(١) زاد المعاد/٢/١١٣/.

قال: الله تعالى... قال: أفتظن أن الله قد دلّس عليك فيها، سبحانه
هذا بهتان عظيم^(١)...

إنه موقف جريء وشجاع وعادل وصادق من الفاروق عمر، وهو
المعروف بصراحته وقوته، صاحب المواقف المعروفة الخالدة، وهو أول من
أشار على الرسول - ﷺ - بالحجاب.

٤ - موقف السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها :

ولقد قالت عائشة - رضي الله عنها - وكان رسول الله - ﷺ - قد سأل
زينب بنت جحش عن أمري فقال: يا زينب ما علمت ما رأيت؟ فقالت:
يا رسول الله: أحمي سمعي وبصري والله ما علمت عليها إلا خيراً، وهي
التي كانت تساميني من أزواج النبي - ﷺ - فعصمها الله - تعالى - بالورع،
قالت فطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب
الإفك.

قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط... أخرجه
الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما رحمهما الله تعالى^(٢).

٥ - موقف أبي أيوب وزوجته :

وقد ورد في تاريخ الطبري: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن
محمد بن إسحاق عن أبيه عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد

(١) ويروى أنه قال لرسول الله - ﷺ - أنا قاطع بكذب المنافقين لأن الله عصمك من وقوع الذباب
على جلدك لأنه يقع على النجاسات فيتلطخ بها، فلما عصمك من ذلك القدر فكيف لا
يعصمك من صحبة من تكون متلطخة بمثل هذه الفاحشة.

(مدارك التنزيل بهامش الخازن/٣/٣٢٢، والسيرة الحلبية/٣٢٨/).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام/٢/١٩٠، والواقدي/٢/٤٣٠/.

بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقوله الناس في عائشة؟ . . . قال بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . . . قال : فعائشة والله خير منك . . . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . . .﴾ الخ الآية .

وذلك حسان بن ثابت في أصحابه الذين قالوا ما قالوا ثم قال عز وجل : ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا . . .﴾ أي كما قال أبو أيوب وصاحبه، وقد رواه الإمام محمد بن إسحاق ونقل صاحب الكشاف أن أبا أيوب قال لأم أيوب . . . الخ بلفظ قريب من هذا، وقد أورده ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق فلا داعي للإعادة^(١) .

ومما تقدم ندرك أن الخائضين في الإفك قلة قليلة وأن الغالبية العظمى من الصحابة وكبارهم بوجه خاص وقفوا من الإفك موقف المدافع عن عائشة واستبعدوا ذلك منها فكيف يليق مثل هذا الكلام الساقط بفراش رسول الله - ﷺ - وكيف يصح هذا من إحدى أمهات المؤمنين الطاهرات المطهرات ومن بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - إنها أحابيل اليهود وأحقاد وضغائن المنافقين، ولا أدل على ذلك من موقف علي وأسامة وعمر وأبي أيوب وغيرهم من الصحابة الأجلاء - رضوان الله عليهم أجمعين - وأيضاً فإن موقف أمهات المؤمنين - ضرائر عائشة - هو موقف مشرف . . . موقف المؤمنات الصادقات فلم تسهم واحدة منهن في الإفك ولا في تشويه

(١) الطبري/٣/٦١٧، وابن هشام/٣/١٩٢، وتفسير ابن كثير/٣/٢٧٣، والدر المنثور للسيوطي/٥/٣٣، والواقدي كما في رواية الشوكاني وأخرجه الواحدي من طريق عطا الخراساني عن الزهري عن عروة عن عائشة .
انظر أسباب النزول له/٢١٨، وانظر فتح القدير للشوكاني/٤/١٥/١٦ .

سمعة عائشة - رضي الله عنها - ولم يقلن فيها إلا خيراً، وقد مرّ قول زينب: أحمي سمعي وبصري .

قال ابن كثير - رحمه الله - هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة - رضي الله عنها - حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء وما ذكر في شأن الإفك فقال: لولا - يعني هلا إذ سمعتموه - أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين - رضي الله عنها - ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة بطريق الأولى والأحرى^(١).

(١) تفسير ابن كثير/٣/٢٧٣ .

البحث الخامس في من خاضوا في الإفك

وعلى الرغم من الحملة المسعورة من عدو الله ابن أبي ومن شايعه من المنافقين ومن ورائهم اليهود لم ينزلق في حديث الإفك من المسلمين إلا نزر قليل جداً لما أسلفت من طهارة عائشة ونظافة فراشه - ﷺ - وأنه لا يمكن أن يرقى إليه عيب أو نقص ، وهم - أي الخائضون - كما أسلفت : حمنة بنت جحش ، ويقال منهم : أخوها عبدالله أبو أحمد وحسان بن ثابت وزيد بن رفاعة ومسطح بن أثانة .

قالت عائشة عن حمنة : إنها أشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها فشقيت^(١) . . . أما أخوها عبدالله - ويقال له أبو أحمد - فكان ضريراً وكان يدور مكة أعلاها وأدناها في أي مكان من غير قائد يلزمه وكان شاعراً^(٢) .

وقد جاء في بعض الروايات ذكر زيد بن رفاعة بن التابوت ، وقال بعضهم : إنه محل شك حيث مات بالمدينة أثناء عودة النبي - ﷺ - من هذه الغزوة^(٣) .

وهؤلاء الأشخاص الذين نسب إليهم قول الإفك هم الذين وردت أسماؤهم في الحديث وكتب السير، وكما يفهم من سياق القرآن أيضاً أنهم ليسوا بالعدد الكثير بل هم قليل ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ قال

(١) ابن هشام/٣/٣١٣ .

(٢) الحلبية/٢/٣١٩ .

(٣) الامتاع/٣١٠/، وابن هشام/٣/٣١٧ .

العلماء : والعصبة مجموعة من ثلاثة إلى عشرة وقيل من عشرة إلى خمسة عشر وقيل أربعون كما ذكر ذلك الإمام القرطبي وغيره .

أسماء بعض من نسب إليهم قول الإفك :

ذكر القرطبي - رحمه الله - أنه لم يسم من أهل الإفك سوى حسان ومسطح وحمنة وعبدالله بن أبي وجهل الغير - القرطبي ونسبه إلى عروة بن الزبير^(١) .

١ - حسان بن ثابت رضي الله عنه :

شاعر الرسول - ﷺ - اختلف في حسان - رضي الله عنه - هل كان من عصبة الإفك والبهت وهل أقيم عليه حد القذف؟

جاء في صحيح مسلم^(٢) : أنه عندما زار عائشة - رضي الله عنها - في مرضها وسمحت له بزيارتها قيل لها أتأذنين لهذا؟ فقالت : وأي عذاب أشد من العمى . . . وقالت : إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله - ﷺ - .

قال ابن هشام^(٣) قال ابن إسحاق : ثم أن صفوان بن المعطل اعترض حسان بن ثابت بالسيف حين بلغه ما كان يقول فيه وقد كان حسان قال شعراً مع ذلك يعرض بابن المعطل فيه وبمن أسلم من العرب من مضر فقال :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضة البلد
قد ثكلت أمه من كنت صاحبه أو كان منتشبا في برثن الأسد
ما لقتيلي الذي أغدو فأخذه من دية فيه يعطاها ولا قود

(١) القرطبي/١٢/١٩٨/ .

(٢) صحيح مسلم/٣/١٩٣/ .

(٣) انظر ابن هشام/٣/١٩٣/ ، والواقدي/٢/٤٣٦/ ، والقرطبي/٢/١٩٩/ .

ما البحر حين تهب الريح شامية
 يوماً بأغلب مني حين تبصرني
 أما قريش فإني لن أسألهم
 ويتركوا اللات والعزى بمعزلة
 ويشهدوا أن ما قال الرسول لهم
 فيغطئل ويرمى العبر بالزبد
 لغيظ أفرى كفري العارض البرد
 حتى ينيبوا من الغيات للرشد
 ويسجدوا كلهم للواحد الصمد
 حق ويوفوا بعهد الله والوكد

فاعترضه صفوان بن المعطل فضربه بالسيف ثم قال: كما حدثني يعقوب بن عتبة:

تلق ذباب السيف عني فإني غلام إذا هوجيت لست بشاعر^(١)

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي أن ثابت بن قيس بن الشماس وثب على صفوان بن المعطل حين ضرب حساناً فجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج فلقيه عبدالله بن رواحة فقال: ما هذا؟ قال أما أعجبتك ضرب حسان بالسيف والله ما أراه إلا قتله، قال له عبدالله بن رواحة: هل علم رسول الله - ﷺ - بشيء مما صنعت؟ قال: لا والله... قال: لقد اجتأت، أطلق الرجل فأطلقه ثم أتوا رسول الله - ﷺ - فذكروا ذلك له فدعا حساناً وصفوان بن المعطل فقال ابن المعطل، يارسول الله آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته، فقال رسول الله - ﷺ - لحسان: أحسن يا حسان أتشوهت^(٢) على قومي بأن هداهم الله للإسلام، ثم قال: أحسن يا حسان في الذي أصابك... قال هي لك^(٣) يارسول الله... قال ابن هشام: ويقال:

(١) ابن هشام/١٩٤/٣، والكامل في التاريخ/١٣٥/٢، والقرطبي/١٩٩/٢/ والبحر

المحيط لأبي حيان/٤٣٧/٦.

(٢) أتشوهت على قومي أقبحت ذلك من فعلهم حيث سميتهم بالجلابيب من أجل هجرتهم إلى

الله ورسوله... (الروض الأنف/٢٢/٤).

(٣) الحديث: أخرجه ابن جرير الطبري من هذه الطريق/٦١٨/٢، وقال ابن حجر سنده

أبعد أن هداكم الله للإسلام^(١)؟

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم أن رسول الله - ﷺ - أعطاه عوضاً منها بيرحاء - وهي قصر بني حديلة اليوم بالمدينة - وكانت مالاً لأبي طلحة بن سهل تصدق بها على آل رسول الله - ﷺ - فأعطاها رسول الله - ﷺ - حساناً في ضربته وأعطاه سيرين^(٢) - أمة قبطية - فولدت له عبدالرحمن بن حسان... قال: وكانت عائشة تقول: لقد سئل عن ابن المعطل فوجدوه رجلاً حصوراً، ما يأتي النساء ثم قتل بعد ذلك شهيداً^(٣).

قال حسان بن ثابت يعتذر من الذي كان قال في شأن عائشة - رضي الله عنها -:

حصان رزان ما تزن برية وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
عقيلة حي من لؤي بن غالب كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها^(٤) وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتموا فلا رفعت سوطي إلى أنامي
وكيف وودي ما حييت ونصرتي لآل رسول الله زين المحافل
له رتب عال على الناس كلهم تقاصر عنه سورة المتناول
فإن الذي قد قيل ليس بلائط^(٥) ولكنه قول امرئ بي ما حل^(٦)

= صحيح (تعجيل المنفعة) / ١٢٨، انظر الاصابة / ٢ / ١٩١.

(١) ابن هشام / ٣ / ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) هي أخت مارية سرية رسول الله - ﷺ - أهداهما له المقوقس صاحب الأسكندرية...

(أسد الغابة / ٧ / ١٦٠).

(٣) ابن هشام / ٣ / ١٩٤.

(٤) الخيم: الطبع.

(٥) لائط: لاصق.

(٦) ما حل: ماشي بالنميمة.

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: وحدثني أبو عبيدة أن امرأة مدحت بنت حسان بن ثابت عند عائشة فقالت حسان رزان ما تزن بريية وتصبح غرثي من لحوم الغوافل... فقالت عائشة: لكن أبوها؟... قال ابن هشام: قال ابن إسحاق وقال قائل من المسلمين في ضرب حسان وأصحابه في فريتهم على عائشة.

لقد ذاق حسان الذي كان أهله وحنة إذ قالوا هجيراً ومسطح
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم وسخطة ذي العرش الكريم فأترحوا
وآذوا رسول الله فيها فجللوا مخازى تبقى عمموها وفضحوا
وصبت عليهم محصدات كأنها شأبيب قطر من ذرا المزن تسفح^(١)

وقد اختلف: هل أقيم على حسان الحد؟، وقد أسلفت قصته مع صفوان... وقد قال بعض العلماء: إن السبب في انشاد حسان للشعر السابق أن عبد الله بن أبي ابن سلول ذكر اثنين من فقراء المهاجرين ساخراً وهما: جعيل بن سراقة القفاري وجهجاه بن مسعود... قال: «ومثل هذين يكثر على قومي - وقد أنزلنا محمداً في ذروة كنانة وعزها - والله لقد كان جعيل يرضى أن يسكت فلا يتكلم فصار اليوم يتكلم ثم كان من كلامه في صفوان ما ذكر».

وقد ذكر في امتاع الأسماع وغيره من كتب السير قصة مشابهة لما أسلفناه من موقف صفوان من حسان، فلا داعي للإعادة... قال بعض العلماء: إن الشعر الذي نسب إلى حسان في هذا المعنى ليس فيه ما يشير إلى ابن المعطل لا تصريحاً ولا تلميحاً وهي أمسى الجلايب... الخ^(٢) فالله أعلم. وقد يكون المعنى المراد أخذ من قرائن الأحوال ومن شواهد أخرى وواضح

(١) سيرة ابن هشام/٣/١٩٤ - ١٩٦ / حسان بن ثابت - رضي الله عنه - أصيب بالعمى في آخر حياته.

(٢) البفاق والمنافقون/٢٠٥ - ٢٠٦ / إبراهيم علي سالم.

تقديم ابن هشام ونسبته الكلام إلى حسان وقوله فيه، وكذلك فعل غيره من أصحاب السير، وعلى كل فابن أبي له دور كبير في ذلك وهو الذي أثار الحديث وروجه وتوارى عن الأنظار فوق وقع فيه البعض مجارة له، وهذه من مقاصده - قبحه الله - استطاع أن يثير الفتنة ويوقع بين المسلمين - والعياذ بالله - .

أما ابن هشام فقد ذكر الاعتذار الذي حصل من حسان . . . وهل هذا الاعتذار يفيد أن حساناً خاض في الإفك فعلاً؟ وقوله هذا من باب الاعتذار والندم، أو أنه ينفي عن نفسه ما نسب إليه خاصة ونحن نراه يقول في بعض أبياته:

فان كنت قد قلت الذي قد زعمتموا فلا رفعت سوطي إلى أناملي
وكذلك البيت الأخير من الاعتذار يفيد الإنكار وهو:

فان الذي قد قيل ليس بلائط ولكنه قول امرىء بي ما حل
الظاهر من هذه الأبيات أن حساناً ينكر تورطه في حديث الإفك فهو - وكما فهم ذلك بعض العلماء - لم يعتذر من قول سابق، وإنما هو ينفي وقوع الشيء منه أصلاً، فالله أعلم.

وكما أسلفت: أورد ابن هشام الأبيات المنسوبة لقائل مجهول قالوا: إنه من المسلمين - لقد ذاق حسان الذي كان أهله - وقد مرت بكاملها، فلا داعي للإعادة.

ومن ناحية أخرى جاء في كتاب الأغاني أن محمداً السائب قال نقلاً عن أمه: أنها طافت مع عائشة ومعها أم حكيم وعاتكة: امرأتان من بني مخزوم فابتدرتا حساناً فشتمتاه وهو يطوف فقالت: ابن الفريعة تسبين؟ قلن: قد قال فيك فبرأك الله . . . قالت: فأين قوله؟

وفي رواية: إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بقوله:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء^(١)

وكذلك روى عن يوسف بن ماهك عن أمه كلاماً قريباً مما مر وقالت
عائشة في معرض الاعتذار عنه: لم يقل شيئاً ولكنه الذي يقول:

حصان رزان ما تزن بريية وتصيح غرثى من لحوم الغوافل

وخلاصة القول أن بعض العلماء وكتاب السير يرون أن حساناً أقيم
عليه الحد، ويرون أنه خاض في الإفك، وقد مر شيء من ذلك، والبعض
الأخر ينفي وقوع الإفك من حسان لاعتبارات كثيرة، وقد مر شيء من
ذلك، ويرون من باب ذلك الإشاعات والأقاويل والدعاوى غير الثابتة،
فالله أعلم.

٢ - مسطح بن أثانة:

كان قريباً لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - واسمه عوف ولكنه
ملقب بمسطح، وهو فقير، ومن المهاجرين، وقد شهد بدرًا. . . ولقد جاء
الحث في القرآن الكريم على الاهتمام بالقرابة والتجاوز عن أخطائها
والتحمل والعفو والصفح كما فعل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - مع
قريبه مسطح رغم ما نسب إليه من حديث في عائشة - رضي الله عنها -
قال تعالى: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين
والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور
رحيم﴾^(٢) وعلى أثر ذلك أعاد أبو بكر - رضي الله عنه - النفقة إلى مسطح
وقال إنه لا يحرمه إياها أبداً^(٣).

(١) الأغاني/٤/١٦٣. (٢) سورة النور، الآية (٢٢).

(٣) المسند/٦/١٩٧، والبخاري/٣/١٠٨، وابن هشام/٣/٣١٤، كذلك ابن جرير
الطبري/٢/٢٦٨، والسمط الثمين/٦٨، وتفسير الطبري/٢/٨١، ٨٢.

٣ - حمنة بنت جحش :

أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش - رضي الله عنها - قالت عائشة - رضي الله عنها: وكان رسول الله - ﷺ - يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يارسول الله: أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً... قالت وهي التي كانت تساميني من أزواج الرسول - ﷺ - فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك... (متفق عليه واللفظ للبخاري)^(١).

إن أم المؤمنين زينب حمت سمعها وبصرها ولم تقل إلا خيراً شأنها في ذلك شأن سائر أمهات المؤمنين فقد وقفن موقف المؤمن الورع الصادق الإيمان ولم تحملهن الغيرة على الوقوع في الإثم، أما حمنة فقد خاضت مع الخائضين - كما قيل - غيرة لأختها وحمية لها كما قالت عائشة في الحديث المتفق على صحته.

وقد مرّ أن غريزة المرأة في الغيرة ومحاولة الاستئثار بالرجل هي التي حملت حمنة على ما نسب إليها.

أما زينب - رضي الله عنها - فلم تقل في عائشة - وهي ضررتها التي كانت تساميتها - لم تقل إلا خيراً، وكان بإمكانها أن تساهم في إتهامها وإثارة الفتنة حولها، ولكن لعمق إيمانها وكرم طبعها ونبيل أخلاقها وسلامة قصدها نطقت ببراءة عائشة وتكلمت بقول الحق ونفت عنها ما نسب إليها لعلمها الكامل ببراءتها، وأنها عفيفة نظيفة طاهرة وليست محلاً للثلب أو العيب، ويتضح من كلام زينب وغيرها من كبار الصحابة كعمر وغيره أنه لا قيمة لكلام حمنة وأنه ملفق وكاذب ومن صنع اليهود والمنافقين وأعداء الإسلام عموماً

(١) مرّ تخرجه في صفحة (١٦١).

البحث السادس في صفوان بن المعطل

ويقتضي بحثنا عن حديث أهل الإفك أن نلم بإيجاز بطرف من سيرة الصحابي الجليل الغيور الذي جعله المنافقون غرضاً لسهامهم وهدفاً لأكاذيبهم واتهامهم الباطل له ألا وهو صفوان بن المعطل بن ربيعة - بالتصغير - بن خراعي - بياء النسب - بن محارب سليم السلمي الذكواني^(١).

ويكني أبا عمر. . . آمن بالرسول - ﷺ - وهاجر للمدينة وحسن إسلامه، وشهد الخندق والمشاهد، ويروى أن أول مشاهده المريسي^(٢). . . ولقد قال فيه الرسول - ﷺ -: «ما علمت عليه إلا خيراً، وذكر في رواية الحديث: ولم يعرف عليه أحد إلا خيراً، جعله الرسول - ﷺ - على ساقه الجيش فيتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من المتاع ولعل ذلك راجع إلى ثقل نومه وأنه لا يستيقظ إلا بعد رحيل الجيش ويشهد بذلك حديث أبي داود من أن امرأة صفوان اشتكت به إلى النبي - ﷺ - وذكرت أشياء منها أنه لا يصلي الصبح إلا بعد طلوع الشمس فقال له النبي - ﷺ - فإذا استيقظت فصل»^(٣) ولعلها تكني بذلك عما قيل عنه أنه كان حصوراً - ما يأتي النساء ويؤكد ذلك قسمه عقب حديث أهل الإفك «أنه ما كشف عن كتف امرأة قط». . . ويوفق بين هذا القسم وشكوى زوجته، أنه لربما تزوج بعد حديث الإفك^(٤).

(١) سيرة ابن هشام/٣/١٩٦، والاصابة/٢/١٩٠. (٢) الاصابة والتمييز/٢/١٩١.

(٣) انظر سنن أبي داود/١/٥٧٢، والتقريب/١/١٩٧، ومسند أحمد/٣/٨٤، ٨٥/ومشكل الآثار/٢/٤٢٤، وعون المعبود/٧/١٢٩.

(٤) الاصابة في تمييز الصحابة/٢/١٩١.

ومن يتصفح سيرة صفوان وشهادة الرسول - ﷺ - له بالخير واسترضائه - ﷺ - لحسان فيما فعل به صفوان - رضي الله عنه - يدرك أن صفوان - رضي الله عنه - كان مسلماً عميق الإيمان لم يبح لنفسه الحديث مع عائشة - رضي الله عنها - عندما وجدها في الفلاة، بل أشعرها بوجوده بالاسترجاع، وكيف لا يشعر بالألم والحرج وهو يرى ابنة الصديق وزوجة رسول الله - ﷺ - متخلفة عن ركب الجيش الإسلامي .

ولقد كان غيوراً شجاعاً، ما أن سمع بتعريض حسان بن ثابت به وبالمهاجرين ثار عليه ثورة المؤمن الغيور الذي لا يقبل الضيم ولا يرضى بالدنية فيهجم على حسان بن ثابت بسيفه ويضربه ضربة كادت تقضي عليه وتؤدي بحياته قائلاً :

تلق ذباب السيف عني فإني غلام إذا هوجيت لست بشاعر

وتذكر كتب السيرة هذه الحادثة وتروي أن ثابت بن قيس بن الشماس لما بلغه ذلك وثب على صفوان بن المعطل^(١)، وقيده بحبل على عنقه وقاده إلى دار بني حارث بن الخزرج وأدركه عبدالله بن رواحة واستنكر عليه ما فعل بصفوان . . . فأجاب ثابت : أما أعجبك ضرب حسان بالسيف، والله ما أراه إلا قد قتله .

وسأله عبدالله بن رواحة إن كان يعلم رسول الله بما يفعل؟ فلما أجاب بالنفي زجره وأمره بفك وثاقه وأخذهما إلى الرسول - ﷺ - وقص عليه الأمر فأجاب صفوان بحسرة: لقد آذاني وهجاني فحملني الغضب على ما فعلت^(٢) .

(١) التقريب/٢/١٤٠ .

(٢) يقصد بذلك قول حسان :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضة البلد . . الخ

وهنا تدخل الرسول - ﷺ - واستدعى حسان بن ثابت وعاتبه على هجائه المهاجرين واسترضاه على صفوان وطلب أن يحسن على صفوان فعفا حسان عنه وأعطاه الرسول - ﷺ - عوضاً عما لحق به من صفوان بيرحاء وكانت لأبي طلحة بن سهل فتصدق بها على آل رسول الله - ﷺ - كما أعطى الرسول لحسان أمة قبطية تدعى سيرين فولدت له ابنه عبدالرحمن^(١)
وقد سبقت الإشارة إلى ذلك وخرج صفوان بن المعطل من قصة حديث أهل الإفك طيب الذكر نقي السيرة محمود الخصال لأن في تبرئة عائشة تبرئة له ولم يزد هذا الأمر إلا قوة إيمان ورغبة في الجهاد في سبيل الله فأخذ يشترك في الفتوحات الإسلامية .

ويذكر شهاب الدين العسقلاني أن عبدالله بن محمد بن ربيعة القدامى ذكر في الفتوح بسند له أن صفوان بن المعطل حمل على رومي فطعنه فصرعه فصاحت امرأته فقال :

ولقد شهدت الخيل يسطع نفعها ما بين دار يادمشق إلى نوى
وطعنت ذاحلي فصاحت عرسه ياابن المعطل ما تريد بما أرى

واستمر يجاهد في سبيل الله إلى أن لقي ربه شهيداً حيث استشهد في خلافة معاوية^(٢) واندقت رجله يوم استشهاده فطاعن بها وهي منكسرة حتى

= والجلابيب : الغرباء ، وبيضة البلد : أي منفرد لا يدانيه أحد وعند ذلك اعترضه صفوان وضربه بالسيف وهو يقول : تلق ذباب السيف . . . الخ .

(انظر سيرة ابن هشام / ٢ / ٣٠٤ - ٣٠٥ / .)

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٣ / ١٩٦ / .

(٢) اختلف العلماء - رحمهم الله - في تحديد عام وفاته فقد قال ابن إسحاق : قتل في غزوة أرمينيا شهيداً سنة ١٩ في خلافة عمر بن الخطاب ، وكان أمير الجيش يومئذ عثمان بن أبي العاص الثقفي ، وقال بهذا محمد بن محمد بن أحمد النيسابوري مؤلف كتاب الكني ، وابن السكن وابن الأثير وابن كثير . . .

=

مات، وكان ذلك في الجزيرة في موضع يقال له بشيمشاط^(١).

= (انظر الاستيعاب لابن عبدالبر/٢/١٨٧، وأسد الغابة لابن الأثير/٣/٣٠، والكامل له أيضاً/٢/٥٦٣، والبداية والنهاية/٧/٩٦، ٩٧، والاصابة/٢/١٩٠، وفتح الباري/٨/٤٦١) وقال خليفة بن خياط وابن سعد مات في أواخر خلافة معاوية سنة تسع وخمسين، وبه قال السهيلي (الروض الأنف/٦/٤٣٧، ٤٣٨)، وقال الواقدي والطبري: مات سنة ستين بشيمشاط مدينة بالروم على شاطئ الفرات... (انظر معجم البلدان لياقوت/٣/٣٦٢، و/٢/٥٥٥). والصحيح ما قاله ابن إسحاق ومن وافقه لما صرح به عائشة بأنه قتل شهيداً في سبيل الله.

(انظر البخاري/٦/٨٩ كتاب التفسير باب «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا»، ومسلم/٨/١١٩ كتاب التوبة.

(١) الاصابة في تمييز الصحابة/٢/١٩١.

الفصل الرابع

في

المتآمرين في حديث الإفك من المنافقين ومحاولة زعزعة

الصف الإسلامي

وفيه مبحثان

المبحث الأول

في

المنافقين وحديث الإفك

لقد ران الفسوق والفجور على نفوس المنافقين الحاقدين على الدين الإسلامي لفساد فطرتهم وسوء طويتهم، ولم يعد يجدي معهم التوجيه والإصلاح لأنهم ينطلقون في محاربتهم للإسلام من خستهم ونذالتهم وجبنهم، فلا يستطيعون مجابهة الإسلام لجبنهم وضعف نفوسهم، كما لا يتحملون ما أفاء الله على رسوله والمؤمنين من أخوة ومحبة ومودة وانتصارات حاسمة كل يوم تعلي من شأنهم وتزيد من قوتهم فكيف يصبرون على ما يحققه المسلمون من انتصارات - وإن ناهم من ذلك نفع مادي كبير - لأن نفوسهم المريضة وعقولهم الضعيفة تصور لهم أنهم لربما تمكنوا من قهر الإسلام أو وقف نموه ويلجأون إلى هؤلاء وأولئك وإن كانوا من خارج حدود الجزيرة العربية، ولقد أغراهم عفو المسلمين عنهم المرة تلو المرة.

وإني وإن تحدثت عنهم وعن جرائمهم التي تقشعر منها الأبدان في فصل سابق إلا أنني أجد نفسي ملزماً بتخصيص هذا الفصل للحديث عن اشتراكوا خاصة في حديث الإفك لأن الحياء قد نزع منهم فلا يباليون بافتضاح أمرهم ونسبة الكذب إلى زعيمهم ابن أبي بن سلول الذي تطوع ابنه البار به وبالإسلام بقتله حتى لا تمتد إليه يد أحد من المسلمين الغيورين فلا يتحمل رؤية قاتل أبيه.

ما أرفقك بالمؤمنين يا رسول الله . . . حقاً لقد كنت بالمؤمنين رءوفاً رحيماً إذ رحمت الابن البار وشمل عطفك المنافق الخسيس العاق الذي يلاحق بالترهات ويختلق الأكاذيب كي ينال منك حتى أصابه الغم والهلم . ولما لم

يجد ثغرة يدخل منها على المسلمين وكاد يجرم من دخول بلده أصابه الخزي والعار فأخذ يتلمس مدخلاً يؤدي به الرسول - ﷺ - والمسلمين .

ولما تخلفت عائشة البارة المبرأة عن الجيش وجاء بها المؤمن الغيور صفوان معترراً بتخليصه أم المؤمنين وحبية رسول الله - ﷺ - من الضياع في صحراء قاحلة لا أنيس فيها ولا معين غير الله تعالى فاغتمها ابن أبي وقال : «والله ما نجا منها ولا نجت منه» .

سبحان الله . . . لننظر كيف قاده تفكيره السقيم وعقله المريض من أول وهلة إلى ما اعتاده في حياته الأولى من الدعارة والفسوق والمجون فلا يتورع في اتهام الأبرياء ويلوث الأعراض النقية الطاهرة التي عرفت حتى في جاهليتها بالعفة وكرم الأصل فيطعن الرسول - ﷺ - في أهله ويرمي زوجته الطاهرة بالإثم . . . وما أن وجد عصبة المنافقين همسة زعيمهم حتى صوروها حقيقة مسلماً بها وأخذوا يشيعونها في الناس .

ومن حكمة الإسلام أنه لم يعين هؤلاء الأشخاص بأسمائهم بل اكتفى ببيان أوصافهم التي تكاد تعينهم تعييناً كاملاً وأبرز من عرفوا في الخوض في حديث الإفك هم : ابن أبي ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش ، وأضاف إليهم البعض حسان بن ثابت^(١) .

إن ابن أبي الذي عجز عن الانتقام من رسول الله - ﷺ - الذي سلبه مما كان يحلم به من تزعم الأوس والخزرج قبيل هجرته - ﷺ - ولكن انتصارات الرسول - ﷺ - وكشف الله تعالى أمر ابن أبي وكيده للإسلام وإحباط الرسول لمؤامراته وفسائسه أفقده صوابه وأعماه الحقد فدعاه إلى اختلاق وتلفيق الأكاذيب بالرسول والمسلمين . . . ومن هنا وجد ضالته في طعن الرسول - ﷺ - في عرضه .

(١) المسند/٦/١٩٧، والسيرة النبوية لابن هشام/٣/١٩٠، ١٩٢ .

ولقد توهم أنه حقق بذلك انتصاراً في ظاهره وهو الخذلان في جوهره وظن أنه أصاب مقتلاً في المسلمين، ولكن هيهات أن يدع الله لهذا الداعر الفاجر فرصة طعن الإسلام ونبيه في أشرف ما يعتز به ويذب عنه ويحميه . . . وإن كان السلاح الذي استعمله في هذه المرة فتاكاً مدمراً يصيب المسلمين في نواح عديدة لأنه لو تم - لا قدر الله - له ما يريد لأدى ذلك إلى تمزيق شمل المسلمين وتفريق كلمتهم .

قال ابن هشام عن محمد بن إسحاق: حدثنا الزهري عن علقمة بن وقاص عن عائشة بأسانيد عديدة وهي تروي خبر الإفك وتذكر من خاضوا في حديث الإفك فتقول:

وكان كبير^(١) ذلك عند عبدالله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله - ﷺ - وكما قالت السيدة عائشة: «ولم تكن من نسائه امرأة تساميني^(٢) في المنزلة عنده غيرها» . . . فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك، ولقد شاعت هذه الفرية في المدينة وخاض فيها من خاض، وأصغى إليها من أصغى، ولكن المؤمنين المتورعين ترفعوا عن ذلك، ولم يقبلون وعرضوا الأمر على عقولهم ومنطقهم فوجدوه مرفوضاً من أساسه كما فعل أبو أيوب مع زوجته، وقد تعرضنا لذلك في موقعه .

واختلفت الروايات عن عدد المنافقين الذين خاضوا في حديث الإفك حيث أغفل القرآن تحديد عددهم كما أغفل ذكر أسمائهم واكتفى بذكر عصابة ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ . . . والعصبة مجموعة من ثلاثة

(١) إثمه .

(٢) تساويني .

إلى عشرة، وقيل من عشرة إلى خمسة عشر وقيل غير ذلك .

واستمرت المدينة تغلي شهراً كاملاً في حديث الإفك والمنافقون يزيدون من لظاها حتى تأذى رسول الله - ﷺ - واستعذر من عبدالله بن أبي فاستجاب له الصحابة، ولكن الأمر أوشك أن يؤدي إلى نتيجة عكسية فأثار النقاش بعض النفوس - كما أوضحنا ذلك في حديثنا عن الإفك^(١) .

عبدالله بن أبي بن سلول :

كان عدو الله ابن أبي رأس الأفعى والرأس المدبر لعصبة النفاق، ومروجي الفاحشة وملفقي الإفك، وكان عدو الله بناء على خبثه ومكره وتفننه في أنواع الحيل يستوشيه ويجمعه ثم يشيعه بين الناس وكان يجمع المنافقين في بيته ثم يحدثهم فيه . . . قال تعالى : ﴿والذي تولى كبره﴾^(٢) منهم له

(١) انظر في ذلك السيرة النبوية لابن هشام/١٨٧ وما بعدها/، والكامل لابن الأثير/٢/١٣٢ وما بعدها/ . . والواقدي/٢/٤٢٦ وما بعدها/ . . وتاريخ الطبري/٢/٦١٠/ . . والقرطبي/١٢/١٩٩ وما بعدها/ . . وتفسير الطبري/٩/٦٩ وما بعدها/ . . وتفسير الرازي/٣/١٧٤/ .

(٢) أسلفت قبلاً الحديث عن عبدالله بن أبي وأنه هو الذي تولى كبر الإفك وهو الذي كان يجمع الناس في بيته ممن هم على شاكلته، وكان يروج ذلك ويردده، ولما انتشر الكلام وكثر، أثر ذلك في بعض المؤمنين فتكلموا به مع من تكلم مرددين قول أهل الإفك والنفاق دون إدراك له، وأما ذكر بعض الروايات لحمنة وحسان ومسطح مع ابن سلول فذكرهم من باب التبعية لا أنهم تولوا كبر الإفك، إنما الذي تولاه هو ابن أبي بن سلول رأس الكفر والنفاق . . . (انظر تفسير الطبري /١٨/٨٩، وفتح القدير /٤/١٢، وزاد المعاد/٢/١٢٦/ وتفسير مجاهد/٤٢٧/ .)

أما القول بأن حسان هو الذي تولى كبره فلا تتناسب مع فضله وصحته وما له من المناقب والمآثر إذ كان يذب عن رسول الله - ﷺ - وهو من كبار شعراء الدعوة البارزين، والذي قال له رسول الله - ﷺ - هاجهم وجبريل معك . . (صحيح مسلم /٧/١٦٣/ كتاب فضائل الصحابة، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي /١٢/٢٠٠، وروح المعاني

عذاب عظيم ﴿١١﴾

وكان يذكي الفتنة ولا يدعها تخمد إمعاناً في العداوة والحقد لرسول الله - ﷺ - وأبي بكر - رضي الله عنه - حيث أنه - كما أسلفت - يكره الدعوة وصاحبها والمنتمين إليها حتى دخل ذلك الكلام في أذهان قلة قليلة من المسلمين فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم . . . وابن أبي العدو اللدود للإسلام وأهله، والذي ملأ الحقد قلبه، وأكل فؤاده، هو رأس الحربة، والعدو الأول، وقد يكون من دوافعه للقول بحديث الإفك حقه المبيت على صفوان لإسلامه وهجرته أولاً، ولغيرته في حادثة الماء التي أوقد فيها الفتنة عدو الله ابن أبي بين المهاجرين والأنصار من أتباع ابن أبي ومن أجلها وبسببها أصبح صفوان بغيضاً لدى ابن أبي فتماذى من أجل ذلك في إتهامه، والوقوع في عرضه وتشويه سمعته، وقد يكون موقف صفوان هذا في حادثة الماء هو الذي عرضه لهجاء حسان - رضي الله عنه - وكل هذه الأمور تمت بقيادة ابن أبي، وهو الذي حرّك الفتنة أولاً ودعا إليها، وبارك الدخول فيها بناء على طريقته الشيطانية الملتوية يوحد الفتنة ويتوارى عن الأنظار لجبنه ومراوغته فهو متفنّن في أنواع الحيل الباطلة، والدسائس الماكرة.

بعد هذا يتبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك أو الارتياب أن مجتمع المدينة الطاهر تلقى تلك الإشاعة الكاذبة المغرضة بالرفض والاستنكار عدا فئة المنافقين واليهود، وهذا ليس بعجيب ولا غريب فهم يعرفون عائشة جيداً ويعرفون منبتها وخلاتها وأنها زوجة نبي، ولا يمكن أن تتلبس بسوء، أو

= للألوسي/١٨/١٠٥، ١٠٦ / وفتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن

خان/٦/٣٣٠/.

وبهذا يتضح أن ابن أبي هو الذي تولى كبر الحديث ويندفع الاشكال.

(١) سورة النور، الآية (١١).

تلم بفاحشة بعد أن طهرها الله بالإسلام، ولذا نجد نساء الأنصار
والمهاجرين أيضاً يحزن من حديث الإفك، وكشاهد على ذلك المرأة
الأنصارية التي كانت في بيت عائشة أيام المحنة وكانت تبكي لبكاء عائشة
وتشاطرها الأسى والحزن، وقد أسلفنا كلام أسامة وأنه برأ عائشة، ولا يرى
عليها إلا خيراً وهو من أقرب الناس إلى الرسول - ﷺ -، وكفى بشهادة
الفاروق المعروف بغيرته وشجاعته وجرأته.

البحث الثاني في العقاب البدني

أمّا العقاب البدني فالروايات قد اختلفت، فبينما يثبت ابن هشام: في رواية له عن عائشة - رضي الله عنها - وهي تتحدث عن نزول القرآن الكريم في براءتها فتقول:

«وتلا عليهم ما أنزل الله عليه في القرآن في ذلك ثم أمر بمسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح في الفاحشة فضربوا حدّهم»^(١).

وذكر صاحب الحلبية رواية عن أصحاب السنن الأربعة عن عائشة - رضي الله عنها - أنه - ﷺ - أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم^(٢)، وقال:

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ط ٤، ٤، وأورده ابن جرير الطبري في التاريخ من هذه الطريقة / ٦١١/٢ و٦١٦/، وأورده في التفسير أيضاً / ٩٣/١٨/ والحديث عند البزار من حديث أبي هريرة بتسميتهم «مجمع الزوائد للهيتمي / ٢٣٠/٩/ وقال: فيه محمد بن عمرو وهو حسن الحديث وبقيّة رجاله ثقة.

(٢) وعند أحمد وأصحاب السنن في رواية محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر ابن محمد بن حزم عن عمرة عن عائشة قالت: لما نزلت براءتي قام رسول الله - ﷺ - على المنبر فدعا بهم وحدّهم، وفي لفظ - فأمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم وسموا في رواية أبي داود: مسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش... قال الترمذي حسن لا نعرفه إلا من حديث ابن إسحاق من هذا الوجه، وقال ابن حجر: قلت: ووقع التصريح بتحديثه ببعض طرقة (فتح الباري / ٣/٣٤٢/٠) والحديث الذي ذكره ابن حجر عند أحمد وأصحاب السنن عن محمد بن بشار عن ابن أبي عدي عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله - ﷺ - على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم (الترمذي / ١٧/٥/) تفسير النور (وابن ماجة / ٢/٨٥٧/ باب حدّ القذف، وأبو داود / ٢/٤٧١، ومصنف عبدالرازق / ٥/٤٤٥، وأحمد / ٦/٦١٠).

إن المرأة كانت حمنة بنت جحش والرجلين : أخاها عبدالله أبا أحمد بن جحش ومسطح بن أثانة ولم يُحدّ الخبيث عبدالله بن أبي بن سلول لأن الحد كفارة وليس من أهلها . . . وقيل : لأنه لم تقم عليه البيعة بذلك .

وفي الطبراني ومعجم النسائي عن عائشة - رضي الله عنها - أن عبدالله بن أبي بن سلول جلد مائة وستين أي حدّ حدين لأنه قذف زوجة النبي ^(١) .

وذكر القرطبي في تفسيره : أنه اختلف في ذلك ونقل عن الماوردي أنه اختلف : هل حد النبي - ﷺ - أصحاب الإفك على قولين : أحدهما : أنه لم يجد أحدا .

والثاني : أنه حد أهل الإفك : عبدالله بن أبي ومسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، واستشهد بقول شاعر مجهول من المسلمين : لقد ذاق حسان . . . الخ .

وقرر القرطبي أن المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حد حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحد عبدالله بن أبي ^(٢) ، وقد مر هذا البحث قبلاً وبتفصيل أكثر . . . فالله أعلم .

وما من شك أن عصابة النفاق هم وراء الحادث وهم الذين أطلقوه وروجوا له بزعامة شيخهم ابن أبي فهو - وكما مر - رأس الأفعى ، وهو الذي قال ما قال وتابعه وشايعه في ذلك المنافقون ، فهم له يصغون ولأقواله يروجون فالهدف واحد والقصد إثارة الفاحشة ومحاولة تلويث فراش النبي - ﷺ - وزوجته وتدني سمعة أبي بكر - رضي الله عنه - والنيل من الإسلام وأهله بشتى الطرق ومختلف السبل فقد تأمروا على ذلك وعقدوا

(١) الحلية / ٢ / ٣٢٤ .

(٢) القرطبي / ١٢ / ٣٠١ ، والنفاق والمنافقون - إبراهيم علي سالم - / ٢١٢ .

العزم على مطاردة الإسلام والمسلمين والنيل منهم وجعلوا ذلك ديدنا لهم طيلة حياتهم إلا من هداه الله منهم، وقد أسلفت بعضاً من أسمائهم وزعمائهم، فلا داعي للإعادة.

إن الصحابة الكرام بتماسكهم وتعاونهم وتعاضدهم أثاروا أحقاد المنافقين وضغائنهم وراعهم تلاحمهم وتربطهم وائتلافهم وتراحمهم وحنو بعضهم على بعض فعملوا جاهدين وبلا هوادة على محاولة زعزعة الصف الإسلامي وإيجاد خلل وصدع بين صفوف المسلمين في النواحي العسكرية تارة وفي النواحي الخلقية تارة أخرى، وقد قدمت أنهم لما أفلسوا في الميدان العسكري توجهوا إلى الناحية الخلقية لحساسيتها ولكون العربي المسلم يهون في نظره كل شيء عدا الناحية الخلقية، ولكنهم رجعوا خائبين وخاسرين فكشفهم القرآن وعرى خططهم وأبطل كيدهم وافترأتهم كلها في هذه وغيرها وحق الحق وبطل ما كانوا يعملون.

الفصل الخامس

في

آثار حديث الإفك من الناحية الإيجابية



المبحث الأول في آثار حديث الإفك

وفي الواقع أن هذه الفتنة الطاغية التي أثارها المنافقون وأججوا نيرانها وآذوا الرسول وأصحابه بها . . . نقول: كانت محمودة العواقب حيث كشف الله المنافقين واختبر المؤمنين ومدى صدق إيمانهم فخرجوا ظافرين، وهدأت النفوس وعادت إلى فطرتها فسار موكب الدعوة قوياً غير متأثر بما حدث في تلك الفترة الحرجة، وقاد رسول الله - ﷺ - المسلمين بعد أن تلقوا درساً عملياً في مواجهة الأخطار التي تحيط بالمسلمين والتي تتجدد بمرور الزمن، وأدركوا أنه كان عليهم أن يتصدوا لهذه الفرية في مهدها فيقضوا عليها لأن لطف البعض في مقاومة المنافقين والمشاكل التي يثيرونها أعطت الفرصة للمنافقين للتهادي في إثارة النفوس المؤمنة، ومثل هذه الأحداث وسكوت المؤمنين الغيورين عن ملاحقتها وإطفاء نيرانها - وإن مسّتهم بالضرر - في كل وقت وحين هي التي قهقرت المسلمين عن الصدارة إلى أن أصبحوا في مؤخرة ركب الحضارة ولا أعني بذلك الحضارة الماديّة البراقة في عصرنا الحديث بل أريد بالحضارة اكتساب المعارف الإنسانية العامة وظهور آثارها في الحياة الاجتماعية من التزام المظهر الإسلامي الذي يميزهم بسماهم التي عرفوا بها من عهد النبي - ﷺ - وصحابته الكرام الثقة في إحقاق الحق، ومقاومة الباطل، والتميّز بصفة الرجولة في جميع أعمالنا وتصرفاتنا، وأنا لنأمل أن يكون فيما سقناه عظمة تدلنا على طريق الحق، طريق الله، وبعد:

فماذا جنى المنافقون من أفكهم؟

في الحقيقة أنهم خرجوا خائبين مدحورين بعد أن أنزل الله في براءة

عائشة - رضي الله عنها - آيات بينات تتلى إلى يوم الدين أوضح الله فيها أن الذي جاء به المنافقون خير للمؤمنين ، وأن المنافقين سينالون جزاء خوضهم في الأعراض عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، وعاتب المسلمين على سكوتهم عما جاء به المنافقون بدون القواعد المقررة في إثبات حالات الزنا ، ووصف المنافقين بأنهم يجبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا . . . وقال تعالى : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ (١) .

قدّمت أن عدو الله ابن سلول هو الذي تولى كبر حديث الإفك ، وهو الذي كان يجمعه ويستوشيه ويحاول أن يدخل إفكه وبهتانه وزوره في أذهان بعض المسلمين وهو بثعلبته ومكره وخداعه يحاول أن يطلق الكلام في اجتماعاته الخاصة وبين أعوانه وإخوانه من المنافقين واليهود لئلا ينسب الكلام إليه صراحة فينجو ظاهراً كما فعل عدة مرات قبّحه الله .

ولحديث الإفك آثار إيجابية كثيرة أحاول - بحول الله - بيانها فأقول :

أولاً : حديث الإفك وما ترتب عليه من نزول الآيات الكريمة أوضح بجلاء خبث اليهود والمنافقين وتآمرهم وتلاحمهم من أجل الكيد للإسلام وأهله ، والقضاء على الجماعة الإسلامية ، وأنهم أي اليهود والمنافقين هم من ألد أعداء الأمة الإسلامية ، وأنهم مصادر البلاء والسوقية ، وأنهم لا يهدأ لهم بال حتى يلحقوا الضرر بالأمة الإسلامية ، وأن المنافق عدو متربص بالمسلم الصادق ، وإن ظهر له بمظهر المسلم فهو عدو ماكر حاقد لئيم ، وقد كشف لنا حديث الإفك عن الحاقدين والكائدين للإسلام والمتربصين بالرسول - ﷺ -

(١) سورة النور، الآية (١١).

- وصحبه الدوائر، وهو درس واضح وبلغ للمسلمين عامة لثلا ينخدعوا بالمنافقين، فهم عدوهم الأول وهم مصدر الداء ومكمن العلة منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود، قد اعتادوا الباطل وألغوا المنكر فلا يتورعون عن فعل قبيح ولا مقارفة إثم، همهم الأول والأخير زعزعة الصف الإسلامي وبعثرة جهود المسلمين وإيقاع الفرقة والانقسام بين صفوفهم.

فحديث الإفك أوضحهم وبيّنهم وكشف أستارهم حيث نزلت الآيات الواضحات في ذلك فأخرستهم وكذبتهم فعرفهم المسلمون وحذروا منهم وراقبوهم وأصبحوا معروفين منبوذين قلقين حائرين والعياذ بالله.

إنهم أهل المنكر والإثم والبغي والعدوان، هذه الأشياء هي التي أوقعتهم في الرذيلة وأبعدتهم عن الفضيلة، إنهم مرضى القلوب، ولذا انساقوا وراء زعيمهم الفاجر في حديث الإفك وغيره بلا روية وبدون تعقل، أما في حديث الإفك فانكشف أمرهم واتضح خطرهم على الإسلام والمسلمين وتبين للمؤمنين الصادقين أنهم شر وبلاء فيجب الحذر منهم والتفطن الكامل لشورهم ومكائدهم وليكن المسلم دائماً وأبداً على حذر منهم، وقد أوضحت أكثر من مرة مكائد المنافقين وأخطارهم، فلا داعي للتكرار.

ثانياً : أوضح القرآن وتبين من حديث الإفك أن الأمة الإسلامية يجب أن تأخذ الحذر من أعدائها كلهم وليس العدو من أشهر العداوة وحمل السلاح بل قد يكون العدو الداخلي والمنتهمي إلى الإسلام إفكاً وزوراً - كحال المنافقين - أشد خطراً على الأمة من أعدائها المحاربين علناً، فهاهم المنافقون في كل وقت وحين وحتى يومنا

هذا أشد عداوة للدعاة والمؤمنين الصادقين من الكفار، وهذا واضح ومشاهد، فهم في عقر ديار المسلمين يتربصون بحملة القرآن الدوائر ويكيلون لهم مختلف التهم الباطلة الكاذبة الملفقة وينسبون لهم زوراً وبهتاناً في كل زمان ومكان ما هم منه براء، ولكل قوم وارث، فمدرسة عدو الله ابن أبي الحاقدة لازالت تخرج للمجتمعات الإسلامية أفواجاً متلاحقة على مر العصور والأيام، وهذه الأفواج الخبيثة تلاحق المؤمنين الصادقين وتؤذيهم على قدر استطاعتهم وحسب الجو الذي هم فيه مدأً وجزراً، وإذا ما خلا لهم الجو فعلوا بالموحدين الأفاعيل ونكلوا بهم أشد أنواع التنكيل، وما نحن نشاهد منافقي هذا العصر أشد خطراً على الإسلام وأهله من الكفار، فلقد عاثوا في البلاد الإسلامية فساداً وحاولوا جاهدين طمس معالم الفضيلة وتزيين وتحبيب الرذيلة وإشعال نار الفتنة ضد المؤمنين، وحاولوا إبعاد الدعاة وحملة القرآن عن الوظائف القيادية وأحياناً عن الوظائف العامة، وحاولوا قطع مصادر الرزق عنهم والتضييق عليهم حيث قال أسلافهم ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾^(١).

ثالثاً : حديث الإفك بين تماماً حرمة المسلم وقدره عند الله، وأنه يجب أن يعيش المسلمون أخوة متحابين متعاونين، ولا يجوز أن تكون أعراض المسلمين مادة للهو والعبث والقييل والقال، فهي مصونة محترمة ومعروف موقف الإسلام من الغيبة والنميمة فقد حرمها ونهى عنها وصورهما بصورة بشعة تنفر منها النفوس الطيبة ﴿أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾^(٢). وهذا في الغيبة التي تكون أحياناً

(١) سورة المنافقون، الآية (٧).

(٢) سورة الحجرات، الآية (١٢).

دون القذف فما بالك بالقذف الذي هو طعن في عرض المسلم - وهو أعلى ما يملك - ففيه تلويث لسمعته وافتراء عليه .

رابعاً : الخير الذي عبر عنه القرآن بقوله ﴿ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير ﴾ قال علماء التفسير والخير في ذلك من خمسة أوجه : تبرئة أم المؤمنين وكرامة الله لها بإنزال الوحي بشأنها، والأجر الجزيل لها بالفرية عليها، وموعظة المؤمنين والانتقام من المفتين^(١)

﴿ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير ﴾ :

قال المفسرون : هذا خطاب لعائشة وصفوان بن المعطل وقيل لرسول الله - ﷺ - وأبي بكر وعائشة والمعنى أنكم تؤجرون فيه^(٢) .

قال ابن كثير - رحمه الله - : لا تحسبوه شراً لكم : أي يآل أبي بكر بل هو خير لكم أي في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ورفعته منازل في الآخرة وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حيث أنزل براءتها في القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولهذا لما دخل عليها ابن عباس - رضي الله عنه وعنهما - وهي في سياق الموت قال لها : أبشري فإنك زوجة رسول الله - ﷺ - وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء^(٣) .

(والخطاب في قوله هو خير لكم) لمن ساءه ذلك من المؤمنين وخاصة رسول الله - ﷺ - وأبا بكر وعائشة وصفوان بن المعطل - رضي الله عنهم^(٤)

(١) التسهيل في علوم التنزيل / ٦١ / ٣ .

(٢) زواد المسير لابن الجوزي / ١٨ / ٦ .

(٣) ابن كثير / ٢٧٢ / ٣ .

(٤) حاشية شيخ زادة على البيضاوي / ٤١٣ / ٣ ، وفتح القدير / ١٢ / ٤ / وقيل الخطاب لعائشة

وأهلها وصفوان . .

والقرطبي / ١٩٨ / ١٢ ، والحاازن / ٣٢٣ / ٣ .

- ومعنى قوله خير لكم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم لأنه كان بلاء مبيناً ومحنة ظاهرة، وأنه أنزلت فيه ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله - ﷺ - وتسلية وتنزيه لأُم المؤمنين - رضوان الله عليها - وتطهير لأهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمججه أذناه وعدة الطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تحفى على متأملها. اهـ^(١).

قال الإمام الفخر الرازي: فإن قيل فمن أي جهة يعد خيراً لهم مع أنه مضرة في العاجل قلنا لوجوه:

أحدها: أنهم صبروا على ذلك الغم طلباً لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب، وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم.

وثانيها: أنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر.

وثالثها: أنه صار خيراً لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة، وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك وأوجب عليهم اللعن والذم، وهذا غاية الشرف والفضل.

ورابعها: صيرورتها بحال تعلق الكفر والإيمان بقدرها ومدحها، فإن الله تعالى لما نص على كون الواقعة إفكاً وبالغ في شرحه فكل من يشك فيه كان كافراً قطعاً، وهذه درجة عالية^(٢).

قال بعض علماء التفسير فإن قلت عبدالله بن أبي بن سلول كان رأس المنافقين فكيف قال «منكم» قلت كان ينسب إلى الإيمان في الظاهر، وقيل:

(١) الكشاف للزمخشري ٥٢/٣، ٥٣.

(٢) الفخر الرازي ١٧٣/٢٣.

قوله منكم خرج مخرج الأغلب، فإن حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة كانوا من المؤمنين المخلصين^(١)، وهو الذي تولى كبره على أصح الأقوال كما قدمت.

خامسها: أوضح حادث الإفك بجلاء ضرورة تنفيذ أحكام الله كاملة محافظة على الجماعات المسلمة وصيانة لأعراضها لئلا تكون مادة للألسن الآثمة التي تحركها القلوب الحاقدة والنفوس المريضة ولا بد من مطالبة القاذفين بالشهود الأربعة أو إقامة حد القذف عليهم حفاظاً لكرامة المسلم وصيانة لعرضه، فالمسلم عزيز وشريف عند الله تعالى، فإذا أطلقت تلك الألسن الآثمة تنهش في أعراض المسلمين لم يسلم من أذاها أحد وسيكون الأكثر فريسة لآثامها وأحقادها، وما هي تكشف عن مساوئها وأحقادها وتتطاول إلى بيت النبوة ومعدن الأصالة وموئل الحصانة والصيانة فكان حديث الإفك بحق خيراً وقيماً للمؤمنين الصادقين لأسباب عديدة أتيت على مجملها، وشراً مستطيراً على المنافقين، وكما بينت قبلاً، كان حديث الإفك تشريعاً عاماً^(٢) خالداً إلى يوم القيامة وتجربة عملية قاسية عايشها الصحابة ورأوا آثارها الإيجابية وبقيت تشريعاً خالداً إلى يوم الدين، ونبراساً يستضيء به السائرون المتبعون لآثار الرسول - ﷺ - والمقتفون لسنته . . . ويقول العلماء: إنها سبب واضح في زيادة الأحكام الشرعية وقواعده الاجتماعية وآدابه المرعية ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير﴾ فهو وإن كان في ظاهره وبداية أمره فيه محنة ومشقة ومعاناة للرسول - ﷺ - وأبي بكر وعائشة وصفوان وغيرهم ممن غاظهم وغمهم حديث الإفك حيث بقوا في هذه المحنة الشديدة شهراً كاملاً لكن الله تعطف وتلطف فكشف الغمة فاكتسبوا به الرفعة والمثوبة وظهرت كرامتهم وعزتهم ومكانتهم، لاسيما

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل - الخازن - /٣٢٢/٣.

(٢) فتح القدير /٤/١٢.

عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها - فنزلت ثماني عشرة آية من كتاب الله تتلى ويعمل بها، وكلها ثناء عاطر وتكريم واضح لكم ووعيد شديد لمن تكلم بكم مما أنتم منه براء فهي أحكام وآداب وأخلاق تتلى ويعمل بها إلى يوم القيامة فصحت الخيرية .

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله - : وحقيقة الخير ما زاد نفعه على ضره . . الشر : ما زاد ضره على نفعه، وأن خيراً لا شرف فيه، هو الجنة، وشرّاً لا خير فيه هو جهنم، فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا وخيره هو الثواب الكثير في الآخرة . . . فنبه الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان . . . إذ الخطاب لهم في قوله تعالى : ﴿ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم . . . ﴾ لرجحان النفع والخير على جانب الشر^(١) .

وابن أبي أكسبته تجارة الأعراض ومقارفة البغي خبرة ودراية في صناعة الأكاذيب والأراجيف والدجل والتضليل ومن ذلك صناعته وترويجه لحديث الإفك، فرجل هذه بضاعته وتلك حرفته وصنعتة ستكون الفاحشة وقالة السوء دائماً وأبداً على لسانه، فهو - وانطلاقاً من خبثه ومكره ونفاقه وحبه للفاحشة - لا يأمن أحداً ولا يظن خيراً بأحد ويقيس الناس على نفسه . . . فالسارق لا يأمن أحداً . . . والفاجر والعاهر لا يحسن الظن بأحد يحسب أن الناس كلهم مثله وعلى شاكلته ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره .

(١) الجامع لأحكام القرآن/١٢/١٩٨/ .

الفصل السادس

في

مدى تأثير الشائعات على بعض المسلمين

مدى تأثير الشائعات على بعض المسلمين

الإِنسان بحكم طبيعته - كبشر - يحس ويدرك غالباً ما حوله وما يراد له وما يراد به، وهذا الإدراك يكون بنسب مختلفة حسب الحالة وحسب الشخص قوة وضعفاً، واختلاف الطرق والأساليب والأجواء كلها أمور تحيط بالإِنسان، والشائعات وأثرها على الإِنسان من بين تلك الأمور التي تحيط بالفرد والجماعة، والشائعات بوجه عام أسلوب متبع في التنفيس عن النفس وفي مواجهة الخصوم، وفي شغل الناس وإلهائهم لأي مقصد كان كالذين يطلقون الإشاعات ويروجونها لهم ولاشك مقاصد معينة وأهداف مقصودة، والمستمع هو الآخر قد توافق هوى في نفسه فيروجها ويغذيها ويزينها حسب نظرته إليها والجو الذي أطلقت فيه عامل مهم في الموضوع، والصراعات والمنازعات بين القبائل والأمم والطوائف وأصحاب الملل والنحل المختلفة كلها من الأجواء التي تساعد على إطلاق الإشاعة وترويجها كذلك للوسط الذي أطلقت فيه أثر بين وواضح في تغذيتها وحفظها والدفاع عنها والتصدي لها ومقاومتها وإحباطها، وقد يكون الوسط الذي أطلقت فيه الإشاعة متصارعاً متنازلاً فيجد أصحاب الإشاعات والأفاكون الجو ملائماً والفرصة مواتية للقيام والقيام .
وللإشاعة مقومات وخصائص معينة :

المبحث الأول

في

تعريف الإشاعة

معنى الإشاعة: الانتشار. . . يقال في هذا العقار سهم شائع إذا كان في الجميع، ولم يكن منفصلاً، وشاع الحديث إذا ظهر في العامة^(١). . . ويقال: شاع الشيء شيعاً وشيعاً وشيعاناً وشيعوعة أي ظهر وتفرق، وقيل تشيع تفشوا^(٢).

يقول الدكتور حامد عبدالله ربيع^(٣) نقلاً عن صلاح نصر^(٤):
كلمة الإشاعة يصعب تعريفها. . . في أوسع معانيها تعني الانطلاق بفكرة معينة مرتبطة بواقعة معينة وانتشار وسريان هذه الفكرة في مجتمع معين تحدد من حيث المكان والزمان يغلب عليها - إن لم يكن عدم الصحة فعلى الأقل الصحة الجزئية - بهذا المعنى الإشاعة تختلط بالأسطورة من جانب وبالنكتة أو الفكاهة الشعبية من جانب آخر، فهي جميعها صور لاختلاق كلي أو جزئي يرتبط باتجاهات الرأي العام في معناه العام بحيث يمكن القول بأنها وسيلة من وسائل التعبير عن حالات الكبت النفسي الجماعي والفردى على أننا لو أردنا أن نعرف الإشاعة تعريفاً علمياً يعكس مفهومها الوظيفي وتكوينها السلوكي فإننا نستطيع أن نعرفها بأنها «عملية نقل خبر مرتبط بواقعة أو رأي أو صفة مختلقة من خلال الكلمة المسموعة

(١) تفسير الرازي / ٢٣ / ١٩٢.

(٢) القرطبي / ١٢ / د: -، /، وفتح القدير / ١ / ١٤.

(٣) مقدمة في العلوم السلوكية د/ حامد عبدالله ربيع / ٢٩٧.

(٤) صلاح نصر م س / ٢٠٢ وما بعدها / منقول من المصدر السابق.

الشفهية تعبيراً عن حالة معينة من حالات القلق أو الكبت الجماعي^(١)، وقد حدد الدكتور ربيع العناصر والمقومات التي تعكس خصائص الظاهرة، وذكر منها أهمية الواقعة أو الشخص أو الصفة موضع التعليق الإشاعي . . . إن أهمية الحديث هو الذي يفرض الاهتمام والاهتمام هو الذي يدعو إن لم يكن إلى خلق الإشاعة، فعلى الأقل إلى تقبلها وسريانها وقال: الإشاعة من جانب آخر: هي تعبير عن حالة كبت معينة، وإذا أردنا أن نعبر عن هذا بلغة علمية فإن الإشاعة لا تعدو أن تكون من حيث سريانها انتقالاً من حالة الرأي العام الباطن . . . الذي لا يستطيع أو لا يجرؤ على التعبير عن نفسه تعبيراً واضحاً وصریحاً إلى أسلوب خفي ملتو لاثبات وجوده من خلال عمليات تعويض وتوفيق غير مباشر . . . وقال الدكتور ربيع: الإشاعة ليست الخبر وليست الأسطورة وغير الفاكهة، فالإشاعة مثلاً التعليق على الخبر بقصد تحقيق حالة نفسية معينة من الإشباع أو التخلص من التوتر أو التعبير عن حالة من حالات الكبت والتمزق . . . وقال أيضاً: الإشاعة تعليق كاذب يتضمن شيئاً من المبالغة أو الاختلاق حول واقعة معاصرة تعكس الاهتمام الجماعي أو الكلي . . . وقال أيضاً في تعريفه للإشاعة: هي صورة من صور المواجهة الجماعية غير المباشرة وغير الصريحة^(٢).

وقال أيضاً في معرض كلامه عن الإشاعة: إنها أداة من أدوات الحرب النفسية في بعض الأحيان تعد سلاحاً حاسماً في خلق حالة من الذعر والقضاء على معنويات الخصم^(٣).

ومما سبق ندرك الآثار السلبية والسيئة التي تتركها الإشاعات المغرضة في

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر.

نفسية الأفراد والجماعات وأن الإشاعات بوجه عام والتي يتسم الأكثر منها بالكذب والافتراء . . . أقول: أنها معاول هدم ووسائل تخريب وتفريق بين الصفوف وإيجاد أجواء تلائم الأفاكين والمرجفين، وقد أثبت الباحث الانجليزي بنروز Penrose حيث استطاع أن يثبت أن الإشاعة من حيث انتشار مضمونها تمر بمراحل متتابعة تشبه نفس التطورات التي تصيب الوباء المرضي كالكوليرا^(١).

الإشاعة كالشرارة تنطلق في البداية صغيرة وحقيرة ولكنها تصبح كبيرة وعظيمة، وإذا لم تتدارك في أول أمرها وتدفن في مهدها صعب علاجها وعظم أثرها وكبر خطرها، وهذا واضح ومشاهد في كثير من الأزمنة والأمكنة وقد أجريت بحوث كثيرة ميدانية حول الإشاعة وتطورها، وقام باحثون ودارسون بمجهودات كثيرة في هذا الميدان وكلها تعطي ما سبق وأن قلناه من خطر وضرر الإشاعة وسريانها وسرعة انتقالها بين الأشخاص . . . وقد ذكر الدكتور ربيع مقومات أربع تفسر نجاح الإشاعة وانتشارها.

فذكر أولاً: أهمية الموضوع الذي يمثل جوهر الإشاعة.

ثانياً: الغموض الذي يرتبط بها.

ثالثاً: حالة القلق النفسي والرغبة في التنفيس من حالة الكبت الدفينة التي تسيطر على الطبقة أو الفئة المستقبلة للإشاعة.

رابعاً: التناسق في خصائص المجتمع بمعنى التشابه في التفكير والتوافق في الاستعداد الذهني.

وقال: إن هذا يفسر انتشار الإشاعات أوقات الحرب وقلّة انتشارها أوقات السلم، وذكر أمثلة لذلك، ومنها موضوع حديثنا هذا وهو حديث الإفك وقد مر.

(١) انظر بنروزم س ز /٧٤/.

وقد ساق نموذجاً آخر وهو أن إشاعة انطلقت في بداية الثورة الهندية ضد الإنجليز عام ١٨٣٧م حيث كانت القوات البريطانية تستند في أغلبها إلى عناصر هندية حيث كان الهنود يمثلون حوالي ٩٠٪ من جيش الاحتلال، وكان على قادة الثورة الهندية أن يجدوا أسلوباً لإحداث شلل في تلك القوات فيتوصلوا إلى إطلاق هذه الإشاعة إذ قالوا أن الشحم الذي يستخدم أثناء عملية تعميم البندقية هو شحم خنزير وشحم بقر وتعمدوا أن يجعلوا مسارات الإشاعة في خطين: الأول: يتجه نحو المسلمين، والثاني: إلى غير المسلمين. . . قيل للمسلمين: إن هذا الشحم شحم خنزير وهو مخالف لتعاليم الإسلام، وقيل لغير المسلمين: إن هذا الشحم شحم بقر وهذا يخالف العادات الهندوكية «الضالة» لفهم مدى تأثير هذه الإشاعة يجب أن يعلم أن الجنود كانوا يستخدمون بندق تحشى بالبارود من أعلاها وكان ذلك يتم بدفع خرطوشة تسقط في البندقية على أنه كان يجب أن تنزع الخرطوشة من بعض الورق المشحم، وكان يتم ذلك بالفم أي استخدام أسنان الجندي، ومعنى ذلك تذوق الشحم في كل مرة يقوم فيها الجندي بإعداد البندقية للقتال، وإزاء ذلك حدثت حركة تمرد واسعة من جانب الهنود حاول أن يعالجها القادة الإنجليز بأن يقوموا بأنفسهم بتشحيم الخرطوم بالزبد النباتي، وأمام الجنود الهنود وحدث من جراء ذلك اضطرابات كبيرة وتأخر واضح في مواجهة الثوار أدى إلى هزيمة في بعض الأحيان.

وساق المؤلف نماذج أخرى ألمانية وأمريكية يطول سردها. . .
وقد قال المؤلف: إن الإشاعة تخضع لمعادلة جبرية أساسها:
شدة الإشاعة = الأهمية × الغموض

وهذا الذي قاله يؤيد القول بأن الإشاعة تعتمد أساساً على المبالغة والتضخيم والتهويل وذلك أن هذه الأشياء هي التي تشد انتباه الناس إليها

ويتناولونها فيما بينهم بتلهف حال البشر في حبههم لسامع الأخبار وتناقلها، ولا بد أن تكون الإشاعة صادرة من أناس يتسمون بالدوافع القوية والحماس الشديد لها حتى تتسم بالقوة حيث أنها - وكما يقولون - أنها إسقاط لحالة ذاتية وانفعالية معاً^(١).

وهذا الكلام الذي سقته ونقلته بشأن الإشاعة ومصادرها والدافع لها ينطبق في الأعم الأغلب على حالة المنافقين في المدينة، وخاصة زعيمهم وكبيرهم ابن أبي حيث كان يطلق الشائعات ويروجها ومن أمثلتها حديث الإفك الذي نحن بصدد الحديث عنه وعن آثاره وعن الدوافع التي أدت إليه، والأغراض التي قيل وحيك من أجلها.

إن الشائعات وبلا شك تؤثر تأثيراً قوياً وبالغاً في نفسيات الناس وتستجلب اهتمامهم فهم يهتمون في الأعم الأغلب بها ويتناقلونها ويزيدون فيها حسب الأهواء والمقاصد، والإشاعة، وكما هو واضح ومعروف تستعمل كسلاح فتاك ضد العدو ومن أنواعها التخذيل وتهويل عدد وعدة الأعداء وتقليل شأن الخصوم، وهو أسلوب اتبعه اليهود والمنافقون مع الرسول - ﷺ - في المدينة وفي أكثر حروبه، وقد أوضح القرآن لنا كثيراً من ذلك، ومر في بحثنا عن المنافقين طرف منه، فلا داعي للإعادة.

إن الحروب النفسية وسلاحها دائماً الإشاعات والأقاويل لتحتل من نفسية الشعوب والمحاربين خاصة مكاناً معيناً فلا بد من ملاحظة هذا الشأن ومواجهته والتصدي له بما يناسبه، وهذا الكلام الذي سقته هو مأخوذ من كلام الباحثين في علم السلوك وغيرهم، أما أدب الإسلام وتعاليمه في هذا الشأن فواضحة وبينة، قال تعالى: ﴿يأياها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة الحجرات، الآية (٦).

الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه الرسول ليأخذ الصدقات من بني المصطلق، والقصة معروفة^(١). . . فهذه الآية توجيه شامل للمؤمنين بشأن تلقي الأخبار والتصرف بها ووجوب التأكد منها والبحث عن مصادرها والتثبت منها وحيث أن الخبر بمفهومه العام يحتمل الصدق والكذب فلا بد من تحييصه ومعرفة مصدره، ولكون الأخبار بوجه عام يترتب عليها أمور كثيرة وأحياناً تكون خطيرة وهامة فلا بد من التأكد منها وتخصيص الفاسق بالذكر لأنه مظنة للكذب وقالة السوء فالمؤمن لا يكذب ولا يفترى الكذب ولا يروجه وحيث أن الجماعة المسلمة بناء قوي متماسك يتعاون أفرادها فيما بينهم في كل ما هو نافع ومفيد حرص الشارع على المحافظة التامة على هذا البناء الشامخ من التصدع والخلل لئلا ينهار البناء، فالأصل في المسلمين أن تكون أخبارهم موثوقة وأقوالهم صادقة فهم موضع الثقة وأقوالهم يؤخذ بها وتصدق.

قال في ظلال القرآن ومدلول الآية عام آية ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ وهو يتضمن مبدأ التمهيص والتثبت من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره، أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ومعتل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداءً، وهذا نموذج من الاطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار^(٢).

- (١) أخرجه أحمد وغيره عن الحارث بن ضرار الخزاعي . . . وروى الطبراني نحوه من حديث جابر بن عبدالله وعلقمة من ناحية وأم سلمة وابن جرير ومختصر ابن كثير ٣/٣٦٠ ونحوه من طريق، عن ابن عباس، ومن طرق أخرى مرسله . . . (لباب النقول ١٩٦/٠).
- (٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب/٤/١٣٣ - ١٣٤/.

إن التثبت والتروي والحيلة في نقل الأخبار هي من أصول وقواعد هذا الدين من أجل تماسك الجماعة المسلمة وقوتها لئلا تكون أعراض المسلمين ومصالحهم مادة سهلة للعبثين والكاذبين والأفاكين، لقد أرسى الإسلام قواعد للأخلاق مبنية وبنى لها معادل حصينة يصعب تجاوزها وأحاط المسلم بسياج منيع قوي متماسك، فالمسلم عزيز وكريم ولا يجوز أن ينال بسوء.

إن الشائعات المغرضة وقالة السوء هي مما يزلزل قواعد الثقة والمودة بين المسلمين ومما يزرع بذور الحقد والعداوة فيما بينهم.

إن واجب المسلم أن يحسن الظن بأخيه ويدافع عنه خاصة في غيابه ولا ينجذب أو يندفع مع المتشككين والأفاكين، والمسلم لا بد وأن يكون صادقاً في أقواله حيث الصدق دعامة الفضائل وأساسها ومظهر من مظاهر الرجولة الحقة والصدق اتصف به الخالق جل وعلا ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾^(١).

وقال جل ذكره ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾^(٢) والكذب والافتراء من صفات المنافقين والشياطين ولا يليق بالمسلم أصلاً الاتصاف به قال تعالى: ﴿إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾^(٣).

وقال جل ذكره: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾^(٤).

إن الشائعات المغرضة والأخبار الكاذبة والأقوال الملفقة هي مما يزرع

(١) سورة النساء، الآية (٨٧).

(٢) سورة مريم، الآية (٤١).

(٣) سورة النحل، الآية (١٠٥).

(٤) سورة الزمر، الآية (٦٠).

ثقة الأمة بينها ويزرع الأحقاد والضغائن، والإنسان من حيث هو كغيره من بني البشر ميال إلى سماع الأخبار وروايتها والتحدث بها لكن المسلم من واجبه أن يتخلق بأخلاق الإسلام ويتأدب بأدب القرآن فلا ينساق ولا ينجر وراء الأخبار المشكوك في صحتها المطعون في رواتها.

وحيث أن مثل هذه الشائعات المغرضة المضللة قد تنظلي على بعض المسلمين وقد يصدقونها جعل الإسلام الضوابط لمصادر الأخبار وتلقيها وروايتها ومن واجب المسلم الالتزام والتروي ومحاولة التأكد من كل خبر قبل روايته أو تصديقه لما يترتب على ذلك من أضرار بالغة بالأمة.

وقد ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١) رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى.

ومن واجب المسلم المتأدب بأدب القرآن العامل بسنة رسول الله - ﷺ - أن يتثبت ويتبين ولا يحكم بحكم أو ينساق وراء إشاعة كاذبة أو وشاية مغرضة ليأمن على نفسه من الوقوع في الظلم والإفك والبهتان ولئلا يعرض نفسه للإثم وإخوانه المسلمين للظلم وقالة سوء... ونظراً لكون خطر الأخبار الكاذبة الملققة لا يأتي من جهة الفسق وحده بل قد يكون الرجل

(١) البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني / تحقيق الشيخ ابن باز / ١٠ / ٥٠٧ / في باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، وما ينهي عن الكذب. وصحيح مسلم بشرح النووي / ١٦٠١٦ / باب قبح الكذب وحسن الصدق طبعة دار الفكر بيروت. الطبعة الثالثة.

عدلاً وصادقاً وأميناً ومتحريراً للعدل لكنه لا يعرف كيف يتلقى الأخبار ولا كيف يميزها ويمحصها . . . والناس في سماع وترويج الأخبار أنواع شتى ولهم طرق ومسالك متباينة وقد يكون الرجل متحريراً الصدق عاملاً به دالاً عليه ولكنه ذو غفلة وليس لديه المقدرة الكافية في تمييز الأخبار والأشخاص فتدس إليه الأخبار الكاذبة وتنطلي عليه الإشاعات المغرضة والدعاوي الماكرة فينقلها إلى الغير عن حسن نية وسلامة قصد فيقع في حبائل الكذابين والمفترين وخير شاهد على ذلك مسألة حديث الإفك وما جره اليهود والمنافقون على المسلمين ونيهم وزوجته من بلاء ومحنة، وحيث أن التروي والتثبت وتمحيص الأخبار رجولة وفضيلة وأن ضبط النفس والتحكم فيها في مثل هذه المواقف هي من أقوى الدلائل على العقل والحيلة الدينية وحفظ للمودة والود، ومع الأسف الشديد فإن بعضاً من المسلمين ينساقون وراء الأخبار الكاذبة والشائعات المغرضة وبعض منهم مطايا للأفاكين والدجالين، فالكذابون مهرة ولهم طرق كثيرة ومسالك متعددة يقع بعض المسلمين في شركهم وحبائلهم وهو لا يشعر.

البحث الثاني

في

الإشاعات في الوقت الحاضر

والإشاعات والأراجيف تختلف من عصر إلى عصر ولم تكن في يوم من الأيام أشد مما هي عليه الآن، فقد تفنن الناس في الإشاعات والافتراءات، وصارت لونها من الدعاية المغرضة ترصد لها الأموال وتجند لها الطاقات والعقول ويمتطي لها الكثير من أصحاب الضمائر الميتة والأقلام المأجورة فيصوّرون الحق باطلاً والباطل حقاً، وقد تفننوا في دروب الغواية وأصبح لها فرسان يمتطون أيام الشدة ووقت الحاجة .

إن أسلوب الدعاية أو الوشاية هي من بين الأسلحة الفتاكة التي يجارب بها الأعداء المسلمين في كل وقت وحين وخاصة في وقتنا الحاضر حيث أصبح للكذب معامل ومصانع للكلمة الرخيصة الكاذبة حيث تدس سماً في الدسم للغافلين والأبرياء من المسلمين فتقع المصائب وتحل المظالم بأفراد الأمة وتتعرض أعراض المسلمين للأذى والوقية نتيجة للتساهل في نقل وتلقي الأخبار وعدم التثبت من مصادرها وما هذا التفرق والتمزق الذي أصاب جسم الأمة الإسلامية والقبيل والقال والقعود عن القتال والرضى بعيش الأذلاء البسطاء إلا نتيجة للإشاعات الباطلة والأقاويل الكاذبة التي وقع الكثير من المسلمين فيها وكننتيجة لهذا خافوا عدوهم وأكبروا عدده وعدته وصغروا في أنفسهم وكبر أعداؤهم في أعينهم واستسلم البعض منهم للواقع المرير الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وبهذا تحقق للأعداء مطالبهم وقرت بذلك أعينهم حيث أصبح عند البعض من المسلمين هزيمة نفسية لا يستطيع بسببها مواجهة الباطل ولا النطق بالحق وفي الوقوف في وجه

الشائعات وعدم الاهتمام بها وتصديقها فائدة كبيرة للأمة الإسلامية فهي مصدر قوي من مصادر الرعب والخوف والدمار النفسي للأمة الإسلامية ويستعملها الأعداء ضد المسلمين قديماً وحديثاً ابتداءً من يهود المدينة ومطيتهم الذلول بن أبي وحتى يومنا هذا فهي تحطم المعنويات وتقضي على المواهب وتصيب جسم الأمة بما يشبه الشلل فتعطل الحركة وتزرع في نفوس الناشئة الخوف والجبن والخور، أما الإشاعات فيما بين المسلمين فلها ضررها وخطرها فهي معول هدم وأداة فرقة وقيطعة ووسيلة هامة للتباعد والتناحر والتباغض . . . والأعداء يستعملون السلاحين جميعاً: سلاح الإشاعات الداخلية لتفريق الصفوف وتمزيق الصلات بين المسلمين وذلك بكثرة القيل والقال وزعزعة الثقة بين المسلمين فيما بينهم وهذا في الإشاعات التي تشغل المسلمين في أمور لا فائدة منها، وفي الوقت نفسه تفرق جمعهم وتباعد بينهم، هذا إلى أن الأعداء أيضاً يستعملون إشاعات أخرى أشرت إليها تتصل بتفوق الأعداء على المسلمين عدداً وعدة ونحو ذلك، وهذا حاصل ومشاهد في كل وقت وحين، فالواجب على المسلم أن يكون فطناً ويقظاً ولا ينساق وراء الشائعات مهما كان مصدرها وعليه التثبت والتبين والتحري . . . متأديماً بأدب القرآن متخليقاً بأخلاق الرسول - ﷺ - وخاصة من يترتب على تصديقه للشائعات أضرار المسلمين فعليه زيادة التثبت والتحري والدقة في تلقي الأخبار مباعداً للسفلة واللثام والمنافقين وتجار القيل والقال الذين لا يعمرهم مجالسهم إلا بأعراض المسلمين وأكل لحومهم بالباطل، وخاصة أصحاب الفضل والدين والمروءة . . . ومن كان هذا شأنه هابه الوصوليون واللثام والأفاكون والمنافقون والواشون بوجه عام وأقبل عليه وأنس بمجلسه الصالحون والمتقون الورعون الذين يحتاجون له ولأنفسهم ولا ينقلون من الأخبار ما هم في شك منه أو ليس فيه مصلحة للأمة أو يترتب عليه مفسدة جماعية أو فردية أو إلحاق ضرر بمسلم فيستقيم أمره وتصلح حاله ويثق الناس به وبمجلسه ويقبلون عليه ويأنسون به . . .

ومن أسلم قلبه وأذنه حاكمًا أو محكومًا لكل ناقل ولكل واش ولكل متناول عابث بأعراض المسلمين يتقرب بذلك ويجعل من أعراض المسلمين مادة سهلة للقليل والقال وليحظى عند الناس بالقرب والتمكين أوقعه في المهالك وعرضه للخطأ شأن الفساق في عدم التروي والترث في سماع الأخبار ونقلها وإيصالها إلى مختلف الطبقات ولذا ترتب على أخبار الفساق في كل وقت وحين مفاسد ومظالم لا حصر لها فزعرعوا الثقة بين المسلمين وزرعوا بذور العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وكما أسلفت فإن اليهود والمنافقين في كل وقت وحين هم رواد الرذيلة وأعداء الفضيلة، وهم السباقون إلى الإفك والإثم والبغي وقول الزور وهم الذين يلصقون التهم الباطلة والأقويل المغرضة بالمسلمين، ومع الأسف الشديد قد ينساق بعض المسلمين وراء أخبارهم ويتناقلونها عن حسن نية فيقع ما يشبه الشلل في جسم الأمة الإسلامية فينشغلون بأنفسهم عن أعدائهم الرئيسيين، وهذا مقصد خبيث ماكر قصده اليهود والمنافقون من وراء الإشاعات وترويجها، والله الهادي سواء السبيل .

وبهذا يتبين لنا الخطر الداهم الذي يدب في كيان الأمة فيصيبها بالتفكك والانهيار إذا ما انساق القائمون عليها وراء الشائعات، ومن ذلك يتضح لنا مدى ما يستفاد من حديث الإفك وما يمكن أن يسترشد به في حياتنا في كل مكان وزمان، ولا غرو فالسنة النبوية الشريفة هي النبراس الذي ينير لنا طريق الحياة التي تسير على وفق ما شرعه الله عز وجل لعباده حتى يكونوا من المفلحين وحتى يفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

الفصل السابع

في

توجيه القرآن الكريم للمسلمين إلى ما يجب أن يكونوا
عليه من صمود إزاء أمثال هذا الحادث

الصبحث الأول

في الدليل الوجداني على البراءة

وقد عاتب الله المؤمنين حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، فإن كان مثل هذا لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى^(١) حيث قال تعالى: ﴿ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾^(٢).

ولولا: معناه هلاً وهي للحث على الشيء وتأكيد طلبه وهو عتاب من الله تعالى لعباده المؤمنين في ظنهم لما قال أصحاب الإفك ما قالوا في عائشة - رضي الله عنها - قال ابن زيد: ظن المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بأمه وقيل: معناه أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة وصفوان أبعده^(٣).

قال ابن كثير^(٤) - رحمه الله تعالى - : هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة - رضي الله عنها - وهو عتاب لجميع المؤمنين^(٥) . . . فالقرآن الكريم يوجه المسلمين ويرشدهم إلى الطريق الصحيح وإلى المسلك القويم في هذه وغيرها أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وأن يستبعدوا وقوع أنفسهم في مثل هذا، وحيث أن امرأة نبيهم وحيبته نقية عفيفة طاهرة لا يمكن أن يقع منها مثل هذا، وقد اختارها الله لنبيهم

(١) ابن كثير/٣/٢٧٣/.

(٢) سورة النور، الآية (١٢).

(٣) القرطبي/١٢/٢٠٢/.

(٤) ابن كثير/٣/٢٧٣/.

(٥) فتح القدير للشوكاني/٤/١٤/.

لتكون زوجة له في الدنيا والآخرة، وأخوهم الصحابي الجليل والمجاهد الشجاع هما من أنفسهم فظن الخير بهما أولى وأحرى . . . وأن ما لا يليق بهم لا يليق بزواج رسول الله - ﷺ - وكذلك لا يليق بصاحبه الطيب العفيف الذي قال عنه الرسول: «لا أعلم عنه إلا خيراً» . . . وقد قدمت كلام أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته - رضي الله عنهما - كما روى ذلك الإمام محمد بن إسحاق أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة - رضي الله عنها - قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله . . . قال: فعائشة والله خير منك . . . وقال الإمام الزمخشري في تفسيره: إن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله - - سوءاً؟ قال: لا . . . قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة - رضي الله عنها - ما خنت رسول الله - ﷺ - فعائشة خير مني وصفوان خير منك^(١) .

قال في الانتصاف^(٢): قال أحمد: ولقد ألهمت بنور الإيوان إلى هذا السر الذي انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمن بالنفس فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان ونفسها منزلة عائشة ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة حتى أثبتتها لعائشة وصفوان بطريق الأولى - رضي الله عنها - قال الزمخشري: فإن قلت هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر قلت ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات وليصرح بلفظ الإيوان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى ألا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا

(١) تفسير الكشاف/٥٣/٣، والقرطبي /١٢/٢، /٢٠٢، وابن كثير/٣/٢٧٣/

والخازن/٣/٣٢٣، والطبري/٨/٧٧/.

(٢) الانتصاف على الزمخشري /٥٣/٣/.

طاعن، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير (هذا إفك مبين) هكذا بلفظ المصريح ببراءة ساحته كما يقول المتيقن المطلع على حقيقة الحال، وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له^(١).

قال في الانتصاف أيضاً: ويحتمل خلافه ما قاله الزمخشري، وهو أن يكون التعبير بالأنفس حقيقة والمقصود إلزام سيء الظن بنفسه لأنه لم يعتبر بوازع الإيمان في حق غيره وألغاه واعتبره في حق نفسه وأدعى لها بالبراءة قبل معرفته بحكم الهوى لا بحكم الهدى^(٢).

قال في ظلال القرآن بعد ذكر رواية ابن إسحاق وما نقله الزمخشري من محاورة أبي أيوب وزوجته «وكلتا الروائيتين تدلان على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه فاستبعد أن يقع ما نسب إلى عائشة وما نسب إلى رجل من المسلمين من معصية الله وخيانة لرسوله وارتكاس في حماة الفاحشة لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة.

وقال: هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور، خطوة الدليل الباطني الوجداني.

(١) الكشف للزمخشري / ٥٣/٣.

(٢) الانتصاف على الزمخشري / ٥٣/٣.

البحث الثاني في البرهان الواقعي

فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون»^(١).

إنهما خطوتان جديرتان بالاهتمام من المسلمين، الأولى: عرض الموضوع على القلب، وهل يمكن أن يقع مثل ذلك من عائشة مع جلالها وطهرها وعفتها وهي أيضاً زوجة أكرم إنسان على الله؟ وهل يمكن أن يقع مثل ذلك من الصحابي الجليل المجاهد المهاجر الشجاع الذي يشهد له الرسول - ﷺ - أنه لم يعرف عليه إلا خيراً؟

إن حديث الإفك تطاول أصحابه إلى أعلى المقامات ولم يتورع المنافقون فيه عن شيء، والأمر سهل جداً وميسور فلا يعدو أن يكون تخلف امرأة عن الركب فمر بها رجل من الركب أيضاً فأركبها حتى وصلت، وكان تخلفه من قبيل المصادفة وهذا جائز ومعقول إذا كان الرجل والمرأة من عامة الناس، أما إذا كانت المرأة والرجل من أهل بلدة واحدة وكانت هي أيضاً زوجاً أو بنتاً أو أختاً لأحد أقاربه أو أصدقائه أو جيرانه، فإن الأمر أيضاً سيكون أشد ومسئولية الرجل تجاههم أعظم... هل ياترى يتركها في البرية وحدها أم ماذا يفعل؟

إن الذين تصوروا هذا التصور وظنوا ذلك الظن من المنافقين قد زاغت

(١) في ظلال القرآن / ٦ / ٧٩ .

عقولهم وفسدت ضمائرهم وأظلمت قلوبهم فهي لا تبصر الهدى ولا تعقل الحقيقة وتصورهم هذا قدر ومنحط ولا أخلاقي وليس عملياً، وهو من السخف والسفاهة بمكان وإلا فأين الشهامة والمروءة والنجدة وفعل المعروف، أمور كلها معروفة عند الأعرابي الجلف فكيف الصحابي الجليل؟

ولهذا يصح أن يقال عن الذين تفوهوا بمثل هذا الكلام أو رأوه مما يشك فيه قد ظنوا أسوأ ما يكون من الظن بأنفسهم وبمجتمعهم الذي يعيشون فيه، فما كان يصح ولا ينبغي للمؤمنين الصادقين أن يقولوا ذلك ولا أن يعتقدوا صحته ولا يتفوهوا به فهو إثم وبهتان ومحض افتراء وأكاذيب ساقطة ملففة لاسيما وأنها من جملة غارات المنافقين على الدعوة وصاحبها ومن سلسلة مؤامرتهم وأحقادهم فهو كلام ساقط وقدر صدر من نفوس هابطة وقلوب حاقدة، فواجب المسلمين دائماً وأبداً أن يقولوا عند سماع مثل هذه المفتريات وبدون تردد أنه كذب محض وافتراء واضح وبهتان عظيم (سبحانك هذا بهتان عظيم) لا أساس له من الصحة والواقع والمشاهد من حال بيت النبوة يرده ويكذبه ويسقطه من أساسه قال بعض العلماء لسائل أن يسأل إذا كان الرسول - ﷺ - وأبو بكر وغيرهم يعلمون جيداً طهارة وعفة عائشة وأنها ليست محلاً للثلب والعيب وخاصة أنهم أيضاً يدركون صلاح وتقوى وعفة صفوان، فلماذا لم يكذبوا وينفوا الخبر منذ اللحظة الأولى من سماعه؟

ولماذا اهتموا به هذا الاهتمام؟

قال العلماء: ليست منزلة الزوج في أمر زوجته ولا منزلة الوالد في أمر بيته مثل منزلة غيرهما من الناس ولا شك أن الزوج هو أعلم الناس جميعاً غالباً بأحوال زوجته وسلوكها وما هي عليه ولا يمكن أن ينساق العاقل وراء أقاويل الناس وافتراءاتهم بشأن زوجته الصالحة، إذ قد تكون مثل هذه الأقوال ناشئة عن أحقاد وضغائن سلك أصحابها هذا المسلك

المشين للانتقام وتشويه الصورة، كما حصل لعائشة رضي الله عنها، وقالوا أن الرجل إذا اتهمت زوجته يكون في مأزق شديد الحرج لأنه وإن كذب الناس فهم لن يكفوا عن الكلام ويقولوا إنه يدافع بدافع الحب والميل لها ولا يرى عيوبها ومثالبها وكذلك الوالدان يقولون: إنهم لا يرون ما ينسب إلى أولادهم صحيحاً بدافع المحبة وعاطفة الأبوة، وهذا ما جعل الرسول وأبا بكر وأم رومان يمسكون عن القول الكثير والمجابهة العلنية . . . وقد يكون الرسول رأى في فعله هذا خيراً أكثر. . . والعامل يحاول دائماً وأبداً حصر المشكلة وتضييق نطاقها ما أمكن^(١)، حرصاً على الصالح العام ولا أدل على اعتقاده - ﷺ - التام ببراءة عائشة وعفافها من خطبته في المسجد - كما قدمت - حيث قال: أيها الناس: «ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي» كما هو مروى عن عائشة وذلك منه - ﷺ - تبرئة لعائشة وصفوان معاً، وقد قدمت أن الأمر لا يعدو أن يكون تخلف امرأة عن الركب أتاها أحدهم بطريق المصادفة البحتة فأركبها حتى أوصلها إلى عامة الجيش، ولو كان بينهما شيء لما أتى يقودها جهاراً نهاراً. . . إنها الفطرة السليمة والإيمان القوي الثابت ثبوت الجبال الرواسي - وأعني بذلك عائشة وصفوان - وهذا كله واضح ومشاهد، فهو مما ألفه الناس واعتادوه في حياة العرب قديماً في مسير الركب وكان حفظ الذمار والوفاء للجيران والمعارف وغيرهم أيضاً من الصفات الأصلية الثابتة في العربي - وخاصة المسلم - فهذه الدنيا وتلك الخسائس والفضائح والقبايح لم تكن من طبعهم ولا كانت معروفة لديهم، بل ينفرون منها ويستقبحونها ويمقتونها ويكرهون فاعلمها أشد الكراهية، وهي صفات عرفت عنهم في الجاهلية والإسلام، وقد قدمت كلام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -

(١) يراجع تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي / ١٣٠ / .

«والله ما رمينا بهذا في الجاهلية، أفرمى به في الإسلام».

قال الشاعر العربي:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

ولقد كان الصحابة الكرام يحترمون الرسول ويجلونه غاية الاحترام والإجلال ويعتبرونه بمثابة الأب لهم، وأزواجه بمثابة أمهات لهم «وأزواجه أمهاتهم» . . . فكيف يسمعون القرآن يقول ذلك ومع ذلك لا يتورع أحدهم عن إتيان أمه . . . إنه كلام ساقط وتافه وردىء وسافل انبعث من نفس دنيئة رخيصة هابطة مارست البغاء ورضيت به حرفة وأسلوب حياة ورجل كان يطعم نفسه وأولاده من أجور البغايا لا يستغرب منه مثل ذلك فهو خسيس ماكر فاجر تأثر ببضاعته وانطلق من حرفته وتأقلم بجو العهر والفساد وقبيح الفعال، وكما أسلفت القضية عادية جداً ومألوفة ومعروفة عند العرب جميعاً، وهي من قبيل الوفاء وحفظ العهود التي امتازوا بها، ولكن تبني المنافقين لها أحاطها بهذه الدعاوي الباطلة والأراجيف المغرضة، ومن أمثلة ذلك قصة أم سلمة وقد حال قومها بينها وبين زوجها أبي سلمة لثلاث تهاجر معه إلى المدينة فكانت - رضي الله عنها - تخرج كل غداة إلى الأبطح، فماتزال تبكي حتى تسمي، وذلك حوالي السنة حتى عطفوا عليها ورقوا لها وقالوا ألحقي بزوجك إن شئت فارتحلت بغيرها وما معها أحد فلقبها عثمان بن طلحة الدارمي فرثى لها فأخذ بخطام البعير فانطلق معها إلى المدينة . . . قالت أم سلمة: «والله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجر» وقالت: «فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة»^(١) . . . وهذا الفعل حصل منه قبل أن يسلم

(١) تاريخ ابن كثير/٢/٢١٥، ٢١٧/

- أعني عثمان بن طلحة - فإذا كان هذا عمل رجل لازال على جاهليته فكيف الحال بالمسلم المهاجر المجاهد الشهم الهمام ذي الخصال الحميدة والصفات الفريدة، لاسيما وأنه ليس له رغبة في النساء كما تقدم .

إنه درس بليغ ورائع وأدب رفيع كامل، أدب به جلّ وعلا عباده المؤمنين، وتوجيه سليم نافع للأجيال اللاحقة إلى يوم الدين، ولقد صمد كبار الصحابة، بل كلهم إلا ما ندر - كما أسلفت - أمام هذا الحادث الأليم الكاذب، ولا أدل على ذلك من قول عمر: «أنا قاطع بكذب المنافقين لأن الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك لأنه يقع على النجاسات يتلطح بها، فلما عصمك الله من ذلك القدر فكيف لا يعصمك عن صحبة من تكون متلطخة بمثل هذه الفاحشة» . . . وقال عثمان - رضي الله عنه - «إن الله ما أوقع ظلك على الأرض لئلا يضع إنسان قدمه على ذلك الظل، فلما لم يمكن أحداً من وضع القدم على ظلك كيف يمكن أحداً من تلوين عرض زوجتك» . وكذا قال علي - رضي الله عنه - «أن جبريل أخبرك أن على نعليك قدراً وأمرك بإخراج النعل من رجلك بسبب ما التصق به من القدر فكيف لا يأمرك بإخراجها بتقدير أن تكون متلطخة بشيء من الفواحش»^(١) . . . وقد مرّ كلام أبي أيوب مع زوجته . . . وهكذا كان حال الصحابة وموقفهم من هذا الحديث أما القرآن فقد وجه المسلمين عامة وإلى قيام الأشهاد بما يجب أن يكونوا عليه من صمود أو عدم اكتراث بأقوال السفلة ودعاة الرذيلة أصحاب الأحقاد والضغائن المبيتة ضد الإسلام وأهله، فالإيمان الصحيح يجب صاحبه عن قول السوء وردية الكلام وفاحش القول وردية الخصال وقبيح الفعال ولا أقبح ولا أسوأ من تلوين وتلطيح عرض المسلم وتشويه سمعته وتسويد صفحته ونزع الثقة منه، فهو عزيز وكريم عند الله . . . كما جاء في الحديث إن الإيمان الصحيح يقتضي

(١) مدونة التنزيل بها مش الخازن/٣/٣٢٢/.

من المسلم ألا يصدق على أخيه قول عائب ولا طاعن، وهذا من الأدب الرفيع والخلق الكريم والطبع السليم . . . وهذا التوجيه الرفيع ورد في الآيات التالية :

﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين لولا جاءو عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم، إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾^(١).

(١) سورة النور، الآيات (من ١٢ - ١٩).



الفصل الثامن

في

شبهات المستشرقين والرد عليهم

وفيه مباحث

المبحث الأول

في مقدمة عن الاستشراق والمستشرقين

إن أعداء الإسلام وخصوم هذا الدين كثير ومن ذلك مثلاً ما بينته قبلاً عن جبهة المنافقين واليهود الأعداء الرئيسيين لهذا الدين . . . وبمرور الزمن وتعاقب الأجيال ظهر أعداء آخرون كثيرون لهذه الدعوة وصاحبها - عليه الصلاة والسلام - وليست المعارضة لهذا الدين أشكالاً شتى وأزياء مختلفة، وهي كلها تلتقي عند نقطة واحدة وهي التصدي للإسلام وأهله بمختلف الطرق وشتى السبل .

والهجوم على الإسلام يختلف من حال إلى حال ومن عصر إلى عصر ومن مصر إلى مصر . . . فالأعداء دائماً وأبداً مستعدون للطعن والثلب حسب المواقف والظروف .

إن ضعف المسلمين واختلافهم أحياناً وتفرق كلمتهم وتباين أوطانهم وصعوبة إتصال بعضهم ببعض الآخر وميل البعض منهم إلى الحياة الدنيا ومتاعها وتفضيل العاجل على الأجل وسلبية البعض خاصة العلماء منهم أمور كلها مكنت الأعداء من رقابهم وسهلت السيطرة عليهم والتصرف في شئونهم .

وكنتيجة لا مفر منها لهذه الأمور وغيرها وجد الأعداء الفرصة سانحة ومواتية للإفك والزور والبهتان والتجني على الحقيقة والكذب على الله ورسوله فتعددت الجبهات المعادية وكثر الأفاكون والدجالون ودعاة الرذيلة والفسق والمجون والإباحية .

وأشد هذه الفئات الضالة خطراً هم أولئك الذين يوقعون الشبه والشكوك في أذهان بعض المسلمين وخاصة الناشئة منهم أو الذين لم يتم

تحصينهم بعد ضد افتراءات المفترين وكذب الأفاكين وزيف الحاقدين وشبه المضللين .

وخصوم الإسلام ومناوئوه لا يهدأ لهم بال ولا يستقر لهم قرار ولن يهتوا إلا بتحقيق أغراضهم الفاجرة والوصول إلى أهدافهم الماكرة الحاقدة، فقد ملئوا الدنيا ضجيجاً وإفكاً ولازالت حملاتهم المسعورة الواحدة تلو الأخرى، ومنذ فجر النبوة إلى يومنا هذا، وخاصة في أوساط الشباب ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم .

ولقد توالى وتلاحقت جهود المبشرين المضللين والمستشرقين الحاقدين وكثرت أقوالهم وتعددت مؤلفاتهم وانهالت أباطيلهم وسمومهم وسهامهم الغادرة وتجاوزت مؤلفاتهم وأقوالهم أحياناً حدود الأدب وبلغوا درجة غير محمودة من الإسفاف والتجني - وكما أسلفت - كان دافعهم الحقد والبغض والكره لهذا الدين وأهله، وأيضاً فإن مؤلفاتهم وأقوالهم الموجهة للنيل من هذا الدين ينقصها الدليل، فقد بنيت على ما في نفس أصحابها من حقد وكره للإسلام وأهله .

وأيضاً فإن بعضاً من هؤلاء المفترين الضالين يظهرون لبعض البسطاء وأنصاف المتعلمين وبعض شباب المسلمين غير المحصنين بمظهر الدارس المنصف المتعمق الباحث عن الحقيقة وهذا النوع يكون غالباً قد طالع وبحث وحاول التعمق في بعض الكتب الإسلامية ليعيها وينتقصها ويقلل من شأنها فهو باحث عن العيوب والنقائص وهي والحمد لله غير موجودة أنى له بذلك فهو تنزيل من حكيم حميد، عالم بصير بشئون خلقه وما يصلحهم لكنهم - وبحكم معرفتهم وخبرتهم في الدجل والكذب والزيف والافتراء - يحاولون إيجاد العيب وفرضه فرضاً وهم يعلمون أنه غير موجود وأنهم كاذبون أفاكون مفترون، وهذا النوع من أعداء الإسلام هم أخطر الأنواع وأشدّها فتكاً بعقول الشباب وغير المحصنين كما أسلفت .

ومن العجيب والغريب أن ينخدع بأقوالهم بعض المسلمين فيتناقلونها ويروجونها على أنها دراسة واعية ودقيقة وتمت من قبل أناس متخصصين ومتجردين . . . والأسوأ من ذلك ما يقوله بعض البسطاء وبعض من المخدوعين المغرر بهم من أبناء الأمة الإسلامية . . . أنهم خدموا الدين ودرسوه دراسة عميقة واعية ودقيقة وقدموا خدمة لا تنكر، وهم في الحقيقة مخطئون ومغرر بهم، فهم - وكما هو معلوم من ألد الخصوم لهذا الدين وعداوتهم دينية ثابتة الجذور - وهم لا يبحثون عن الحقيقة وغير متجردين بل همهم الوحيد إثارة الشبه والشكوك وبث مختلف الأقاويل والأراجيف الباطلة المضللة . . . ولقد دأبوا على ذلك حيث همهم الوحيد تشويه الحقائق الإسلامية وطمس المعالم الربانية والتقليل من شأن هذا الدين وإظهاره بصورة تنفر الناس منه وتوجد الشبه والشكوك بين صفوف المسلمين .

ومن خطل الرأي وضعف البصيرة أن نطلب من المستشرقين غير هذا فهو عدو ماكر في الأعم الأغلب وإن كان بعض منهم قد قال الحقيقة أحياناً فهي لا تبرؤهم من الحقد وعدم التجرد .

إن وظيفة الاستشراق تفرض في الأعم الأغلب على أصحابه هذا وأكثر منه، فهم طلائع الغزو الفكري والعسكري للعالم الإسلامي، فهم لا يريدون الانصاف ولا تمهم الحقيقة المجردة، إن التجرد والانصاف والبحث عن الحقيقة ليست من طبعهم ولا من وظيفتهم التي كثفوا جهودهم ونذروا أنفسهم من أجلها، والمستشرقون في الأعم الأغلب قوم مأجورون مسيرون ومسخرون للنيل من الإسلام وتهوين أمره واحتقاره وتقليل شأنه في نفوس أهله أولاً وإظهاره للعالم أجمع بمظهر يغيّر حقيقته وجوهره ولبه ومضمونه كدعوة عالمية أصيلة ذات مثل وأحكام ثابتة أتت لخير الإنسانية جمعاء تنزيل من حكيم حميد .

وقد قلت في مستهل هذا الفصل : أن من العوامل المساعدة والمروجة لأفكهم وبهتانهم وتعلق البعض من البسطاء وأنصاف المتعلمين بهم حب بعض أدعياء الثقافة والمعرفة في بلاد الإسلام لهم وترويج أفكارهم وكيل المديح جزافاً لهم وبدون تعقل ولا تبصر من أنهم خدموا الدين واللغة وأثروا الثقافة العربية الإسلامية .

إنها أقوال غير صحيحة ودعاوي كاذبة أوقعت الكثير من شباب الإسلام في حباللهم ومصائبهم الغادرة الماكرة . . . إن تعصبهم لدينهم وبغضهم السافر للإسلام أوقعهم في تلك الأخطاء الشنيعة الفاحشة ، فهم ليسوا علماء بالمعنى الصحيح المتعارف عليه حتى يناقشوا الحقائق العلمية بل هم من أدعياء العلم والمتطفلين على الثقافة الإسلامية . . . ولو سلمنا جدلاً أن الواحد منهم حاول التجرد - وهو أمر بعيد بالنسبة إليه - فإنه لا يستطيع إدراك الحقائق الإسلامية الثابتة من تلقاء نفسه ، فهو جاهل بها ، غير ملم بجميع أطرافها ، وبذا فإنه لن يحصل على نتيجة مرضية بجهوده وحده بل لا بد أن يقرأ ويتجرد ويسمع كلام العلماء الموثوقين المتخصصين ويتنصل من جميع موروثاته ومعتقداته التي تخالف الإسلام ، ويكبح جماح نفسه ويروضها على قبول الحق والإذعان له ، فهم في حقيقة الأمر حاقدون مغرضون يقدمون حكم الهوى على حكم الهدى .

إن التخبط والعشوائية التي يعيشها المستشرقون الضالون يدفعهم أيضاً الكره لهذا الدين هي التي أوقعتهم في تلك الأخطاء الكبيرة ونزعت ثقة الناس منهم ، فهم مسيرون ومسخرون لخدمة أسيادهم سواء منهم من جندوا لخدمة النصرانية أو غيرها .

إن بعضاً من الدول الأجنبية الغنية تمد هؤلاء بالمال الوفير وتيسر لهم سبل السفر والاتصال بالعالم الخارجي ويستخدمون من أجل ذلك مختلف الوسائل المادية والمعنوية .

إن ثعابين البشر ولصوص الثقافة وأدعياء العلم قد كسروا عن أنيابهم وعملوا جاهدين على إفراغ سمومهم في جسم الأمة الإسلامية وجندوا لذلك ومن أجل ذلك كل وسيلة ممكنة وعلى مختلف الأصعدة وكل المستويات . . . إنها حملات مسعورة، حملات صليبية منظمة لا تقل خطراً وفتكاً عن سابقتها.

إن جميع إرسالياتهم ومؤسساتهم العلمية والعلاجية كلها تدور على محور واحد: هو الاستشراق - والذي قلنا عنه أن القصد منه هو التضليل والدجل والكذب والافتراء وصد الجماهير المؤمنة عن الإسلام وتشويه حقائقه ومثله ومبادئه السامية والتشكيك في صلاحيته ومسائرته للحياة الحاضرة.

إن الغموض والتخفي وعدم إظهار الهدف لعموم الناس من وسائلهم . . . ولقد استغل هؤلاء الحاقدون كثيراً من وسائل الإعلام للتعبير عن آرائهم الفاسدة وأفكارهم الحاقدة وعملت بعض الصحف المأجورة والأقلام الضالة لترويج أفكارهم وافتراءهم وضلالهم في كثير من بلاد المسلمين.

إن الغارة على العالم الإسلامي لن تهدأ وهؤلاء الذين نتحدث عنهم هم طلائع هذه الغارة وقوادها وهم الذين يمهدون السبيل للغزو الفكري وما يتبعه من احتلال عسكري، إنهم يعملون وبلا هوادة على تضليل الشعوب الإسلامية وخاصة شباب المسلمين بحيث تفقد الأمة الإسلامية إيمانها شيئاً فشيئاً، وبمرور الزمن وتعاقب الأجيال ينشأ جيل من أبناء المسلمين متأثراً بهؤلاء مفتوناً بأفكارهم وضلالهم، وهم يظهرون للسذج والبسطاء بمظهر الباحث الموضوعي المحايد، وبذلك يكسبون ثقة هؤلاء المخدوعين المفتونين بكل جهد وإنتاج غير إسلامي.

إن التعلق بالأجنبي والافتتان بآثاره وكتاباتهِ - وإن كانت عقيمة ضحلة - هي مما ابتليت به الأمة الإسلامية .

فبعض القراء المسلمين يهتم كثيراً بكتابات غير المسلمين ويجلها ويعتبرها في الدرجة الأولى وفي المقام الأول وفصل الخطاب، وهم في مخططهم الفاجر يوصي بعضهم بعضاً بالحذر التام ولزوم الحياد الظاهري وإفراغ سمومهم في جسم الأمة الإسلامية بحذر تام لئلا يكشف أمرهم ويتبين مخططهم ومقصدهم فينفر المسلمون منهم ومن كتاباتهم وتتحرك أقلام وألسنة المسلمين للرد عليهم وتفنيدهم وأفكهم وبهتانهم .

إن ظهورهم لعامة المسلمين بمظهر الناقد البصير ذى المستوى العالى الرفيع هي إحدى المصائد والمكائد التي أوقعوا فيها كثيراً من أبناء المسلمين فشايعهم وعانقهم وافتتن بأفكهم وفجورهم وضلالهم .

إن بعضاً من هؤلاء الضلال يخرج عن الخط المرسوم له في التخفي والاستتار ما أمكن فيهاجم الإسلام ويبالغ في سبه وثلبه وكما قيل :

قد يكتم المرء أسرارهِ فتظهر في بعض أشعــــــــــــــــاره
وقول الآخر :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تعلم

إن تحريفهم للتاريخ الإسلامي لواضح ومشاهد، وكذلك تقليلهم للدور الذي أداه الإسلام في جميع المعارف الإنسانية وهم يعلمون قبل غيرهم أنهم من الكاذبين ولكن أعماهم الهوى والتعصب البغيض .

وإذا كان الاستشراق في بدايته قد قام به الرهبان والمبشرون ثم حمله معه وأمده بما يحتاج إليه الاستعمار الحاقد فكيف يرجى منه الخير؟ إنه شر

مستطير وبلاء كبير ابتليت به الأمة الإسلامية . . . إنها حملة صليبية عدوانية تستهدف طعن قلب الأمة الإسلامية، فهل من واع؟ وهل من مجيب؟ إن الحذر منهم واجب والتحصن ضدهم ضرورة ملحة . . . إن مهمتهم التي جندوا من أجلها تفرض عليهم جميعاً أن يقفوا في خط واحد وخذق واحد لمواجهة الإسلام ومحاربتة بكل ما يستطيعون، وسلاحهم في ذلك الكذب والدجل والإفك والافتراء وتشويه الحقائق وطمس المعالم مستغلين أحياناً تلك الروايات الضعيفة الملفقة والمدسوسة على كتب التراث الإسلامي، إن الإسرائيليات والروايات المكذوبة والقصاص الملفقة هي مادتهم وسلاحهم ومعتمدتهم، بها يصارعون الحقيقة ويواجهون كلمة الحق وهم قبل غيرهم يعلمون كذبها وبطلانها ولكنهم بحكم عملهم وما كلفوا به من تشويه للحقائق رفعوها عالياً وأكبروها وانطلقوا منها وهي بحمد الله تصدى لها العلماء المحققون قديماً وحديثاً وتعبوا أشد التعب في التحقيق والتمحيص وبيان الحقيقة وتتبع آثار الوضاعين والأفاكين والدجالين وسائر أعداء الإسلام فصنفوا كتب الجرح والتعديل ووضعوا - رحمة الله عليهم أجمعين - قواعد ثابتة ودقيقة لمصادر الأخبار وأحوال الرواة جمعت الدقة والشمول والإحاطة وسخروا أنفسهم ووقتهم وجميع ما يملكون لخدمة هذا التراث وتمحيصه . . . وعلى الرغم من جهود العلماء المحققين وتصديهم لتلك الروايات والإسرائيليات المكذوبة الملفقة فقد بقي كثير من تلك الأخبار الضعيفة والإسرائيليات متفرقة في بطون الكتب . . . انظر مثلاً ما كتبه المستشرقون حول زواج الرسول - ﷺ - - بزینب، حيث صوروا المسألة بصورة تدعو إلى السخرية منهم ومن كلامهم الساقط الواهي، أين هم والموضوعية التي يدعونها والتجرد الذي يزعمونه؟ إنهم بعيدون كل البعد عن الصدق والانصاف وتحري الحقيقة والواقع .

يقول الدكتور جواد علي: «أخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في

إصدار الأحكام في تاريخ الإسلام وتأثرهم بعواطفهم لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان وحكمهم بموجبه وإصدارهم أحكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو المتشابهة مع قولهم بوجوب استعمال النقد وباحتراسهم في الأمور ووجوب التأكد من معرفة الأخذ قبل الحكم عليه، وآية ذلك أن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات اللاهوت، وإنهم وإن تطرقوا إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام حاولوا جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصراني وطائفة المستشرقين من يهود، وخاصة بعد تأسيس إسرائيل وتحكم الصهيونية في غالبيتهم يجهدون أنفسهم لرد كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء^(١).

وهذا الذي قاله الدكتور جواد علي ملموس ومشاهد، فهم أصلاً مارسوا مهنة الاستشراق في الأعم الأغلب للنقد غير النزيه وغير الموضوعي وللبحث عن مواطن الضعف في أقوال المفسرين والمؤرخين فيحتجون بتلك الأقوال والأخبار ويروجونها ليطعنوا بها الإسلام والمسلمين ويشككوا المسلمين في دينهم ويصرفوا الناس عنه.

وقال الدكتور جواد علي أيضاً: أن كثيراً من المستشرقين غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول - ﷺ - ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي . . . وطريقة مثل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشاذ والغريب فقدموه على المعروف المشهور، واستعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا إلى نشوذه، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك.

(١) دراسة في السيرة النبوية للدكتور عماد الدين منجليل / ١١، ١٢ / .

ومهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول - ﷺ - فإن سيرة الرسول هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء .

والذين يؤخذون المستشرقين على سلوكهم هذا المسلك من النقد يؤخذون كذلك من يحاول من المسلمين كتابة التاريخ متأثراً بعاطفته وهواه فهم لا يريدون توجيه اللوم إلى المستشرقين وحدهم لتأثرهم بعاطفتهم ثم يتركون من يركب هذا المركب من الشرقيين دون لوم ولا تعنيف^(١) .

إن التعصب والتحامل والبغض والكرهية هي مادة المستشرقين العلمية وهناك عوامل أخرى منها تأثرهم بالحروب الصليبية وقلة معرفة البعض منهم باللغة العربية ومدلولاتها وقلة المصادر الإسلامية عند البعض منهم وعلى الرغم مما سقته عن المستشرقين وهجومهم السيء على الإسلام ونبيه إلا أننا قد نجد أناساً معتدلين منهم نوعاً ما حاولوا أن يقدموا دراسة أقرب ما تكون إلى الموضوعية وإن كانت ليست تامة حيث أن الهوى والتعصب يسيطران على الجميع إلا أن هذا النوع لا يمكن أن يؤخذ دليلاً على حسن نية المستشرقين وسلامة قصدهم فهم قليل والغالبية العظمى من المستشرقين ينطبق عليهم ما أسلفت إلا أن الدكتور عماد الدين خليل له رأي في هذا بعدما ساق كلاماً كثيراً ونقولاً مختلفة عن المستشرقين وأخطائهم وتحاملهم ضد الإسلام فقال : «ومن المستشرقين أنفسهم من دفعهم جدهم وموضوعيتهم وهم ليس بالقليل إلى نقد وتفنيذ الأخطاء المنهجية التي مارسها رفاقهم في دراسة التاريخ عامة وحياة الرسول خاصة وإلى تعرية الدوافع التي تكمن وراء موقفهم هذا سواء كانت محتشدة في الوعي أو منسوبة في اللاشعور . . . » لقد رأى «رينيه» أنه من المتعذر - إن لم يكن من المستحيل - أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة

(١) دراسة في السيرة النبوية للدكتور عماد الدين خليل / ١٢ / .

وأنهم كذلك بلغ تحريفهم لسيرة النبي - ﷺ - والصحابة مبلغاً يغشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها . . . ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد فإننا نلمس من خلال كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية - إذا كان المؤلف ألمانياً - وبلهجة إيطالية - إذا كان الكاتب إيطالياً - وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب . . . وإذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فإننا لا نكاد نجد لها من أثر.

إن المستشرقين يقدمون لنا صوراً خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة . . . إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال «ولتر سكوت»، «اسكندر ريماس»، وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة، أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة فصوروهم حسب منطقتهم الغربي وخيالهم العصري، وأن الدكتور «سنوك هير غرنجة» ليقول بحق في نهاية نقده لكتاب المستشرق غريم: «إننا نرى أن الأستاذ غريم لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها بعمق لكان أفضل وأن الثمار التي يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس هي أجدر ببلوغ الغاية التي توخاها، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة وأراد أن يطرف الناس بنياً جديداً ففشل في وضع السيرة النبوية^(١).

إن كثيراً منهم شوهوا كتبهم وأفسدوها بالنقد غير الموضوعي والتعامل غير المعقول وأصبح الكثير من جهودهم لا قيمة له بعد ما تبين انسياقهم وراء عواطفهم وأهوائهم وما تملية عليهم أحقادهم وصفاتهم ومورثاتهم

(١) دراسة في السيرة النبوية للدكتور عماد الدين خليل / ١٤ / .

مضافاً إلى ما أسلفته من تجنيد الحكومات الغربية والشرقية لهم وإمدادهم بالمال وتيسير سبل إفسادهم بكل ما يستطيعون، فهم يشككون الناس في أحاديث الرسول ويرفضون كل رواية لا يؤيدها القرآن على حد زعمهم الفاسد وأيضاً فإن الكلام الساقط البذيء أحياناً الذي يردده بعض المستشرقين لم يكن مقصوداً عليهم وهدفهم بل أن كثيراً من الباحثين الغربيين وقع في الأخطاء ذاتها - أو أعظم منها - التي وقع فيها المستشرقون حيث الدافع واحد والمنهج واحد والطريق مشترك فهم يلتقون عند نقطة واحدة هي محاولة هدم الإسلام وطمس معالمه النيرة وصلاحيته كرسالة عالمية أتت للبشرية جمعاء .

إن مناهج البحث الغربية التي تدعي لنفسها إفكاً وزوراً التجرد والموضوعية والنزاهة وسلامة القصد وبعد النظر يتحقق لها ذلك ويعترف لها به لو سلكت الطريق الصحيح وقدمت حكم العقل والمنطق على حكم الهوى والتعصب وما تمليه عليها مورثاتها وحكوماتها الحاقدة، ولذا أصبح الباحث الغربي في الأعم الأغلب بالنسبة لكتابة التاريخ الإسلامي ومناهج البحث المتعلقة بالتراث الإسلامي يهرف بما لا يعرف ويتحامل ويتقول وهو يعلم قبل غيره أنه من الكاذبين فهم يشككون في مسألة الإسراء والمعراج وهم كلام ساقط في هذا لا يرقى إلى الأسلوب العلمي الصحيح ينبىء عن حقد أصحابه وتحاملهم وكذبهم وافترائهم، وكلام آخر لبعضهم حول فتح مكة، وغير ذلك من غزواته وأيامه المشهودة - ﷺ - حتى أن البعض منهم حمله الحقد والهوى أن يصور الرسول في المدينة بصورة لا تليق بمكان النبوة ومنزلة الرسالة فيقول البعض منهم: أن محمداً في المدينة يعيش على التلصص والسلب والنهب .

إن ترجمة كتبهم إلى اللغة العربية وطرحها في الأسواق الإسلامية وجعلها في متناول يد الناشئة والقارئ غير المحصنين بوجه عام دون أن تقرن

بالردود الكافية الشافية وبأقلام الثقات من العلماء المسلمين لهي مما يساعد على ترويح أفكارهم الضالة وشبهاتهم الحاقدة، فهم ولاشك إنما يصدرون الأحكام في الأعم الأغلب جزافاً وليس ذلك عن جهل في عموم الأحوال لكنه أسلوب متعمد ومنهج مرسوم ومقصود.

إن إفكهم وافتراءهم لا يعدو أن يكون من قبيل الحملات الضالة التي وجهت للإسلام منذ فجره الأول وحتى يومنا هذا، ومع ذلك تلاشت واضمحلت جميع تلك التهم والمعائب والمثالب التي وجهها أصحابها للرسالة الخالدة إفكاً وزوراً... لقد ذهب الافتراء والمفترون وانقضى ومضى الجهل والجاهلون وضاع الحقد والحاقدون وما استطاعت تلك الألسن الحاقدة أحياناً والمأجورة أحياناً أخرى أن تفعل شيئاً ولا أن تقدم ولا تؤخر وبقى الإسلام صامداً كالجبل الأشم في وجه الطغاة وأرباب الترهات وحق الحق وبطل ما كانوا يعملون... إنها سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾^(١).. فهم مرة يشككون ويوردون الشبه في بعض المسائل كما قدمت وأحياناً يشككون الناس في أصل الدين فيقولون مثلاً: أن محمداً لم يأت بهذا الدين لا من عند نفسه ولا من عند ربه... إنه استطاع أن ينقل أغلب أصوله وفروعه من الرومان والفرس والهنود وغيرهم واستطاع بنفسه أن يعمل مزيجاً من هذه النقول حسب مشاعره نحوها وأقنع نفسه وغيره بأنه صاحب رسالة خالدة عظمى لإصلاح العرب الوثنيين ثم استمر في دعوته ورسالته تلك حتى بلغ ما بلغ وهو كلام ساقط ومردود ولا يمكن لعاقل أن يتفوه بمثل هذا الكلام فكيف بمن نصب نفسه للدراسة والتحليل والكتابات الموضوعية، وهناك اتهامات أخرى وأقوال كثيرة حول النبي - ﷺ

(١) سورة الرعد، الآية (١٧).

- وبعثه يطول سردها كلها من قبل قصص العجائز وكلام البله
والمعتوهين . . . ونظراً لتهافت أقوالهم وسقوطها وعدم بقائها وصمودها أمام
الحقائق الإسلامية الباهرة فإن أقوالهم تلك لم تلق قبولاً كاملاً حتى من بني
جنسهم فنجد دائماً وأبداً كتاباً ومثقفين ومخترعين يشهدون بصحة الإسلام
وصدق نبوة محمد - ﷺ - ويردون كلامهم ويفندونه . . . أما نحن المسلمين
فلسنا بحاجة إلى كلامهم ولا إلى شهادتهم فليس لدى المسلم شك بنبوة
محمد وصدقته، فقد اطمأن قلبه إلى ذلك . . . أما ما يتعلق بمعاييرهم
ومثالبهم وخوفنا من تأثير بعض المسلمين بها فأقول: لقد تصدى الأئمة
الأعلام من علماء هذا الدين قديماً وحديثاً لتلك المفتريات وكذبوها وفندوها
بالحقائق الثابتة والبراهين النيرة الساطعة، ولا زالوا بحمد الله بالمرصاد
لشبههم وافتراءاتهم ومكائدهم .

المبحث الثاني

في شبه المستشرقين في حديث الإفك والرد عليها

أما ما يتصل بموضوع حديثي وهو الإفك وافتراءات وشبه المستشرقين والرد عليها فأقول :

إن ما يتصل بحديث الإفك كغيره من المفتريات على الإسلام . . . وكما كان الإفك إفكاً في وقته قاد حملته الظالمة المنافقون وخطط لذلك وبارك كل جهد من أجل طمس معالم هذا الدين أعداء الله اليهود فلازال الأفاكون من المستشرقين اليوم وغداً وبعد غد يرددون نفس النغمة التي ردها ابن أبي وجماعته وأعداء الإسلام بوجه عام - وإن اختلفت الطرق - فالقصد واحد والنهج متحد . . . إنه الحق المبيت على هذا الدين ومحاولة النيل منه بشتى الوسائل . . . وأن الكلام الذي قيل قبلاً للرد على اليهود والمنافقين في مسألة الإفك هو أيضاً يصلح للرد على المستشرقين فشبههم واهية وكلامهم مردود بالحقائق الثابتة الصادقة المعروفة والتي سقتها قبل هذا فلا داعي للإعادة ولا أدل ولا أصدق من كتاب الله فقد برأ عائشة مما رميت به وصارت قصتها قرآناً يتلى إلى يوم القيامة .

يقول الأستاذ العقاد: وإن غرض ابن سلول هذا هو بعينه غرض كل متشبه بحديث الإفك إلى يومنا هذا يتخذ منه سبيلاً إلى الطعن في الإسلام ونبي الإسلام وبخاصة بين المبشرين من المستشرقين .

فمن هؤلاء من غلب عليه أدب التربية فاستبعد حديث الإفك كما فعل موير Muir حيث قال بعد الإشارة إليه «إن سيرة عائشة قبل الحادث وبعده لتوجب علينا أن نعتقد ببراءتها من التهمة» . . . ومنهم من نقل الحادثة وخلطها بالمعجزات التي لا يصدقها غير المسلم كما فعل واشنطن أرفنج في

سيرة النبي - ﷺ - فلم يقطع بنفي صريح وترك الباب مفتوحاً للأقويل ،
ومنهم من جاوز الحقيقة في وصف ما جاءت به الروايات فزعم أن السيدة
عائشة ابتعدت عن النبي - ﷺ - يوماً كاملاً قضته في صحبة صفوان خلافاً
لما جاء في كل قصة نقلت إلينا عن حديث الإفك .

وتغنى به ردويل صاحب ترجمة القرآن حيث عرض لهذا الحديث في
حاشية من حواشيه على سورة النور، وهؤلاء مع هذا هم أشد المستشرقين
تقيةً وحذراً في تعرضهم لهذا الحديث، ولكن المبشرين المحترفين لم يتقوا
هذه التقية ولم يحذروا هذا الحذر بل خرجوا بصحة الحديث وقال بعضهم :
إن محمداً استنزل الآيات في سورة النور ليحمي سمعة زوجته ويدين
الوشاة بالعقاب الذي ورد في تلك السورة، وجهلهم بالقرآن هو الذي
أوقعهم في تلك الفرية الوضيعة التي يتخبطون فيها على غير علم بمصادرها
ومواردها فإن سورة النساء وهي سابقة لسورة النور قد نصت على الأربعة
الشهود في إثبات الزنا ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن
أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن
سيلاً﴾^(١) . . . وآخرون من أولئك المبشرين المحترفين رجعوا إلى تاريخ
الغزوة التي جرى بعدها حديث الإفك يقولون أن الليلة كانت غير قمراء
وأن البحث عن العقد الضائع فيها عسير مع أن الاختلاف على سنة الغزوة
فضلاً عن شهرها وليلتها كثير يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة وما
بعدها فأخذوا بالقول الذي يعجبهم ويعينهم على فريتهم وهم - حتى في
هذا - مغرضون متعسفون لأن ابتداء المسير إلى الغزوة في الثاني من شعبان
لا يمنع أن الجيش قضى أياماً في ذهابه وإيابه وعادوا في ليلة قمراء في
صحو البلاد العربية . . . ولو كان في الأمر محل اعتراض من هذه الناحية

(١) سورة النساء، الآية (١٥).

لما فات الذين حضروا الغزوة وشهدوا النور والظلام في تلك الليلة وهم قصاص الأثر وأصحاب القمر في الحل والسفر، وفيهم من يحرص على التشهير كحرص هؤلاء المبشرين .

ومن الإسفاف أن نتبع هؤلاء الوشاة في كل ما خطوا فيه من إثم وكل ما رجحوا به من ظن كأن أخلاق الناس وحقائق التاريخ رهن بما يتمحلونه ووقف على ما يختلقونه وما كانت وشايتهم تلك بحثاً يستند إلى رأي أو ظناً يعتمد على قرينة ولكنها كانت كذباً لا يليق بالمؤرخ وسوء نية لا يليق بالإنسان وخسة في حق امرأة شريفة لا تليق بالرجل الكريم وإنما أومأنا إلى ضروب من تلك الوشايات ليعلم أن الحذر واجب هنا على قدر ضخامة الأعراض التي تخلق الوشاية وتنطلق في ترويجها إلى أيامنا هذه وإلى ما بعد هذه الأيام مادام في الدنيا أناس يستيبحون أن يجترئوا بالشبهات على امرأة لا ذنب لها إلا أنها زوج النبي يريدون التشكيك فيه .

على أننا من الجهة الأخرى نبرئ السيدة عائشة من هذه المظنة ولا نعتمد في التبرئة إلا على الفهم الذي يفهمه المسلم، ومن لا يدين بالإسلام ويقبله صاحب الدين ومن لا يأخذ بدين من الأديان لأن براءتها ليست من الخفاء بحيث لا يقام عليها الدليل إلا من وحي السماء . . . وكفى دليلاً هنا أن ليس على الظنة بها أقل دليل^(١) .

هذا كلام الأستاذ العقاد في معرض رده على الشبهات التي أثارها المستشرقون والمبشرون وخصوص الإسلام بوجه عام، وقد واصل تفنيده للفرية إلى أن قال: «وكان صفوان بن المعطل على ساقه الجيش يتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من المتاع، وربما كان النبي - ﷺ - يعهد إليه في ذلك لأنه

(١) الصديقة بنت الصديق للأستاذ العقاد/٢٦٦-٢٦٨ / الطبعة العاشرة - دار المعارف بمصر.

كان ثقیل النوم فلا یستقیظ حتی یأخذ الجیش فی السیر، وقد شکته امرأته إلى النبی - ﷺ - لأنه ینام ولا یصلي الصبح قبل طلوع الشمس فكان علیه السلام یعلم ذلك منه ویقول له إذا استقیظت فصل وقد یحسن هنا أن نوجه شکوی امرأته إلى بعض معانیها كأنها أرادت بثقل النوم کنایة عن أمر آخر لا تفصح عنه إذ قیل عن صفوان هذا: أنه کان حصوراً لا یأتي النساء، وسمع وهو یقسم بعد حدیث الإفک أنه ما کشف عن کتف امرأة قط^(١).

وقد قدمت أن الموضوع بحذافیره مختلق وإفک مبین وهو من تلفیق أعداء الله اليهود وتدبیرهم وتنفيذ ووشایة عبد الله بن أبي حیث وجد الفرصة مواتیة وسانحة للقیل والقال والإفک والکذب وهو الذی قال لما رأى هودج عائشة مقبلاً: والله ما نجت منه ولا نجا منها فأطلق الفریة وتابع القول فیها وجمع الکذب ولفقه وأطلق لسانه فی الباطل تنفیساً عن نفسه وقلبه الملتهب حیث ضاقت نفسه بهذه الانتصارات المتلاحقة للإسلام وأهله فهو یرید مقاصد کثیرة خسیسة ساقطة منها مثلاً إیقاع شیء من الجفوة بین النبی - ﷺ - وصدیقه ورفیقه أبي بکر الصدیق - رضي الله عنه - الذی بذل ماله ونفسه وترك وطنه من أجل الله ووثوقاً بما عنده من الکرامة ومن مقاصده الخسیسة إیقاع شیء من النفرة أو الجفوة بین الصحابة ورسول الله - ﷺ - أو للتشکیک فیهِ وفي رسالته وکرامته وطهارة بیته . . . المهم عنده إیجاد شیء من التوتر والقلق فی النفوس وشغل الناس عن الجهاد والجلاد بأمر أخرى وأيضاً هو بطبعه الفاسد وأسلوبه الحاقد لجأ هذه المرة - وكما قدمت - إلى جرح الکرامة ومس جانب العفاف والطهر، وهما أهم وأعظم شیء لدى العربی المسلم، كما یقصد أيضاً إیقاع شیء من العداوة والبغضاء والتنافر والتناحر بین القبائل المسلمة وخاصة الأوس والخزرج من جراء حدیث

(١) المصدر نفسه.

الإفك . . . هذا، ويواصل الأستاذ العقاد رده وتنفيده لمزاعم المبطلين وحجج الحاقدين من مبشرين ومستشرقين فيقول:

«وفي وسع القارىء أن يعرف قيمة هذه الوشاية من نظرة واحدة فهي على التحقيق وشاية لا قيمة لها عند منصف يلمس من ورائها تربة الكيد والوقية التي نبتت فيها إذ هي تربة وبيئة تنضح بسخائم الخصومة الدينية والسياسية ومساوىء الخبث والكذب والنفاق وخليق بها أن تبعث الشك في كل حديث ينبت بين طياتها ولو زعموا له من الأسانيد والشبهات أضعاف ما زعموا لهذه الوشاية الواهية وليس لها من سند ولا شبهة إلا أن السيدة عائشة تأخرت في الطريق هنيهة حين تحرك العسكر على حين فجأة وكانت الرحلة كلها كثيرة المفاجآت في مواعيد النزول والرحيل بل لو تأخرت كل امرأة في الركب غير السيدة عائشة لحاز أن تلحق بها شبهة من هذا التأخر لأن الركب لم تكن فيه امرأة غيرها يهابها الموكلون بهودجها وهي زوج النبي و بنت الصديق وأبوها يحمل راية المجاهدين في تلك الغزوة وعلى الذي يقبل كل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها عليه أن يصدق أن صفوان كان رجلاً لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الإسلام وأن يصدق أن السيدة عائشة كانت - وهي زوج النبي - لا تؤمن به ولا تعمل بدينه، ولا دليل على هذا ولا ذاك بل الأدلة على إيمان صفوان وعائشة تجري في كل سياق وردت لهما سيرة فيه فصفوان كان مسلماً غيوراً وعائشة آمنت بكل كلمة قالها النبي وحفظتها . . . وقال العقاد أيضاً: كيف نشأت علاقة صفوان المزعومة في تلك الليلة بعينها؟ فكيف اجترأ الرجل على مفاتحة أم المؤمنين وهم يتهيبون المنادة عليها في هودجها؟ بل كيف تحظر له هذه المفاتحة وهو لا يشك في إيمانها بزوجها وكيف يصدق العقل أن امرأة النبي و بنت الصديق تكون هكذا لقطه لأول لاقط يصادفها؟ أما إن كانت العلاقة المزعومة قبل ذلك

فكيف خفيت بين الضرائر والحساد وقالة السوء من المنافقين، كل أولئك سخف لا يقبله إلا من يفترى بوشاية أو بغير وشاية، وسواء فيه منافقو المدينة ومن يصنع صنيعهم من المؤرخين في العصر الحاضر لأنهم لا يؤمنون بنبي الإسلام بل هؤلاء أنذل وأغفل لأنهم يؤمنون بمريم والمسيح، وكان عليهم أن يعصمهم عاصم من هذا الإيمان^(١).

ونقل الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه: حياة محمد: قول السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث «إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في ادحاض أية شبهة أثرت حولها»^(٢).

وقالت الدكتورة زاهية قدورة في كتابها: عائشة أم المؤمنين: «ومحاول بعض المستشرقين - لاسيما المبشرون منهم وخصوم الإسلام لأغراض لا تخفى ولتحقيق أهداف معروفة - أن يلصقوا التهمة بعائشة وليس لهم دليل مادي يدفعهم إلى ذلك، ولكن شكوك واستنتاجات لا تلتئم مع المنطق العربي ولا مع التمسك بالفضيلة والمحافظة على الشرف ومراعاة حرمة الزوجية المقدسة ولكن تطبيقاً لحياة انغمس فيها الغرب فظنوا أنها قياس تصلح للحياة العربية حتى في عصور قوة العقيدة الدينية في صدور المسلمين، ومثال ذلك ما يقوله الدكتور Sprenger: أن تكون عائشة قد اجتازت حرمة الزوجية ليس على هذا دليل، وبما أنها زوجة رجل شيخ وجدت نفسها وحيدة في خلوة مع شاب فلا يستبعد أن تصح التهمة غير أن الرسول وجد في الوحي ملجأ يأوى إليه إبان هذه الكارثة، ويؤيد ذلك نفر آخر من المؤرخين منهم (Scholl) و (Abbot) وهي أقوال لم يستطيعوا أن

(١) الصديقة بنت الصديق للأستاذ العقاد باختصار.

(٢) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ٣٧٠/.

يقيموا الدليل على ثبوتها، كما أنهم لم يعنوا بمناقشتها مناقشة علمية نزيهة يحاولون فيها إثبات حادثة الإفك أو نفيها بأدلة تاريخية قاطعة وإنما حكموا المنطق الذي لا يتفق مع الطريقة العلمية الحديثة القائمة على سرد الحقائق مجردة ثم نقدها وتحليلها للخروج من ذلك كله برأى سليم قائم على أساس البحث والتمحيص غير أن بعض المستشرقين ممن أطرحوا الهوى ترفعوا عن التحيز وسلكوا مسلك الدليل المادي والاستنتاج الصحيح فاستبعدوا حديث الإفك منهم (Muir) - وقد مر كلامه نقلاً عن كتاب حياة محمد لهيكل - وواصلت الدكتورة زاهية قدورة كلامها قائلة ولنتساءل: هل كان من المعقول أن يكون لعائشة علاقة بأي شكل كان بصفوان بن المعطل؟ ونحن نجزم بإنكار ذلك كل الجزم ولاسيما إذا تذكرنا أن الذي أشاعه عبدالله بن أبي بن سلول زعيم الخزرج في المدينة - وقد اشتمل قلبه على بغض الرسول والحسد منها - معتقداً أن الرسول سلبه ملكه، ورغبة عبدالله في تهديم الإسلام ليفسح له المجال إلى الانتصار على رجال الأوس والتزعم على أهل المدينة فكان تارة ينافس زعماء الأوس بالتزلف إلى النبي وأخرى يلجأ إلى أعداء الإسلام ويؤلبهم على الرسول والمسلمين . . . ثم أن عائشة مع صغر سنها كانت تحب الرسول حباً جماً، ومن مظاهر هذا الحب غيرتها الشديدة، فحصولها عليه إذن كان النعمة التي لا يضاهيها شيء . . . وهل من المنطق أن من تحب رجلها وتعجب به ذلك الإعجاب الشديد تبدله بمن هو أقل منه منزلة؟ خاصة بعد ما نالت من زوجها حباً وتقديراً ليس في إمكان أحد أن يعطيها . . . وهل من المعقول أن تكون مصادفة الاجتماع الأول سبباً في علاقة كالتى اهتمت بها دون سابق معرفة أو اتصال؟ قد يقول البعض أنها فتننت بشبابه، فهل هذا السبب من القوة بحيث يجعلها تتجاوز عقيدتها الدينية وطبائعها العربية وتنساق مع رغائب طارئة كما يريد البعض أن يصور تهدم كل ذلك الكيان الضخم الذي امتلأت به نفسها من الإيمان

والإسلام وللرسول من الشباب والحياة والنضارة ما يوازي شباب الدنيا كلها، فما أكثر الشباب في سنهم وهم شيوخ في قلوبهم وعواطفهم وحيويتهم . . . ولقد كان للرسول قدرة فائقة في محادثة النساء وملاطفتهن وإرضائهن بحسن التعبير عن عواطفه الزاخرة ونشاطه الجسم، فرجل هذا شأنه وتلك صفاته لا تستطيع أي زوجة إلا أن ترتبط به أشد الارتباط، وأن تخلص له كل الإخلاص، وأضف إلى ذلك ما قاله الطبري عن صفوان بالذات بأنه كان رجلاً حصوراً ما يأتي النساء فذلك كله لا يبقي أدنى شك في براءة عائشة، وقد أجمع على ذلك المنطق المعقول والذكر الحكيم^(١).

(١) عائشة أم المؤمنين - دكتورة زاهية قدورة - / ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥ / باختصار.

الباب الثالث

في

جريمة القذف وصلتها بحديث الإفك

الفصل الأول

في

معنى القذف ومدى انطباقه على حديث الإفك

معنى القذف ومدى انطباقه على حديث الإفك

القذف لغة :

قذف يقذف قذفاً - من باب ضرب - بالشيء رمى به . . . القذف بالحجارة: الرمي بها . . . وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي القذف بالحجارة والحذف بالعصا، ويقال: هو بين حاذف وقاذف، وبين حاذ وقاذ على الترخيم^(١).

القذف : الرمي بقوة.

قذف : بالتحريك نية قذف وفلاة قذف، وقذف مثل صدَفَ وصدَّفَ : بعيدة تقاذف بمن يسلكها وأيضاً قذوف .

قذفه بالكذب : أصابه .

قذف الرجل : قاء .

وقذف المحصنة : سبها . . . وفي حديث هلال بن أمية أنه قذف امرأته بشريك . . . والقذف في هذا الحديث الرمي بالزنا أو ما في معناه وأصله الرمي^(٢).

القذف : السب وهي القذيفة - وفي حديث عائشة رضي الله عنها - وعندها قينتان تتغنيان بما تقاذفت به الأنصار يوم بعث، أي تشامت في أشعارها وأراجيزها التي قالتها في تلك الحرب^(٣).

(١) التهذيب/٩/٧٤، والصحاح/٤/١٤١٤.

(٢) لسان العرب/١١/١٨٥.

(٣) التكملة والذيل والصلة/٤/٥٤٥.

القذف شرعاً :

عرّفه الحنابلة : بأنه الرمي بالزنا^(١) .
وعرّفه الشافعية : بأنه الرمي بالزنا في معرض التعبير لا الشهادة^(٢) .
وعرّفه المالكية : بأنه قذف المكلف حراً مسلماً بنفي نسب عن أب أو جد^(٣) .

وتبيّن لنا من هذه التعريفات مدى علاقة كل منهما بالمعنى اللغوي للقذف . . . والقذف محرم بإجماع الأمة .
والأصل في تحريمه الكتاب والسنة :

أما الكتاب^(٤) : فقوله تعالى : ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾^(٥) .
وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة وهم عذاب عظيم﴾^(٦) .

وأما السنة : فقول النبي - ﷺ - : «اجتنبوا السبع الموبقات» ، قالوا وما هنّ يارسول الله : قال : «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله

(١) المغني والشرح الكبير/١٠/٢١٠، ٢١١/ .

(٢) نهاية المحتاج/٧/٤٣٥/ .

(٣) حاشية الدسوقي/٤/٣٢٥/ .

(٤) المغني والشرح الكبير/١٠/٢٠١، ٢١٠/ .

(٥) سورة النور، الآية (٤) .

«فاجلدوهم» : الجلد : الضرب ، والمجالدة والمضاربة في الجلد أو بالجلود ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف أو غيره ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدي بالسيف محراق لاعب

(٦) سورة النور، الآية (٢٣) .

وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات»^(١) متفق عليه .

ونظراً لأن الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء . . . هو البهتان وهو الأمر الذي لا تشعر به حتى يفجأك ، وأصله الإفك ، وهو القلب لأنه قول مأفوق عن وجهه^(٢) . . . وبهذا التعريف يعتبر الإفك معنى من معاني القذف إذا وجه الكلام فيه إلى عرض إنسان بقصد رميه بما هو منه براء وإلا فهذا التعريف للإفك يندرج تحته عموم الكذب فكل افتراء وبهتان لا أصل له سواء كان يتعلق بالعرض أو غيره فهو إفك ، فيكون الإفك عاماً يتناول الأعراض وغيرها - كما قدمت - والقذف خاص بالرمي بالزنا ونحوه ودليل القذف : ﴿والذي يرمون المحصنات . . .﴾ ، ودليل الإفك : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . . .﴾ ، وكلاهما في سورة النور .

وأصل الرمي : القذف بالحجارة أو بشيء صلب ، ثم استعير للقذف باللسان لأنه يشبه الأذى الحسي ، قال النابغة : وجرح اللسان كجرح اليد . . . وقال ابن أحرر :

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوى رماني^(٣)

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري / ٥ / ٣٩٣ / ح / ٢٧٦٦ / في باب قوله تعالى : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ الآية . وصحيح مسلم بشرح النووي / ٢ / ٨٣ / طبعة دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة - باب أكبر الكبائر .

(٢) تفسير الرازي / ٢٣ / ١٧٢ / ، والقرطبي / ١٢ / ١٩٨ / ، ومدارك التنزيل للنسفي بهامش الخزان / ٣ / ٣١٨ / .

(٣) الطوى : البئر . . . والبيت لعمر بن أحمد الباهلي ومعناه : كنت بريئاً منه ، وكان والدي بريئاً منه أيضاً . . . (أضواء البيان / ٥٤٦ / ، ذكر الله في الآية النساء من حيث هن أهم ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس ، وقذف الرجل داخل في حكم الآية بالمعنى وإجماع الأمة على ذلك وهذا هو نصه على تحريم لحم الخنزير ودخل شحمه وغضاريفه ونحو ذلك بالمعنى والإجماع .

(القرطبي / ١٢ / ١٧٣ / .)

أي اتهمني بشيء أنا منه براء . . . ومنه الحديث: أن ابن أمية قذف امرأته^(١) بشريك بن السحفاء .

ومما سبق ندرك معنى القذف لغة وشرعاً، وهو ينطبق تماماً على حديث الإفك، فالإفك على عائشة وإتهامها مما هي منه براء نوع من أنواع القذف، بل هو القذف بعينه .

ويرى بعض المفسرين أن آية: ﴿والذين يرمون المحصنات . . .﴾ ألخ نزلت بسبب حادثة الإفك، ويؤيد ذلك ابن جرير الطبري - رحمه الله - إذ يرون أنها إنما نزلت بشأن الذين رموا عائشة - رضي الله عنها - بالإفك لكن الصحيح ما ذكره القرطبي واختاره الطبري: أن هذه الآية نزلت بسبب القذفة عامة لا في تلك النازلة بعينها، فهي حكم من أحكام الله لكل قاذف . . . ومن المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(٢) .

(١) القرطبي/١٢/١٧٢ .

(٢) القرطبي/٢/١٧٢، والطبري/٨/٧٦١، وتفسير آيات الأحكام للصابوني/٢/٥٨ .

الفصل الثاني
في
موجبات القذف

(١) موجبات القذف

جاءت الشريعة الغراء بمحاربة القذف وجعلته جريمة منكرة يستحق صاحبها العقاب العاجل والآجل ، إلا إذا أتى بما يدعم قوله شهوداً أربعة على نحو ما جاء في الآية الكريمة ﴿والذين يرمون المحصنات . . .﴾ الخ ، ولا تعاقب الشريعة على القذف إلا إذا كان كذباً واختلاقاً ، فإن كان تقريراً للواقع فلا جريمة ولا عقوبة .

والبواعث التي تدعو القاذف للافتراء والاختلاق كثيرة منها الحسد والمنافسة والانتقام ، ولكنها جميعاً تنتهي إلى غرض واحد يرمي إليه كل قاذف هو إيلاام المقذوف وتحقيره ، وهو محرم ، إلا في موضعين :

أحدهما : أن يرى امرأته تزني في طهر لم يصبها فيه فيعتزلها ، وتأتي بولد يمكن أن يكون من الزاني فيجب عليه قذفها ونفي ولدها لأن نفيه واجب لأنه إذا لم ينفه لحقه وورثه وورث أقاربه وورثوا منه ، ونظر إلى بناته وأخواته ولا يمكن نفيه إلا بالقذف وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

والثاني : أن لا تأتي بولد يجب نفيه مثل أن يراها تزني ولا تأتي بولد يلحقه نسبه أو استفاض زناها في الناس أو أخبره به ثقة أو رأى رجلاً يعرف بالفجور يدخل إليها فيباح قذفها ولا يجب ، وإن أتت بولد يخالف لونه لونهما لم يبح نفيه بذلك ، لما روى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال جاء رجل من بني فزارة إلى النبي - ﷺ -

(١) قال في بدائع الصنائع : وأما حد القذف فسبب وجوبه القذف بالزنا لأنه نسبة إلى الزنا ، وفيها إلحاق العار بالمقذوف ، فيجب الحد دفعاً للعار عنه . . (انظر: بدائع الصنائع للكاساني الحنفي/١٦٥/٩).

فقال: يارسول الله إن امرأتي جاءت بولد أسود يعرض بنفيه، فقال النبي - ﷺ -: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال حمر، قال فيها من أورك؟ قال: إن فيها لورقاً، قال: فأني أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعة عرق، قال: فهذا عسى أن يكون نزعة عرق ولم يرخص له في الانتفاء منه . . . متفق عليه^(١).

فقد قال في الانصاف: والقذف محرم إلا في موضعين:

أحدهما: أن يرى امرأته تزني في طهر لم يصبها زاد في الترغيب ولو دون الفرج . . . وقال في المغني وغيره أو تقرّ به فيصدقها فيعتزلها وتأتي بولد يمكن أن يكون من الزاني فيجب عليه قذفها ونفي ولدها بلا نزاع.

وقال في المحرر وغيره: وكذا لو وطئها في طهر زنت فيه وظنّ الولد من الزاني.

وقال في الترغيب نفيه محرم مع التردد فإن ترجح النفي بأن استبرأ بحيضة فوجهان، واختار جوازه مع إمارة الزنا ولا وجوب، ولورآها تزني واحتمل أن يكون من الزنا حرم نفيه ولا عن.

والثاني: ألا تأتي بولد يجب نفيه يعني يراها تزني ولا تأتي بولد يجب نفيه أو استفاض زناها في الناس أو أخبره به ثقة أو رأى رجلاً يعرف بالفجور يدخل إليها، زاد في الترغيب يدخل إليها خلوة. واعتبر في المغني والشرح هنا استفاضة زناها، وقدمنا أنه لا يكفي استفاضة بلا قرينة فيباح قذفها ولا يجب . . . قال الأصحاب:

(١) الزوائد للشيخ محمد بن حسين/٨٣٣، ٨٣٤/، وهو مستخلص من كتب الحنابلة، والمغني والشرح الكبير/٢١٩/١، والمبدع في شرح المقنع/٨٨/٩، والانصاف/١٠/٢٠٩.

فراقها أولى من قذفها . . . واختار أبو محمد الجوزي : أن القذف المباح أن يراها تزني أو يظنه ولا ولد ، وإن أتت بولد يخالف لونه لونهما لم يبيح نفيه بذلك هذا المذهب وعليه الأصحاب ، وقال أبو الخطاب : ظاهر كلامه بإباحته^(١) .

وقال في المحرر^(٢) : القذف محرم إلا في موضعين . . . وقال كذلك في المقنع^(٣) . . . وقال في منار السبيل في شرح الدليل : والقذف حرام وواجب ومباح ، وهو من الكبائر ، ويجب على من يرى زوجته تزني ثم تلد ولداً يغلب على ظنه أنه من الزنا أو يراها تزني في طهر لم يطأها فيه فيعتزها ثم تلده لسته أشهر فأكثر لجرى ذلك مجرى اليقين في أن الولد من الزنا فيلزمه قذفها ونفيه لثلاث يلحقه الولد ويرثه . . . الخ . . . ويباح إذا رآها تزني ولم تلد ما يلزمه نفيه أو استفاض زناها بين الناس ولم يجب لأنه لا ضرر على غيرها حيث لم تلد وفراقها أولى لأنه استمر ولأن قذفها يفضي إلى حلف أحدهما كاذباً إذا تلاعنا أو إقرارهما فتفتضح . اهـ ملخصاً^(٤) .

وقال في دليل الطالب : والقذف حرام وواجب ومباح فيحرم فيما تقدم ويجب على من يرى زوجته تزني . . . الخ^(٥) . . . وكذلك قال الشيخ مرعي في كتابه : غاية المنتهى في الجمع بين الاقناع والمنتهى^(٦) .

-
- (١) الانصاف/١٠/٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠ / علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرادوي .
 - (٢) المحرر للشيخ مجد الدين أبي البركات/٢/٩٤ .
 - (٣) المقنع قدامة/٢/٤٨٧، ٤٨٨ .
 - (٤) منار السبيل في شرح الدليل للشيخ إبراهيم بن حمد بن سالم/٢/٣٧٤، ٣٧٥ .
 - (٥) دليل الطالب للشيخ مرعي يوسف الحنبلي/٢٦٩ .
 - (٦) المصدر المذكور/٣/٣٢٥ .

وقال في الشرح: قال الشيخ - رحمه الله -: والقذف محرم لما ذكرنا من الآية والخبر والإجماع إلا في موضعين، وقد سبق ذكرهما عند سياق كلام بعض الفقهاء، وقال في الشرح: وإن أتت بولد يخالف لونه لونها لم يباح نفيه بذلك . . . وقال أبو الخطاب: ظاهر كلامه إباحته إذا أتت بولد يخالف لونه لونها ويشبه رجلاً غير والديه لم يباح نفيه بذلك لما روى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء رجل من بني فزارة وتقدم، ولأن الناس كلهم من آدم وحواء وألوانهم وخلقهم مختلفة، ولولا مخالفتهم شبه والديهم لكانوا على صفة واحدة ولأن دلالة الشبه ضعيفة ودلالة ولادته على الفراش قوية فلا يجوز ترك القوى لمعارضه الضعيف ولذلك لما تنازع سعد بن أبي وقاص وعبيد بن زمعة في ابن وليدة زمعة، ورأى النبي - ﷺ - شهباً بيناً بعتبة الحق الولد بالفراش وترك الشبه، وهذا اختيار أبي عبد الله بن حامد وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي . . . وذكر القاضي وأبو الخطاب أن ظاهر كلام أحمد جواز نفيه وهو الوجه الثاني لأصحاب الشافعي لقول النبي - ﷺ - في حديث اللعان إن جاءت به أورك جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الألتين فهو للذي رميت به فأتت به على النعت المكروه، فقال الرسول - ﷺ - لولا الإيذان لكان لي ولها شأن فجعل الشبه دليلاً على نفيه عنه والصحيح الأول، وهذا الحديث إنما يدل على نفيه عنه مع ما تقدم من لعانه ونفيه إياه عن نفسه فجعل الشبه مرجحاً لقوله دليلاً على تصديقه.

وما تقدم من الأحاديث يدل على عدم استقلال الشبه بالنفي ولأن هذا كان في موضع زال الفراش وانقطع نسب الولد عن صاحبه فلا يثبت مع بقاء الفراش المقتضى لحوق النسب

بصاحبه ، وإن كان يعزل عن امرأته لم يبيح له نفيه ، وقال أيضاً :
ولا يجوز قذفها بخبر من لا يوثق بخبره لأنه غير مأمون على
الكذب عليها ولا برؤيته رجلاً خارجاً من عندها من غير أن
يستفيض زناها لأنه يجوز أن يكون دخل سارقاً أو هارباً أو لحاجة
أو لغرض فاسد فلم تمكنه ولا لاستفاضة ذلك في الناس من غير
قرينه تدل على صدقهم لاحتمال أن يكون أعداؤها أشاعوا ذلك
عنها وفيه وجه أنه يجوز لأن الاستفاضة أقوى من خبر الثقة^(١) .

وقال في عقد الفرائد ملخصاً كلام علماء الحنابلة :

ويحرم كل القذف إلا إذا رأى	حليلته تزني بطهر مقيّد
بعزلتها فيه وفقد جماعها	فتأتي بطفل ممكن الكون من ردى
فيلزمه قذف الفتاة ونفيه	لرأى اشتباه الانسباء بأبعد
كذا أن يطأ في طهرها اللذ زنت به	ويقوى لمعنى ظن نفي المولد
وأن يرها تزني ولم تلد أو تكن	تلد من بعيد كونه نسل معتد
أو اشتهرت في الناس بالخبث والزنا	أو أنبأ به عدل ولم يتهم زد
أو أبصر مشهور الزنا خالياً بها	فهذا يبيح القذف غير مؤكد
وهذا ضعيف عن مجرد تهمّة	ولاسيما أن تحلون عن مولد
وليس مبيحاً نفي ولد مخالف	للوئيها نفس الخلاف بأوكد
وليس مبيحاً قول غير الثقات	أو خروج فتى من عندها دون مسعد ^(٢)

متى يجب اللعان ؟

إذا رمى الرجل امرأته بالزنا ولم تعترف بذلك ولم يرجع عن رميه فقد
شرع لها اللعان ، ويجب اللعان في حالتين :

- (١) الشرح الكبير لابن قدامة / ١٠ / ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، والمبدع في شرح المقنع / ٩ / ٨٩ ،
والانصاف / ١٠ / ٢٠٩ .
- (٢) عقد الفرائد وكنز الفوائد لمحمد بن عبد القوي / ٢ / ٣١٤ .

الحالة الأولى :

إذا رمى امرأته بالزنا كأن يقول لها: زنيت أو رأيتك تزنين، وليس أربعة شهود يشهدون بما رماها به، وإذا قال لها: يازانية: فالجمهور أنه يلاعن خلافاً لمالك.

الحالة الثانية :

أن ينفي حملها منه فيقول: هذا الحمل ليس مني أو ينفي ولدأله منها^(١). وجاء في القرطبي^(٢): قوله تعالى: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ عام في كل رمي سواء قال: زنيت أو يازانية أو رأيتها تزني، أو هذا الولد ليس مني، فإن الآية مشتملة عليه، ويجب اللعان إن لم يأت بأربعة شهداء، وهذا قول جمهور العلماء وعامة الفقهاء وجماعة أهل الحديث، وقد روى عن مالك مثل ذلك، وكان مالك يقول: لا يلاعن إلا أن يقول رأيتك تزني أو بنفي حمل، أو ولد منها، وقول أبي الزناد ويحيى بن سعيد والليثي مثل قول مالك أن الملاعنة لا تجب إلا بالقذف وإنما تجب بالرؤية أو نفي الحمل مع دعوى الاستبراء، هذا هو المشهور عند مالك، وقال ابن القاسم: والصحيح الأول لعموم قوله: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾.

وقال في ظلال القرآن بعدما تكلم عن القذف عموماً (ذلك حكم القذف العام، ولكن استثنى منه أن يقذف امرأته، فإن مطالبته بأن يأتي بأربعة شهداء فيه إرهاب له وإعنات والمفروض ألا يقذف الرجل امرأته إلا صادقاً لما في ذلك من التشهير بعرضه وشرفه وكرامة أبنائه لذلك جعل لهذا النوع من القذف حكم خاص^(٣)).

(١) تفسير القرطبي/١٢/١٨٥، وابن العربي/ القسم الثالث/ سنة ١٣٤٣/ وتفسير آيات الأحكام للصابوني/٢/٨٤/٨٥.

(٢) تفسير القرطبي/١٢/١٨٥.

(٣) في ظلال القرآن/ سيد قطب/٦/٦٤.

الفصل الثالث
في
عقوبة القذف



عقوبة القذف

القذف منكر من القول وزور إلا ما استثني ، وقد سبق ، فالذين ينتهكون حرمة المؤمنين ويؤذون المسلمين يلتمسون للبراء العيب فيرمون العفاف الشريفات الطاهرات المبرآت من كل نقص أو عيب وكذلك الذين يقذفون سائر المؤمنين ويقعون في أعراضهم ويلوثون سمعتهم ويعرضون كرامتهم للخطر، وضع الإسلام سداً منيعاً وحائلاً بين هؤلاء القذفة وأعراض المسلمين، فالإسلام بتشريعاته الخالدة صان الأعراض وحمى الكرامة وحفظ المروءة.

إن أئمن شيء لدى الإنسان هو العرض وأعلى شيء لديه، ولذلك حماه الإسلام وصانه ورتب على القذف عقوبات زاجرة ورادعة لكل من تسول له نفسه الوقوع في أعراض المسلمين والنيل من كرامتهم.

فهؤلاء الذين يتهمون المسلمين زوراً وبهتاناً ولا يقدمون الدليل المادي على دعواهم هذه، والدليل هو أربعة شهداء: ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾^(١) فهم فسقة كذبة مفترون أفاكون يتهمون الأبرياء ويقعون في أعراض المسلمين ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا والمؤمن عزيز وكريم^(٢) عند الله ولا يجوز أن يمس بسوء، فهؤلاء لا يحفظون كرامة مؤمن شأن أهل الزيف والنفاق، فهم دائماً وأبداً يسعون

(١) سورة النور، الآية (٤).

(٢) وإنما وجب الحد به دون الرمي بالكفر لقدرة هذا على نفي ما رمي به بأن يجدد كلمة الإسلام وبها ينتفي وصف الكفر الذي رمي به ويثبت وصف الإسلام بخلاف التوبة من الزنا. . . لا يثبت بها وصف الاحصان. (نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج في فقه الشافعية لشمس الدين محمد بن العباس الشهير بالشافعي الصغير/٧/٤٣٥، ٤٣٦/).

لهدم البناء الإسلامي وتفريق جمع المسلمين وتقويض بنيانهم وخلخلة كيانهم . . . ويعتبر الشارع الحكيم القذف من الجرائم الشنيعة التي حاربها الإسلام حرباً لا هوادة فيها، وحق له ذلك، فهي دمار للمجتمعات الإسلامية وتلحق الضرر البالغ بأفراد المسلمين وتعكر صفوهم وتباعد فيما بينهم، خذ مثلاً حديث الإفك وما جره المنافقون بسببه من شر وبلاء على المسلمين فهذه الشائعات والأقويل الباطلة فرسانها غالباً وأبداً الفسقة والمنافقون واليهود، خاصة تلك التهم الباطلة التي توجه غالباً للدعاة وحملة القرآن بوجه عام، فهم دائماً وأبداً غرض للفساق وللمنافقين . . . إن إتهام البراء والوقوع في أعراض المسلمين وانتهاك حرمتهم وكرامتهم وتعريض سمعتهم للخطر وقذف المحصنات العفيفات يجعل المجال واسعاً وفسيحاً لكل من شاء أن يقذف فتصبح أعراض المسلمين ملوثة وكل فرد من أفراد الأمة مهدداً بهذا القول القبيح فيحدث ارتباك في البيوت وتهدد الأسر بالتفكك والضياع والتشرد والتمزق، إن إطلاق الألسنة بلا وازع أو رادع من دين أو ضمير لهو شر ما ابتليت به الأمة، ولذا نجد الإسلام وقف من هؤلاء الأفاكين موقفاً حازماً وشديداً وصارماً وقف في وجه كل من تسول له نفسه إلحاق الضرر بالآخرين.

ومن جراء القذف يحصل مخاطر عظيمة وفساد كبير يشك الرجل في أصله والوالد في ولده والقريب في قريبه ويحصل من جراء ذلك فتنة في الأرض وفساد كبير، لذا شدد الإسلام في عقوبة القذف وجعلها قريية من عقوبة الزنا - ثمانين جلدة - مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق، والعقوبة الأولى جسدية تنال البدن والجسد بالضرب والإيلام، والثانية أدبية تتعلق بالناحية المعنوية فتهدر كرامته ويسقط اعتباره فلا يوثق بكلامه ولا يؤمن جانبه ويترك حديثه، والعقوبة الثالثة دينية حيث أنه فاسق خارج عن طاعة الله وهي في مجموعها عقوبات كافية ورادعة وزاجرة لكل العابثين والفساق

والمنافقين الذين لا يتقيدون بنظم الإسلام ولا يقفون عند حدوده وتشريعاته .

قال في ظلال القرآن : وصيانة للأعراض من التهجم وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف فجعلها قربية من عقوبة الزنا - ثمانين جلدة مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق - والعقوبة الأولى جسدية والثانية أدبية في وسط الجماعة، ويكفي أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشي بينهم متهمًا لا يوثق له بكلام، والثالثة دينية فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم ذلك إلا أن يأتي القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل أو بثلاثة معه إن كان قد رآه فيكون قوله إذن صحيحاً، ويوقع حد الزنا على صاحب الفعلة، والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه وعدم التحرج عن الإذاعة به وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء، وفوق الآثار التي تترتب عليها في حياة الناس وطمأنينة البيوت^(١) .

ويقول أبو الأعلى المودودي في تفسير سورة النور: ومن لم يستطع أن يقدم إلى المحكمة شهادة تبرئة من جريمة القذف فقد حكم عليه القرآن بثلاثة أحكام: الأول: أن يجلد ثمانين جلدة .
الثاني: ألا تقبل له شهادة أبداً .
الثالث: أنه فاسق^(٢) .

(١) في ظلال القرآن/٦/٦٣/ .

(٢) تفسير سورة النور/ أبو الأعلى المودودي/١٠٤/ .

وأما إذا قذف الرجل زوجته ولم تكن لديه بينة، فإما أن يجد أو يلاعن ولا يجرى اللعان في إتهام غير الزوجة من المحصنات حيث أن اللعان خاص بالزوجين .

وصفة الملاعنة أن تكون خمس مرات بالصيغة المذكورة في القرآن الكريم . . . وقال تعالى ذاماً للقذف: ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾^(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا بيان لسبب العذاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة والقول بالأفواه، وهما نوعان محرمان القول بالباطل والقول بلا علم ثم قال سبحانه: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلمت ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم﴾^(٢) فالأول تحضيض على الظن الحسن وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف، وقال الشيخ أيضاً: والله جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ما لم يجعله في شيء من المعاصي لأنه جعل فيها الرجم، وقد رجم - هو تعالى - قوم لوط، وجعل العقوبة على القذف بها ثمانين جلدة والرمي بغيرها فيه الاجتهاد، وحد الشرب ثمانون، وحد المفترى ثمانون^(٣) .

شروط القذف :

وللقذف شروط لا بد من توفرها حتى تصبح جريمة القذف عقوبة تستحق الجلد، وهذه الشروط منها ما يجب توافره في القاذف ومنها ما يجب توافره في المقدوف، وإليك البيان :

(١) سورة النور، الآية (١٥) .

(٢) سورة النور، الآية (١٦) .

(٣) تفسير سورة النور لشيخ الإسلام ابن تيمية / ٤٣ .

قال في دليل الطالب: ويجب بشروط تسعة^(١): أربعة منها في القاذف: وهو أن يكون بالغاً عاقلاً مختاراً ليس بوالد للمقذوف وإن علا كقود . . . وخمسة في المقذوف وهو: كونه حراً مسلماً عاقلاً عفيفاً من الزنى ويوطأ مثله، لكن لا يجد قاذف غير البالغ حتى يبلغ لأن الحق في حدّ القذف للأدمي فلا يقام بلا طلبه .

أما الحنفية: فقد اشترطوا لوجوبه شروطاً في القاذف وفي المقذوف به وفي المقذوف فيه وفي نفس القذف فاشترطوا في القاذف: ثلاثة شروط: أحدهما: العقل .
الثاني: البلوغ .

وثالثهما: عدم إتيانه بأربعة شهداء، واشترطوا في المقذوف شيئين: أحدهما: أن يكون محصناً .
وثانيهما: أن يكون المقذوف معلوماً .

واشترطوا في القاذف والمقذوف شرطاً واحداً وهو أن لا يكون القاذف أب المقذوف ولا جده وإن علا ولا أمه ولا جدته وإن علت . . . وأضاف صاحب المذهب شرطاً آخر في القاذف وهو الاختيار^(٢) .
واشترطوا في المقذوف به نوعين أحدهما أن يكون القذف بصريح

(١) قال القرطبي: للقذف شروط عند العلماء تسعة: شرطان في القاذف وهما: العقل والبلوغ لأنها أصلاً التكليف إذ التكليف ساقط دونها وشرطان في الشيء المقذوف به وهو أن يقذف بوطيء يلزمه فيه الحد وهو الزنا واللواط، أو بتفيمه من أبيه دون سائر المعاصي، وخمسة في المقذوف: وهو العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رمي بها - كان عفيفاً من غيرها أم لا - وإنما شرطنا في المقذوف: العقل والبلوغ كما شرطناهما في القاذف وإن لم يكونا في معاني الاحصان لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الإذاية بالمضرة الداخلة على المقذوف ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ إذ لا يوصف اللواط فيهما ولا منهما بأنه زنا . . .
(انظر القرطبي/١٢/١٧٣/٠).

(٢) المذهب للشيرازي/٥/٢٧٢/٠.

الزنى . . . وثانيهما: أن يكون المقذوف به متصور الوجود من المقذوف .
 واشترطوا في المقذوف فيه أن يكون القذف في دار العدل^(١) . . . كما
 اشترطوا في نفس القذف أن يكون مطلقاً عن الشرط والإضافة .
 أما المالكية فقالوا: إن الشروط ثمانية: اثنان في القاذف مطلقاً وهما:
 البلوغ والعقل . . . واثنان في المقذوف مطلقاً: وهما الحرية والإسلام . . .
 وأربعة تخص المقذوف بالزنى: وهي: البلوغ والعقل والعفة والآلة^(٢) .

ما يثبت به الحد :

ويثبت الحد هنا بأحد أمرين: إمّا بإقراره مرة أو شهادة عدلين^(٣) . . .
 وأضاف الأحناف إلى القاذف شرطاً آخر: وهو النطق وقد خالفهم الإمام
 الشافعي في ذلك وقال: إن الأخرس إذا كانت إشارته أو كتابته واضحة
 يعرف بها مقصوده فهو قاذف، وقد رتب عليها الأحناف التعزير^(٤) . . .
 وقال في الانصاف: ويصح قذف الأخرس إذا فهمت إشارته، جزم به في
 الرعاية^(٥) .

ما يشترط لإقامة الحد :

ويشترط لإقامة الحد على القاذف شرطان:
 أحدهما: مطالبة المقذوف لأنه حق له فلا يستوفى قبل طلبه كسائر
 حقوقه^(٦)، ويصح التوكيل في طلبه الحد عند أبي حنيفة

(١) انظر بدائع الصنائع/٩/٤١٦٥-٤١٧٩ .

(٢) حاشية الدسوقي/٤/٣٢٦ .

(٣) المبدع/٩/٨٤، والمغني/٨/٢١٥، والانصاف/١٠/٢٠٠، ونهاية

المحتاج/٧/٤٣٦، وبدائع الصنائع/٩/٤٢٠٤، وحاشية الدسوقي/٤/٣٢٧ .

(٤) تفسير سورة النور/٩١ .

(٥) الانصاف على ابن سليمان المرادوي/١٠/٢١٠ .

(٦) المدونة الكبرى/١٦/١٦، والمبدع في شرح المقنع/٩/٨٦ .

ومحمد . . . وقد رجع أبو يوسف عن هذا وقال : لا أقبل التوكيل في حد ولا قصاص^(١) .

ولم يشترط الشافعي حضور المذوف للاستيفاء^(٢) .

الثاني : ألا يأتي ببينة لقوله تعالى : ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ الآية . . . ولذلك يشترط عدم إقرار المذوف لأنه في معنى البينة ، وإن كان القاذف زوجاً اعتبر شرط آخر وهو امتناعه عن اللعان ، ولا نعلم في هذا كله خلافاً ، ويعتبر استدامة الطلب إلى إقامة الحد ، وبهذا قال الإمام الشافعي وأبو ثور ، وقال الحسن وأصحاب الرأي : لا يسقط الحد بعفوه لأنه حد فلم يسقط بالعفو كسائر الحدود^(٣) .

ألفاظ القذف :

وألفاظ القذف تنقسم إلى صريح ، وكناية : فالصريح : كقوله يازاني يا عاهر ، هذا المذهب وعليه الأصحاب .

والكناية : نحو قوله لامرأته قد فضحتي وغطيتي أو نكست رأسه وجعلت له قروناً وأفسدت فراشه^(٤) .

وقال بعض العلماء تنقسم ألفاظ القذف إلى ثلاثة أقسام : صريح وكناية وتعريض :

فالصريح واضح من اسمه .

والكناية : عرفوها بأنها لا تكون قذفاً إلا إذا أراد ذلك ، وتحتاج إلى توضيح وبيان .

أما التعريض : فمثل أن يقول : لست بزنان وليست هي بزانية ، وقد

(١) المبسوط/٩/١١٤ .

(٢) المجموع/١٨/٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٣) الشرح الكبير لابن قدامة/١٠/٢١٣ - ٢١٤ ، وفتح القدير/٤/٢٠٩ ، وبداية المجتهد/٢/٣٦٩ .

(٤) الاصناف/١٠/٢١٠ ، ٢١٥ ، والمبدع/٩/٨٨ ، ٨٩ .

اختلف العلماء في التعريض هل هو قذف^(١) موجب للحد أم لا . على قولين :

فذهب مالك إلى أنه قذف .

وقال الشافعي وأبو حنيفة لا يكون قذفاً إلا إذا قال : أردت به القذف .
وروى عن الإمام أحمد - رحمه الله روايتان : أحدهما أن التعريض ليس بقذف ولا حد فيه . . . والثانية : أنه قذف في حال الغضب دون حال الرضا^(٢) .

وقال في أضواء البيان بعد سياقه لأقوال العلماء - رحمهم الله - : وأظهر القولين عندي أن التعريض إذا كان يفهم فيه معنى القذف فهما واضحاً من القرائن أن صاحبه يحد ، وأن الجناية على عرض المسلم تتحقق بكل ما يفهم منه ذلك فهماً واضحاً ولثلاً يتذرع بعض الناس لقذف بعضهم بألفاظ التعريض التي يفهم منها القذف بالزنا . . . والظاهر أنه على قول من قال من أهل العلم أن التعريض بالقذف لا يوجب القذف إنه لا بد من تعزيز المعرض بالقذف للأذى الذي صدر منه لصاحبه بالتعريض^(٣) ، والعلم عند الله تعالى .

القذف بغير الزنا :

ومن قذف بغير الزنا أو نفى النسب كقوله : يافاسق أو يأكل الربا ، ونحو ذلك يلزمه التعزيز بما يراه الإمام رادعاً له ولأمثاله من العقوبة من غير تحديد شيء في ذلك من جهة الشرع . . . وقال بعض العلماء أن التعزيز

(١) حاشية الدسوقي / ٤ / ٣٢٧ .

(٢) تفسير آيات الأحكام للصابوني / ٢ / ٦٤ ، ٦٥ ، والمغني / ٨ / ٢٢٢ .

(٣) أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي / ٦ / ٩٩ ، والمبدع / ٩ / ٨٤ ، والمغني / ٨ / ٢١٥ ، وبدائع الصنائع / ٩ / ٤٢٠٤ ، وحاشية الدسوقي / ٤ / ٣٢٧ ، ونهاية المحتاج / ٧ / ٤٣٦ .

بحسب اجتهاد الإمام فيما يراه رادعاً مطلقاً^(١).

حد العبد :

والعبد حده أربعون جلدة . . . قال في الانصاف : وهذا الحكم جار، ولو أعتق قبل الحد وهو صحيح وهو المذهب ولا أعلم فيه خلافاً^(٢).
وحيث أن حكمه لم يثبت في السنة فقد اختلف العلماء رحمهم الله - في ذلك، فذهب الأكثر إلى أن حكم العبد إذا قذف على النصف من الحر وهو أربعون جلدة فهو حد يتنصف بالرق مثل حد الزنا، قال تعالى : ﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾^(٣).

قال مالك : قال أبو الزناد : سألت عبد الله بن عامر بن ربيعة فقال : أدركت عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والخلفاء وهلم جرا فما رأيت أحداً جلد عبداً في فرية أكثر من أربعين جلدة .

وروى عن ابن مسعود والزهري وعمر بن عبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب والأوزاعي وابن حزم^(٤) أنه يجلد ثمانين جلدة لأنه حق الأدمي ، والجناية لا تختلف حرية ورقاً .

(١) أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي /٩٢/٦، والمبدع /٩٥/٩ .

(٢) الانصاف /٢٠٠/١٠ .

(٣) سورة النساء، الآية (٢٥) .

(٤) قال في أضواء البيان أظهر القولين عندي دليلاً أن العبد إذا قذف حراً جلد ثمانين لا أربعين، وإن كان هذا مخالفاً لجمهور أهل العلم، وإنما استظهرنا جلده ثمانين لأن العبد داخل في عموم فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا يمكن إخراجه من هذا العموم إلا بدليل ولم يرد دليل يخرج العبد من هذا العموم لا من كتاب ولا من سنة ولا من قياس وإنما ورد النص على تشطير الحد عن الأمة في حد الزنا، وألحق العلماء بها العبد بجامع الرق والزنا غير القذف، أما القذف فلم يرد فيه نص ولا قياس في خصوصه، وأما قياس القذف على الزنا فهو قياس مع وجود الفارق لأن القذف جنائية على عرض إنسان معين والردع عن الأعراض حق للأدومي فيردع العبد كما يردع الحر . . . (أضواء البيان /٩٣/٦) .

ورجح صاحب الروضة الندية الرأي الثاني . . . أما ابن حزم فقد خالف جمهور الفقهاء ورأى أن قاذف العبد كقاذف الحر^(١)، ولا فرق بينهما في هذه الناحية، وقال: وأما قولهم لا حرمة للعبد ولا للأمة فكلام سخيف والمؤمن له حرمة عظيمة ورب عبد جلف خير من خليفة قرشي عند الله - تعالى - ورأى ابن حزم هذا رأي وجيه وحق لو لم يصطدم بالنص^(٢).

وهناك ثلاث مسائل: وهي من قذف جماعة بكلمة واحدة أو بكلمات أو قذف واحداً مرات، وقد حقق في أضواء البيان أن الأصوب فيها أن من قذف جماعة بكلمة واحدة فعليه حد واحد لأنه يظهر به كذبه على الجميع وتزول المعرة عن الجميع، ومن رمى جماعة بكلمات أنه يتعدد عليه الحد بعدد الكلمات التي قذف بها لأنه قذف كل واحد قذفاً مستقلاً لم يشاركه فيه غيره وحده لبعضهم لا يظهر به كذبه على الثاني الذي قذفه بلفظ آخر، والأظهر أنه إن قذفهم بعبارات مختلفة تكرر عليه الحد بعددهم، وقال: إنه اختيار صاحب المغني، وقال: إنه إن كرر القذف لرجل واحد قبل إقامة الحد عليه يكفي فيه حد واحد، وقال: إنه الأظهر عندنا.

(١) انظر المحلى/١١/٣٢٨/ مسألة/٢٢٢٧/ قذف العبد والاماء، قال في أضواء البيان: قدمنا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل﴾ الآية . . . إن الحر إذا قذف عبداً لا يحد له وذلك ثابت في الصحيحين عنه - ﷺ - أنه قال: «من قذف عبده بالزنى أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال»، وقوله - ﷺ - في هذا الحديث الصحيح أقيم عليه الحد يوم القيامة يدل على أنه لا يقام عليه الحد في الدنيا وهو كذلك، وهذا لا نزاع فيه بين من يعتد به من أهل العلم.

وقال القرطبي: قال العلماء: وإنما كان ذلك في الآخرة لارتفاع الملك واستواء الشريف والوضيع والحر والعبد، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى، ولما كان ذلك تكافؤ الناس في الحدود والحرمة واقتصر لكل واحد من صاحبه إلا أن يعفو المظلوم، وهو رأي وجيه وحق إن شاء الله، والعلم عند الله تعالى.

(٢) فقه السنة للسيد سابق/٩/١٨٦، ١٨٧.

ونقل عن الإمام مالك في المدونة : أنه إن قذف رجلاً فلما ضرب أسواطاً قذفه ثانياً أو آخر ابتدء الحد عليه ثمانين من حين يقذفه ولا يعتد بما مضى من السياط^(١) .

العفو عن حد القذف :

هل يسقط حد القذف بالعفو؟
مذهب الحنابلة : أنه يسقط^(٢) كما في الزاد وغيره . . وبهذا القول قال الشافعي .

وقال أبو حنيفة لا يسقط^(٣) ، وهذا منه بناء على أنه حق لله .
وتوسط مالك فقال : إن بلغ الإمام لم يجز وإلا جاز^(٤) .
ورجح ابن حزم أن القذف من حقوق الله ، فلا يجوز أن يعفو عنه وهو حق للمقذوف ، فلا يقام إلا بطلبه^(٥) . . . واختار هذا الرأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٦) .

-
- (١) أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي /٦/ ١٠٧/ ، والمغني /٨/ ٢٣٤/ .
 - (٢) انظر الانصاف في فقه الحنابلة للمرداوي /١٠/ ٢٠١/ وانظر المبدع في شرح المقنع لابن مفلح /٩/ ٨٤/ ، والمغني في فقه الحنابلة /١٠/ ٢٠٥/ .
 - (٣) انظر المبسوط للسرخسي /٩/ ١٠٩/ فقه حنفي .
 - (٤) انظر حاشية الدسوقي على الشرح الكبير /٤/ ٣٣١/ ، وقال : قبل بلوغ الإمام أو نائبه أو بعده إن أراد المقذوف سترأ على نفسه كأن يخشى أنه إن ظهر ذلك قامت عليه بينة بما رماه أو يقال : لم حد فلان؟ فيقال : بقذفه فلاناً فيشتهر الأمر ويكثر لغط الناس أو نحو ذلك ، فقه مالكي .
 - (٥) انظر المحلى لابن حزم /١١/ ٣٤٨/ .
 - (٦) انظر الانصاف /١٠/ ٢٠١/ فقه حنبلي .

الفصل الرابع

آراء الفقهاء في اعتبار القذف جريمة

آراء الفقهاء في اعتبار القذف جريمة

يستهدف الإسلام حماية أعراض الناس والمحافظة على سمعتهم وصيانة كرامتهم، وهو لهذا يقطع ألسنة السوء ويسد الباب على الذين يلتمسون للبراء العيب والقذف من حيث هو جريمة شنيعة وخصلة ذميمة ومنكر من القول وزور إذا لم يدعم بالدليل القاطع على صحة الدعوى فالمسلم شريف وعزيز وكريم عند الله - تعالى - ومن أجل ذلك حماه الإسلام وحرم الاعتداء على عرضه والنيل من كرامته وتلويث سمعته فقذف المحصنات من الكبائر التي تهدد المجتمع وتقوض بنيانه وتهدم أركانه، وإتهام المؤمنين وقذفهم بالباطل إشاعة للفاحشة وقطع لوشائج القربى والصلات بين المسلمين، وفيه إثارة للعداوات والبغضاء بين المسلمين وهي كلها أمور حاربا وحذر منها الإسلام^(١).

وعلى المسلم واجب خاص هو الستر على إخوانه المسلمين وعدم التعرض لهم بسوء . . . والقذف من حيث هو فيه تجريح وتلويث لسمعة المقذوف وإهانة له وتدنيس لسمعته وخدش لكرامته وجريمة القذف والالتهام بالباطل تولد أخطاراً جسيمة وتترك آثاراً سيئة وتعرض المجتمع الإسلامي للتفكك والضياع، والمؤمنون إخوة، ومن واجب الأخ أن يحفظ سمعة وكرامة أخيه ولا يدينسها ولا يسيء إليه ولا يחדش كرامته، والمسلم والعربي خاصة يهون عليه كل شيء عدا عرضه، ومن المسلم به أن كثيراً من الأشياء إذا ضاعت وتلفت ومنها المال تعوض عدا الأعراض، وخاصة أعراض النساء، فالمرأة إذا قذفت أو رميت بسوء أو نسب إليها عمل قبيح تغيرت نظرة الناس إليها ونفر منها الأقربون وتحطمت آمالها وسقطت

(١) فقه السنة للسيد سابق/٩/١٧٩.

كرامتها وقلت هيبتها وسهل الاعتداء على عرضها وتجريح سمعتها وينجر أثر ذلك إلى بيتها وعائلتها، أما أولادها وبناتها فقل ما شئت عما يصيبهم من الهم والغم والمهانة عند الناس، كما أن القذف وقول السوء يولد أخطارا جسيمة ومصائب كبيرة فكم من نفوس أزهقت بسببه ومولودة وئدت وبيوت خربت وعوائل تشردت وتفرقت لذلك كله وصيانة لأعراض المسلمين حمى الإسلام الأعراض ورتب على القذف كما سبق عقوبات معينة بدنية وأدبية ودينية وشدد في عقوبة القذف وجعلها قريبة من عقوبة الزنا - ثمانين جلدة - مع إسقاط الشهادة والوصف بالفسق - وكما مر - فالعقوبات للقذف أنواع:

جسدية : تنال البدن بالضرب

والثانية : أدبية تتعلق بالناحية المعنوية فتسقط كرامته واعتباره، وهو هذا إنسان هابط ينظر إليه بمنظار معين فهو أفاك أثيم لا يوثق به ولا يحترمه الناس ولا يقبلون قوله ولا يصدقونه وينفرون منه .

والثالثة : دينية فهو فاسق عاص لله مخالف لأمره معتد على عباده بالإثم وقول الزور والبهتان، وبالجملة فهو إنسان عديم الضمير نفسه مريضة ومروءته ضعيفة وحيأؤه قليل وخوفه من الله لم يمنعه من قول الإثم وتعاطي البهتان فهو أفاك أثيم . فالذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ويؤذون عباد الله بوجه عام بالقول السيء وردىء الكلام توعدهم القرآن بالعذاب العظيم في الدار الآخرة وهم ملعونون في الدنيا والآخرة كما هو صريح القرآن والقذف معدود في السبع الموبقات .

قال في ظلال القرآن : «والتشديد في عقوبة الزنى لا يغني وحده في صيانة حياة الجماعة وتطهير الجو الذي تعيش فيه، والإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء الحياة النظيفة - كما قلنا - إنما يعتمد على الضمانات الوقائية

وعلى تطهر جو الحياة كلها من رائحة الجريمة لذلك يعقب على حد الزنى بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة ثم يمضي في الطريق خطوة أخرى في استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة فيعاقب على قذف المحصنات وإتهامهن دون دليل أكيد: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾^(١).

إن ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات وهن العفيفات الحرائر ثيبات أو أبكار بدون دليل قاطع يترك المجال فسيحاً لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئاً بتلك التهمة النكراء ثم يمضي آمناً فتصبح الجماعة وتمسي، وإذا أعراضها مجرحة وسمعتها ملوثة، وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شك في زوجه وكل رجل فيها شك في أصله وكل بيت فيها مهدد بالانهيار وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق إلى أن قال: والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه وعدم التحرج من الإذاعة به وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة، وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء وفوق الآثار التي تترتب عليها في حياة الناس وطمأنينة البيوت^(٢).

وحيث ثبت بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أن القذف جريمة فرمي المحصنات بدون شك في الزنى جريمة عظيمة منكرة وعقوبتها هي الجلد ثمانون - كما تقدم - ويدخل الرجال والنساء في الأمر على حد سواء حيث الحكم في الشريعة لا يخص أحد الجنسين دون الآخر فخطاب

(١) سورة النور، الآية (٤).

(٢) في ظلال القرآن/٦/٦٢/٦٣.

الرجال خطاب للنساء وذكر الرجال في الأحكام ذكر للنساء وهذا واضح ومعروف حيث الحكمة من حد القذف وترتيب العقاب عليه في العاجل والآجل لمنع أن تشيع الفاحشة في المؤمنين بكثرة الترامي بها ونظراً لمضار القذف الكبيرة رتب الشارع الحكيم عليه الجلد ثمانين واعتبره من الجرائم التي يجب محاربتها ومطاردتها وقلع جذورها تطهيراً للمجتمع المسلم، فهذه رذائل لا يجوز أن يتخلق المسلم بها ولا ينسبها للمسلمين صيانة للأعراض من التهجم وحماية لأصحابها من القلق والآلام النفسية الفظيعة التي تصيب المقدوف إذا نسب إليه ذلك وهو منه براء.

وقد جعل الشارع العقوبة قريبة من عقوبة الزنى مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق وبالطبع سينفر منه الناس ويكرهونه ولا يحبون مجلسه وحديثه فهو أفاك أثيم وقد تكون هذه العقوبة خيراً له فيصلح نفسه ويحفظ لسانه ولا يطلقه في أعراض المسلمين فالحدود زواجر، ففي هذا الحد ردع وزجر له ولأمثاله ممن يرون ويسمعون ما حصل له من ذل وخزى وعار وفضيحة وسقوط اعتبار ومهانة، وفيه أيضاً صيانة للمجتمع الذي يعيش فيه فيتقون آثامه ويسلمون من شره وكذبه وبهتانه، وأي عقوبة أشد من ضربه وإهانته ورد شهادته ووصمه بالفسق، إنها إجراءات ربانية رادعة لا مثل لها في أي نظام أو قانون بشري، فلو طبقت تعاليم الإسلام لوجد فيها الناس الأمن والاستقرار والسعادة والفلاح، فهو تنزيل من حكيم حميد بخلاف النظم البشرية التي تعاقب بالحبس أو الغرامة أو بهما معاً وهي عقوبات ضعيفة وغير كافية ولا رادعة، ولذلك خف القذف على السنة الناس في كثير من الأقطار، وأصبح الشتم واللعن والقذف أسلوباً غير منكر في كثير من الأحيان، ويقذف الرجل الآخر لأنفه الأسباب وهو وسيلة من وسائل الانتقام، ولو عرف هذا القاذف أنه سيجلد الحد المعروف وسيبعد عن الحياة العامة وينبذ ويصبح مردود الشهادة ساقط الاعتبار فلا رئاسة ولا

زعامة لوقف عند حدود الله واحترم الآخرين وكف لسانه وعد كلماته فهذا هو الاحترام الحقيقي للفرد المسلم الذي أتى به الإسلام . . . والفقهاء يرون القذف بوجه عام جريمة منكرة وإن اختلفوا في بعض المسائل الأخرى .

هل القذف حق لله أو للآدمي؟

اختلف العلماء - رحمهم الله - في ذلك :

قال في تفسير سورة النور للمودودي : وهناك اختلاف بين الفقهاء حول اعتبار القذف من الجنايات التي تؤاخذ الناس عليها شرطة الدولة ومحكماتها فيقول ابن أبي ليلى : إنه من حق الله فيجب أن يقام عليه الحد سواء أطلب به المقذوف أو لم يطالب وهو من حقوق الله ولكن للمقذوف فيه حق من حيث دفع العار عنه عند أبي حنيفة ولكن بمعنى أنه إذا ثبتت الجريمة على أحد وجب أن يقام عليه الحد ولكن يتوقف رفع أمره إلى الحكام على إرادة المقذوف ومطالبته فهو من هذه الجهة من حقوق العباد، وهذا الرأي هو الذي ذهب إليه الشافعي والأوزاعي .

أما مالك فعنده التفصيل فيقول : إن قذف القاذف بحضور من الإمام يؤاخذ عليه، وإلا فإن إقامة الدعوى عليه متوقفة على مطالبة المقذوف، وقال : إن مذهب الحنفية لا يطالب بإقامة الحد على القاذف إلا المقذوف نفسه أو من لحق بنسبه العار، كالوالد والوالدة والأولاد وأولاد الأولاد^(١) . . . وإذا قلنا أنه حق من حقوق الله - كما هو رأي الحنفية - ترتب عليه الآتي :

١ - أنه إذا بلغ الحاكم وجب عليه إقامة الحد، وإن لم يطلب المقذوف .

(١) تفسير سورة النور للمودودي / ١٠١ - ١٠٢ /، والانصاف / ١٠ / ٢٠٠، ٢٠١ / .

٢ - لا يسقط بعفو المقدوف عن القاذف وتنفع القاذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى .

٣ - يتنصف الحد فيه بالرق كالزنى .

وإذا قلنا : أنه من حقوق الأدميين كما هو مذهب مالك والشافعي ترتب عليه الآتي :

١ - أن الإمام لا يقيمه إلا بطلب المقدوف .

٢ - يسقط بعفو المقدوف عن القاذف .

٣ - إذا مات المقدوف قبل إقامة الحد فإنه يورث عنه ويسقط بعفو الوارث^(١) .

قال في أحكام القرآن لابن العربي قوله (فاجلدوهم) فيه ثلاثة أقوال :
أن حد القذف حق من حقوق الله كالزنى ، قاله أبو حنيفة .

الثاني : من حقوق المقدوف ، قاله مالك والشافعي .

الثالث : قاله المتأخرون من الطائفتين ، في حد القذف شائتان : شائبة حق الله وهي الغلبة ، وقال الآخرون شائبة حق العبد هي المغلبة ، ولهذا الشوب اضطرب فيه رأي المالكية ، وقال في ختام كلامه بشأنه : والصحيح أنه حق الأدميين ، والدليل عليه أنه يقف على مطالبته^(٢) .

أما الحنابلة : فقال في المبدع : هو على روايتين :

أحدهما : وهي الأظهر والأشهر وقاله الجمهور : هو حق الأدمي فعليه يسقط بعفوه عنه . . . وقال القاضي وأصحابه : لا عفوه عن بعضه .

(١) انظر تفسير آيات الأحكام للصابوني ٢/٧ ، والفقهاء على المذاهب الأربعة ٥/٢٣٠ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٣٥ ، ١٣٣٦ .

والثانية : هو حق الله قدمها في الرعاية وعليها لا يسقط بالعفو أو الإبراء ولا يستوفيه إلا الإمام أو نائبه وعليها لا يحد ولا يجوز أن يعرض له إلا بطلب، وذكره الشيخ تقي الدين إجماعاً^(١) . . . وذكر في الانصاف أن المسألة على روايتين أيضاً: إحداهما: هو حق للآدمي وقال: إنه المذهب وقال: جزم به في الوجيز وغيره وقدمه في الفروع والكافي وغيرهما وصححه في النظم وغيره . . . قال الزركشي: هو المنصوص المختار للأصحاب، وقال: هو مقتضى ما جزم به المجد، وهو الصواب . . . الثانية، هو حق لله قدمه في الرعايتين والحاوي الصغير^(٢) . . . وقال في الأحكام السلطانية للماوردي هو من حقوق الآدميين يستحق بالطلب ويسقط بالعفو^(٣) .

وفائدة الخلاف: إنه إن كان حقاً لله - تعالى - وبلغ الإمام أقامه، وإن لم يطلب ذلك المقذوف، ونفعت التوبة فيما بينه وبين الله - تعالى - ويتشطر فيه الحد بالرق كالزنى، وإن كان حقاً للآدمي فلا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ويسقط بعفوه ولم تنفع القاذف التوبة حتى يحلله المقذوف^(٤) .

قال في أضواء البيان بعد سياق كلام الإمام القرطبي الذي ذكر آراء العلماء في المسألة: وهل القذف حق لله أو للآدمي: الظاهر أن القذف حق للآدمي وكل حق للآدمي فيه حق لله، وقال إيضاحه: إن حد القذف حق للآدمي من حيث كونه شرع للزجر عن عرضه ولدفع معرة القذف عنه فإذا تجرأ عليه القاذف انتهك حرمة عرض المسلم فكان للمسلم عليه حق

(١) المبدع في فقه الحنابلة/٩/٨٤ .

(٢) الانصاف في فقه الحنابلة/١٠/٢٠٠، ٢٠١ .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي/٢٢٩ .

(٤) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي/٦/١٠٠، وتفسير القرطبي/١٢/١٧٧ .

بانتهاك حرمة عرضه وانتهاك أيضاً حرمة نهي الله عن وقوعه في عرض المسلم فكان لله حق على القاذف بانتهاكه حرمة نهيه وعدم امتثاله، فهو عاص لله مستحق لعقوبته فحق الله يسقط بالتوبة النصوح وحق المسلم بإقامة الحد أو بالتحلل منه، وقال: الذي يظهر على هذا التفصيل أن المقذوف إذا عفا وسقط الحد بعفوه إن للإمام تعزيز القاذف لحق الله^(١) اهـ . وهو كلام جيد وصواب إن شاء الله كما يظهر لي والعلم عند الله تعالى .

قبول شهادة القاذف :

وقد اتفق الفقهاء - رحمهم الله تعالى - على أن القاذف لا تقبل شهادته مادام مصراً على ذنبه ولم يتب إلى الله - تعالى - مما بدر منه لأنه ارتكب جرماً عظيماً وذنباً كبيراً استوجب بسببه الفسق والفسق يذهب بعدالته والعدالة شرط من شروط الشهادة وما وقع عليه من جلد فهو مكفر للإثم الذي ارتكبه ومنقذ له من عذاب الآخرة، أما وصفه بالفسق الموجب لرد الشهادة فهو لا يزول بذلك .

بقي عندنا مسألة واحدة وهي ماذا لو تاب وأتاب وحسنت توبته فهل يرد له اعتباره وتقبل شهادته؟ إليك البيان :

اختلاف الفقهاء في قبول شهادة القاذف :

اختلف الفقهاء رحمهم الله في ذلك، ولهم في ذلك رأيان :

الأول : يرى قبول شهادة من أقيم عليه الحد في القذف وتاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً، وهذا هو قول مالك والشافعي وأحمد والليث وعطاء وسفيان بن عيينة والشعبي والقاسم وسالم والزهري .

(١) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي/٦/١٠٢، ١٠٣/ .

الثاني : يرى عدم قبولها، وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة والأوزاعي والثوري والحسن وسعيد بن المسيب وشريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير.

ومعلوم أن الله - تعالى - رتب على القذف ثلاثة أحكام : الحد ورد الشهادة والفسق تغليظاً لشأنه وتعظيماً لأمره وقوة في الردع عنه، وقال الإمام أبو حنيفة رد الشهادة من جملة الحد، وقال بعض العلماء بل ردها من علة الفسق، فإذا زال بالتوبة زال رد الشهادة بدليل قوله تعالى : ﴿إلا الذين تابوا﴾ الخ^(١).

أما تقسيم الخلاف في الشهادة إلى رأيين فهو الذي رأيته لبعض العلماء، أما البعض كابن العربي فيفصل الموضوع أكثر فيقول ابن العربي^(٢) : لا خلاف أن التوبة تسقط الفسق.

واختلفوا في رد الشهادة على أربعة أقوال :

الأول : تقبل قبل الحد وبعد التوبة، قاله مالك والشافعي وغيرهما من جمهور الناس.

الثاني : إنه إذا قذف لا تقبل شهادته أبداً لا قبل الحد ولا بعده، وهو مذهب شريح.

الثالث : أنها تقبل قبل الحد ولا تقبل بعده، وإن تاب، قاله أبو حنيفة.

الرابع : أنها تقبل شهادته بعد الحد ولا تقبل قبله، وهو قول إبراهيم النخعي، وساق قصة المغيرة بن شعبة مع عمر بن الخطاب وقال : إن الشهادة حكم علته بالفسق، فإذا زالت العلة وهي

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٣٦، والقرطبي ١٢/١٧٩، ١٨٠، وشرح فتح القدير ٤/٢٠٦، وشرح الزرقاني ٧/١٦٥، وبداية المجتهد ٢/٣٠٠، والمهذب ٢/٣٤٨، والمغني ٨/.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٣٧.

الفسق بالتوبة قبلت الشهادة كما في سائر المعاصي . . . وهو كلام جيد ووجيه . . . وأجود منه ما قاله الأستاذ سيط قطب - رحمه الله - بعدما ساق كلام الأئمة : مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة - رحمهم الله تعالى - ذكر بعد ذلك أن الشعبي والضحاك قالوا لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف فحينئذ تقبل شهادته . . . قال - رحمه الله - : وأنا أختار هذا الرأي الأخير لأنه يزيد على التوبة إعلان براءة المذدوف باعتراف مباشر من القاذف، وبذلك يمحي آخر أثر للقذف، ولا يقال أنه إنما وقع الحد على القاذف لعدم كفاية الأدلة ولا يحك في أي نفس ممن سمعوا الاتهام أنه ربما كان صحيحاً ولكن القاذف لم يجد بقية الشهود بذلك يبرؤ العرض المذدوف تماماً ويرد له اعتباره من الوجهة الشعورية بعد رده من الوجهة التشريعية فلا يبقى هنالك داع لاهدار اعتبار القاذف المحدود الثابت المعترف بما كان من بهتان^(١) .

منشأ الاختلاف في قبول الشهادة :

وأساس الاختلاف في الآية الاختلاف في تفسير قوله تعالى : ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾^(٢) . . . فالذين قالوا : إن شهادته لا تقبل جعلوا الاستثناء من الحكم بالفسق والذين قالوا : إنها تقبل جعلوا الاستثناء من النهي عن قبول الشهادة والحكم بالفسق، وقال في أضواء البيان : «اعلم أن المقرر في أصول المالكية والشافعية والحنابلة أن الاستثناء إذا جاء بعد جمل متعاطفات أو مفردات متعاطفات أنه يرجع لجميعها إلا للدليل من نقل أو عقل

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب / ٦ / ٦٤ .

(٢) سورة النور، الآية (٤) .

يخصه ببعضها خلافاً لأبي حنيفة القائل برجوع الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط وقال: فتحصل أن الجملة الأخيرة التي هي قوله «وأولئك هم الفاسقون» يرجع لها الاستثناء بلا خلاف وأن الجملة الأولى التي هي «فاجلدوهم ثمانين جلدة» لا يرجع لها الاستثناء في قول عامة أهل العلم ولم يخالف إلا من شذ وأن الجملة الوسطى «ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً» يرجع لها الاستثناء في قول جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة خلافاً لأبي حنيفة . . . وقال الشيخ - رحمه الله - وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب أن الذي يظهر لنا في مسألة الاستثناء بعد جمل متعاطفات أو مفردات متعاطفات هو ما ذكره بعض المتأخرين كابن الحاجب من المالكية والغزالي من الشافعية والآمدي من الحنابلة من أن الحكم في الاستثناء الآتي بعد متعاطفات هو الوقف ولا يحكم برجوعه إلى الجميع ولا إلى غيره إلا بدليل وإنما قلنا: إن هذا هو الأظهر لأن الله - تعالى - يقول: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾^(١) . . . وقد أسلفت كلام الأستاذ سيد قطب^(٢) وقال عنه الأستاذ الصابوني: وهذا المذهب الذي اختاره سيد قطب تظهر عليه مخايل الجودة والانصاف ويحقق العدل بين جميع الأطراف: القاذف والمقذوف، فلا يظلم أحد منهما ولا يضيع حق الله ولا حق العبد فلعله يكون الأرجح، وهو رأي صائب وسديد إن شاء الله تعالى^(٣).

(١) أضواء البيان للشنقيطي/٦/٨٩، ٩٠، انظر القرطبي/١٢/١٨٠، ١٨١.

(٢) انظر ص/٢٩٠، ٢٩١.

(٣) تفسير آيات الأحكام للصابوني/٢/٧٣.







تنفيذ حكم القذف فيمن خاضوا في حديث الإفك

قلت فيما مضى من البحث أن عبد الله بن أبي بن سلول هو الرأس المدبر لحديث الإفك، بل هو رأس الأفعى، فهو الذي كان يجمعه ويستوشيه ويخرجه بالبحث والمسألة ولا يدعه يخمد، فهو وراء حادث الإفك من بدايته حتى نهايته، وإليه أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾^(١).

ويقول العلماء: إن معظم الشر كان منه وذلك إمعاناً منه في عداوة النبي - ﷺ - وحقده عليه وكرهه له ولدعوته - قبحه الله - أما الباكون ممن انزلقوا في حديث الإفك فهم - وكما يقول العلماء - لم يخرجوا عن دائرة الإيمان، كما سنوضحه إن شاء الله فيما بعد. . . ولم يذكر التاريخ لنا وكذلك الأحاديث الصحيحة إلا من سبقت الإشارة إليهم، وسنعرض لهم بحول الله قريباً وقد تضمنت الآيات العشر من سورة النور توبيخاً لمن اشترك في هذه الأقاويل الباطلة والإشاعات المغرضة. . . وقد قلت قبلاً أن المتحدثين من المؤمنين في الإفك قد انخدعوا بأقاويل وأضاليل ابن أبي وأضرابه وإخوانه من المنافقين واليهود المارقين، وقد أشار القرآن إلى حد القذف فقال: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾^(٢). . . الآية.

وقد مر الكلام عليها في موضعها، وهذا المشار إليه فيها حد القذف وتطبيقاً لما جاء في القرآن فإن عصابة الإفك قد استوجبت حد القذف بنص

(١) سورة النور، الآية (١١).

(٢) سورة النور، الآية (٤).

القرآن إذ تعذر عليهم الإتيان بالشهود وتبين كذبهم وانفضح أمرهم بصريح القرآن، فكانوا قذفة أفاكين آثمين فاستوجبوا الحد، وهو ما حصل لهم.

هل نفذ حد القذف على أحد من أصحاب الإفك؟

ورد في سيرة ابن هشام أنه عقب نزول آيات البراءة أمر رسول الله - ﷺ - بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش فضربوا حدهم وكانوا ممن أفصح بالفاحشة^(١).

وذكر صاحب الامتاع مثل ذلك، وأنه ضرب معهم ابن أبي... ثم نقل عن الواقدي أنه قيل لم يضربهم وأن ذلك أثبت^(٢).
وذكر صاحب الحلبية رواية عن أصحاب السنن الأربعة عن عائشة - رضي الله عنها - أنه - ﷺ - أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم... وقال: إن المرأة كانت حمنة بنت جحش، والرجلين: أخوها عبيد الله أبو أحمد بن جحش ومسطح بن أثاثة... ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول لأن الحد كفارة، وهو ليس من أهلها، وقيل: لأنه لم تقم البينة عليه بذلك بخلاف أولئك، وقيل لأنه لا يأتي بذلك على أنه من عنده بل على لسان غيره.

وفي الطبراني ومعجم النسائي عن عائشة - رضي الله عنها - أن عبد الله بن أبي بن سلول جلد مائة وستين جلدة، أي حدّ حدين، وأن ذلك لأنه قذف زوجة نبي^(٣).

(١) سيرة ابن هشام/٣/١٩٢/.

(٢) النفاق والمنافقون - إبراهيم علي سالم - /٢١١/.

(٣) النفاق والمنافقون / إبراهيم علي سالم / ٢١٢ /، والحلبية / ٢ / ٣٢٤ /.

وروى الإمام أحمد - رحمه الله - عن عائشة : قالت : لما نزل عذري قام رسول الله - ﷺ - فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم^(١) .

ووقع عند أبي داود تسميتهم وهم : (حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش) .

وقال في زاد المسير: روى عن ابن عباس : أن رسول الله - ﷺ - جلد عبدالله بن أبي مسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش^(٢) . . . فأما الثلاثة فتابوا . . . وأما عبدالله بن أبي فمات منافقاً . . . وبعض العلماء ينكر صحة هذا ويقول : لم يضرب أحد^(٣) .

وقال في تاريخ الخميس : ولما نزلت ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾^(٤) . . . جلد رسول الله - ﷺ - بعد تنازع بين الأصحاب أربعة : عبدالله بن أبي وحسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش أخت زينب التي عصمها الله بالورع جلدهم ثمانين ثمانين . . . وفي رواية وجلد زيد بن رفاعه خامس الأربعة المذكورة كذا في معالم التنزيل وفي الاكتفاء قال قائل من المسلمين في ضرب حسان وصاحبيه في فريتهم على عائشة - رضي الله عنهم - :

لقد ذاق حسان الذي كان أهله
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم
وآذوا رسول الله فيها فجللوا
وصبت عليه محصداً كأنها
وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطح
وسخطة ذي العرش الكريم فأترحوا
مخازي تبقى عمموها وفضحوا
شآبيب قطر من المزن تسفح

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وقال الترمذي حديث حسن .

(٢) رواه أبو داود في سننه رقم ٤٤٧٥ .

(٣) زاد المسير/٤/١٩/ .

(٤) سورة النور، الآية (١١) .

وقد ذكر أبو عمرو بن عبد البر الحافظ أن قوماً أنكروا أن يكون حسان خاض في الإفك أو جلد فيه . . . كما روى عن عائشة أنها برأته من ذلك فالله أعلم^(١) .

وقال أبو حيان: والمشهور أنه حد حسان ومسطح وحمته، وقيل: وعبدالله بن أبي، وقد ذكره بعض شعراء ذلك العصر في شعرهم، وقيل: لم يحد مسطح، وقيل ولم يحد عبدالله، وقيل: لم يحد أحد في هذه القصة وهذا مخالف للنص^(٢) .

أما حسان فقد أسلفت أن عائشة برأته من الفرية، وقالت: إنه لم يقل شيئاً، وقد أنكروا حسان أن يكون قال شيئاً، ومن ذلك ما ورد في شعره حصان رزان . . . إلخ وقد مر . . . وقد روى أنه لما أنشدها شعره قالت له: لست كذلك تريد أنك وقعت في الغوافل، وهذا تعارض ويمكن الجمع بأن يقال: أن حساناً لم يقل ذلك نصاً وتصريحاً ويكون عرض بذلك وأوماً إليه فنسب ذلك إليه^(٣) . . . وقد اختلف الناس فيه: هل خاض في الإفك أم لا، وهل جلد الحد أم لا .

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - روي عن محمد بن إسحاق وغيره أن النبي - ﷺ - جلد في الإفك رجلين وامرأة: مسطحاً وحساناً وحمته، وذكره الترمذي .

وذكر القشيري عن ابن عباس قال: جلد رسول الله - ﷺ - ابن أبي ثمانين جلدة وله في الآخرة عذاب النار، وقال القشيري: والذي ثبت في الأخبار أنه ضرب ابن أبي وضرب حسان وحمته، وأما مسطح فلم يثبت عنه قذف صريح، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح .

(١) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس / ١ / ٤٧٩ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان / ٦ / ٤٣٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / ٦ / ٢٠٠ .

قال الماوردي وغيره: اختلفوا: هل حد النبي - ﷺ - أصحاب الإفك على قولين:

أحدهما: أنه لم يحد أحداً من أصحاب الإفك لأن الحدود إنما تقام بإقرار أو بينة ولم يتعبده الله أن يقيمها بأخباره عنها كما لم يتعبده بقتل المنافقين، وقد أخبره بكفرهم.

قال القرطبي: قلت وهذا فاسد مخالف لنص القرآن فإن الله عزوجل يقول: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ أي على صدق قولهم ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾.

والقول الثاني: أن النبي - ﷺ - حد أهل الإفك: عبدالله بن أبي ومسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وساق الشعر الذي سبق أن ذكرته.

وقال الإمام القرطبي أيضاً: قلت المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حد حسان ومسطح وحمنة، ولم يسمع بحد عبدالله بن أبي، وذكر الحديث الذي رواه أبو داود، وقد سبق ذكره.

وقال: جاء في كتاب الطحاوي ثمانين ثمانين وقال: قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبدالله بن أبي لأن الله - تعالى - قد أعد له في الآخرة عذاباً عظيماً، فلو حد في الدنيا لكان ذلك نقصاً من عذابه في الآخرة وتخفيفاً عنه مع أن الله - تعالى - قد شهد ببراءة عائشة - رضي الله عنها - وبكذب كل من رماها فقد حصلت فائدة الحد إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف قال تعالى: فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴿...﴾ وإنما حد هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، ويحتمل أن يقال: إنما ترك حد ابن أبي استئلافاً

لقومه واحتراماً لابنه وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عبادة ومن قومه كما في صحيح مسلم^(١).

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : ولما جاء الوحي ببراءتها أمر رسول الله - ﷺ - بمن صرح بالإفك فحدوا ثمانين ثمانين ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك فقليل لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة فيكفيه ذلك عن الحد . . . وقيل : بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه وقيل : الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو بالبينة، وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين . . . وقيل : حد القذف حق الآدمي لا يستوفى إلا بمطالبتة وإن قيل : إنه حق لله فلا بد من مطالبة المقدوف وعائشة لم تطالب به ابن أبي، وقيل : بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام فإنه كان مطاعاً فيهم رئيساً عليهم فلم يؤمن إثارة الفتنة في حده، ولعله ترك هذه الوجوه كلها فجلد مسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيراً وتكفيراً وترك عبد الله بن أبي إذا فليس هو من أهل ذلك^(٢).

وكلام ابن القيم هذا كلام جيد وصواب إن شاء الله مع ما تقدمه من كلام العلماء كالقرطبي وغيره، والذي ظهر لي من الأدلة السابقة هو ما

(١) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / ٦ / ٢٠١، ٢٠٢ .

(٢) زاد المعاد / ٢ / ١١٤، ١١٥ .

اختاره القرطبي وابن القيم وغيرهم من أن رسول الله - ﷺ - أوقع حد القذف فعلاً على القذفة الذين ورد ذكرهم وهم حسان ومسطح وحمنة كما هو ثابت في الأدلة السابقة وهو الذي اختاره كما تبين لي ، والعلم عند الله تعالى .

الفصل السادس

في

براءة عائشة رضي الله عنها وحكم من قذفها أو غيرها
من أمهات المؤمنين بعدما برأها الله

براءة عائشة رضي الله عنها وحكم من قذفها أو غيرها من أمهات المؤمنين بعدما برأها الله

لعب المنافقون بدعم وتخطيط وتأييد من أعداء الله اليهود في غزوة بني المصطلق أو المريسيع دورين هامين لولا لطف الله وعنايته بعباده المؤمنين لأديا إلى فتنة كبيرة:

أولهما: إيجاد الخلاف ومحاوله بذر الشقاق بين المهاجرين والأنصار، وقد سبق الحديث في ذلك في موضعه .

وثانيهما: إتهام الصديقة بنت الصديق العفيفة الشريفة النظيفة مما هي منه براء اتهمت كذباً وإثماً وزوراً بدافع من الحقد والحسد والبغضاء والضغينة الدفينة، فقد استهدف حديث الإفك تشويه بيت النبوة ومشكاة الرسالة ومعدن الأصالة والشهامة والنبل .

ومعروف أن المنافقين في هذه الغزوة خرجوا بكثرة منقطعة النظير ولهم من وراء ذلك مقاصد وأغراض كثيرة خسيصة دنيئة ممقوتة فهم لا رغبة لهم في الجهاد ولا في الجلاد ولا فيما عند الله من الثواب وحسن العاقبة والمصير، ولكنهم كانوا يوقنون بأن المسلمين سيكون النصر حليفهم فخرجوا من أجل المغنم، وقد حصل للمسلمين والحمد لله النصر المبين، وقد أشرت قبلاً إلى الفتنة الأولى .

وأما الثانية: وهي إتهام أم المؤمنين عائشة مما هي منه براء فقد أشرت إليه فيما مضى أيضاً مما يغني عن إعادته هنا، إلا أنني أقول: أنهم استهدفوا في هذه المرة تدنيس بيت النبوة الطاهر، تلك المنارة العالمية، وذلك المرتقى السامي الرفيع، كما استهدفوا أبا بكر وزوجته أم رومان وبنه بوجه عام وأيضاً قصدوا الإساءة إلى الصحابي الجليل المهاجر المجاهد صفوان بن

المعطل السلمي برميهِ - رضي الله عنه - بخيانة نبيه في زوجته، فقد رمى في شرفه وأمانته وفي أعز ما يملك ظلماً وزوراً، وهو القائل والله ما كشفت كتف أنثى قط .

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - «عندما تصل الآلام ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه فينزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم»^(١) . . . وعائشة العالمة الذكية العفيفة واثقة من نفسها وأن النصر سيكون حليفها في النهاية وأن الله - تعالى - لن يتركها وحدها وحيث أن الإفك بمفهومه ومقاصده التي أرادها أهل الإفك لم يكن قاصراً على عائشة وحدها حيث تجاوزها إلى صاحب الرسالة العظمى ومكانته القيادية . . . وما كان حديث الإفك لعائشة وحدها بل كان موجهاً أيضاً إلى صاحب الرسالة العظمى من أجل ذلك نزل القرآن ببراءتها مكذباً لهم ويفصل في هذه القضية المكذوبة ويوضح الأسرار والحكم الإلهية المرادة من وراء هذا الحادث ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾^(٢) .

ولو لم يكن لعائشة - رضي الله عنها - من المناقب والفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً وعلو منزلة فقد نزل القرآن بشأنها وتولى الباري جلّ وعلا نصرتها والدفاع عنها وتكذيب وإبطال ما نسب إليها بقرآن محكم يتلى إلى يوم القيامة . . . ولما جاء ابن عباس إليها وهي في مرض الموت قالت: أعوذ بالله من النار قال: ابن عباس يأمر المؤمنين مالك والنار وقد أعاذك الله

(١) في ظلال القرآن/٦/٧٦/.

(٢) سورة النور، الآية (١١).

منها وأنزل براءتك تقرأ في المساجد وطيبك فقال: ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ . . . كنت أحب نساء الرسول - ﷺ إليه ولم يحب - ﷺ - إلا طيباً وأنزل بسببك التيمم فقال: ﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ .

وروى أن عائشة وزينب تفاخرتا فقالت زينب: أنا التي أنزل ربي تزويجي، وقالت عائشة: أنا التي برأني ربي حين حملني ابن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب: ما قلت حين ركبتها قالت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت قلت كلمة المؤمنين^(١).

وقد اختلف العلماء - رحمهم الله - تعالى في سبب نزول آية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات . . .﴾ قيل: إنها نزلت في عائشة خاصة وهو مروى عن سعيد بن جبير، ذكره الطبري والسيوطي في الدر ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والثاني أنا في أزواج النبي - ﷺ - خاصة قاله الضحاك، وذكره الطبري والسيوطي ونسبه لعبد بن حميد أيضاً، والثالث: وقيل: إنها في المهاجرات، والرابع: أنها عامة في أزواج النبي - ﷺ - وغيرهن، وبه قال قتادة وابن زيد . . . قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآية في شأن عائشة والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفها الله بها، وقال ابن كثير: وهو الصحيح ويعضد العموم ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» إلى أن قال: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

قال ابن العربي في أحكام القرآن قوله تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾^(٣) . . . يعني في عائشة لأن مثله لا يكون إلا نظير

(١) الفخر الرازي/٢٣/١٩٢/.

(٢) زاد المسير، وحاشيته لابن الجوزي/٦/٢٤/.

(٣) سورة النور، الآية (١٧).

القول في المقول عنه بعينه أو فيمن كان في مرتبتهم أزواج النبي - ﷺ - لما في ذلك من أذية رسول الله - ﷺ - في عرضه وأهله وذلك كفر من فاعله قال هشام بن عمار: سمعت مالكا يقول: من سب أبا بكر وعمر أدب ومن سب عائشة قتل لأن الله يقول: ﴿يعظكم الله﴾، الآية، فمن سجب عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل.

وقال أصحاب الشافعي: من سب عائشة أدب كما في سائر المؤمنين وليس قوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ في عائشة لأن ذلك كفر، وإنما هو كما قال: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» ولو كان سلب الإيمان في سب عائشة حقيقة لكان سلبه في قوله - ﷺ - «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» حقيقة قلنا ليس كما زعمتم أن أهل الإفك رموا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله فكل من سبها بما برأها الله منه فهو مكذب لله، ومن كذب الله فهو كافر، فهذا طريق قول مالك وهي سبيل لائحة لأهل البصائر، ولو أن رجلاً سب عائشة بغير ما برأها الله منه لكان جزاؤه الأدب^(١).

ونقل القرطبي كلام ابن العربي هذا في تفسيره^(٢).

هل يكفر من قذف إحدى أمهات المؤمنين:

ذهب بعض العلماء إلى كفر من قذف إحدى أمهات المؤمنين وذلك لما ورد في ذلك من الوعيد الشديد في حق قاذفهن قال تعالى: ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾^(٣) حتى ذهب ابن عباس إلى عدم قبول توبته وحجة هؤلاء أن قذف أمهات المؤمنين طعن في رسول الله - ﷺ - وجرح لكرامته ومن استباح الطعن في عرض الرسول - ﷺ - فهو كافر ومرتد عن الإسلام^(٤).

(١) أحكام القرآن لابن العربي/٣/١٣٥٥، ١٣٥٦.

(٢) الجناح لأحكام القرآن للقرطبي/٦/٢٠٥.

(٣) سورة النور، الآية (٢٣).

(٤) تفسير آيات الأحكام للصابوني/٢/١١٢.

وقال الألويسي - رحمه الله تعالى - : وظاهر هذه الآية كفر قاذف أمهات المؤمنين - رضي الله تعالى عنهن - لأن الله عز وجل رتب على رميهن عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين . . . والذي ينبغي أن يعول الحكم عليه بكفر من رمى إحدى أمهات المؤمنين بعد نزول الآيات وتبين أنهن طيبات سواء استباح الرمي أم قصد الطعن برسول الله - ﷺ - أم لم يستبح ولم يقصد، وأما من رمى قبل فالحكم بكفره مطلقاً غير ظاهر، والظاهر أنه يحكم بكفره إن كان مستيحاً أو قاصداً الطعن به عليه الصلاة والسلام كابن أبي - لعنه الله تعالى - فإن ذلك مما يقتضيه إمعانه في عداوة رسول الله - ﷺ - ولا يحكم بكفره إن لم يكن كذلك كحسان ومسطح وحمئة، فإن الظاهر أنهم لم يكونوا مستحلين ولا قاصدين الطعن بسيد المرسلين وإنما قالوا ما قالوا تقليداً فوبّخوا على ذلك توبيخاً شديداً^(١) .
وهذا كلام جيد وصواب إن شاء الله تعالى .

وقال الصابوني بعد ذكره لكلام الألويسي : أقول : إن من استحل قذف إحدى أمهات المؤمنين كافر فكيف بمن يستحل قذف أمهات المؤمنين الطاهرات وعلى رأسهن الصديقة عائشة التي برأها القرآن الكريم ونزلت براءتها من السماء . . . ولاشك أن الخوض في أمهات المؤمنين بعد نزول القرآن الكريم تكذيب لله عز وجل في اخباره وطعن لرسول الله وإيذاء له في نسائه وهن العفيفات الطاهرات الشريفات فيكون قاذفهن كافراً بلا تردد والله تعالى يقول : ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾^(٢) .

قال في الانصاف : قذف رسول الله - ﷺ - كقذف أمه ويسقط سبه بالإسلام كسب الله تعالى . . . وقال الشيخ تقي الدين - رحمه الله - : وكذا

(١) تفسير الألويسي / ١٨ / ١٢٧ .

(٢) تفسير آيات الأحكام للصابوني / ٢ / ١١٣ .

من سب نساءه لقدحه في دينه ، وإنما لم يقتلهم لأنهم تكلموا قبل علمه ببراءتها ، وأنها من أمهات المؤمنين - رضي الله تعالى عنهن - لإمكان المفارقة فتخرج بالمفارقة من أمهات المؤمنين وتحل لغيره في وجهه . . . وقيل : لا ، وقيل في غير مدخول بها^(١) . . . وكذا قال في المبدع وساق كلام الشيخ تقي الدين^(٢) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسأل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة . . . وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك . . . ولقد برأ الله - تعالى - أربعة بأربعة ، برأ يوسف بلسان الشاهد ، وشهد شاهد من أهلها وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها أني عبد الله ، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوعلى وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات ، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ، وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله - ﷺ - والتنبيه على أناقة محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين ، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه - ﷺ - وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك ، ويتأمل كيف غضب الله له في حرمة وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابته^(٣) .

قال في أضواء البيان بعد كلامه على الآية الكريمة ﴿وليعفوا وليصْفَحُوا﴾ في هذه الآية الكريمة دليل على أن كبائر الذنوب لا تحبط العمل الصالح لأن هجرة مسطح بن أثاثة من عمله الصالح وقذفه لعائشة من الكبائر ، ولم

(١) الانصاف للمرداوي / ١٠ / ٢٢٢ .

(٢) المبدع لابن مفلح / ٩ / ٩٧ / ٩٨ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري / ٣ / ٥٧ .

يبطل هجرته ، لأن الله قال فيه بعد قذفه لها ﴿والمهاجرين في سبيل الله﴾ فدل ذلك على أن هجرته في سبيل الله لم يحبطها قذفه لعائشة - رضي الله عنها قال القرطبي : في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيراً لا يحبط الأعمال لأن الله - تعالى - وصف مسطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان ، وكذلك سائر الكبائر ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله . . . قال تعالى : ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾^(١) اهـ . . . وما ذكر من أن في الآية وصف مسطح بالإيمان لم يظهر من الآية وإن كان معلوماً^(٢) ، والله تعالى أعلم .

(١) سورة الزمر، الآية (٦٤) .

(٢) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي / ٦ / ١٦٢ ، ١٦٣ / .



الخاتمة

وتتضمن نتائج البحث :

١ - الموضوع الذي بحثت فيه موضوع هام وكبير، والأبحاث والدراسات التي عنيت فيه تحتاج إلى جهد أكبر وهي موزعة في بطون الكتب التي اطلعت عليها، والعلماء الذين بحثوا فيه - رحمهم الله - قد عملوا قصارى جهدهم وأعطوا الموضوع أهمية كبيرة، ونحن لا ننكر فضلهم وسبقهم وما قاموا به من جهد أعطانا المادة الجيدة التي بنينا عليها بحثنا هذا، وأنا وغيري ممن جاء بعدهم وطرق هذا الموضوع مدينون لهم بالسبق والفضل إلا أنني أعود وأكرر فأقول: الموضوع بحاجة إلى توضيح أكثر للرد على شبه الحاقدين والمارقين وأعداء الدين بوجه عام، ولذا اخترت هذا الموضوع وأدليت فيه بدلوى وبحثت فيه قدر طاقتي، فإن كنت قد وفقت فمن الله وعليه اعتمادي واتكالي وإن كنت قد قصرت - والنقص والتقصير من صفات البشر - فهذا مبلغ علمي ومنتهى جهدي .

ولعني في بحثي هذا استطعت جمع شتات الموضوع قدر الطاقة وأسهمت إسهاماً فردياً في بحث جدير بال العناية والاهتمام .

٢ - القرآن الكريم بحكم شموله وخلوده فهو جبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم لازال وسيظل إلى أن يرث الله الأرض وما عليها غضاً طرياً يؤتى أكله كل حين فهو المعجزة الخالدة وفيه الدواء الناجع لجميع عللنا وأمراضنا وهو مصدر عزنا وسعادتنا وسيادتنا، والحاجة ماسة وشديدة إلى دراسته دراسة دقيقة واعية وتطبيقه على جميع شؤون الحياة، فالقرآن الكريم هو دستور حياة المسلم - بمعنى أنه المنطلق الوحيد لجميع تصرفاته وحركاته وسكناته - ومنه يستمد جميع أعماله وأقواله، فهو يضع

القواعد الصحيحة الثابتة للحضارة الحقة الثابتة الباقية لا الحضارة الزائفة الضالة المضلة، ولذا يجب وضع القرآن الكريم في المقام الأول من حياة الأمة منه تستمد جميع أنظمتها وخطتها ومناهجها ولا بد من صبغ الأمة كلها بصبغة الإسلام وربطها كلها برباط متين من عند الله، وهو الصلة الكاملة بيننا وبين الله عن طريقه آمنة بمحمد - ﷺ - لأنه معجزته العظيمة الخالدة التي لا تماثلها معجزة فهو دستور دعوتنا وكتاب هدايتنا ومحل سعادتنا وعزنا في الدنيا والآخرة.

٣ - النفاق بمعناه الواسع الشامل قديم . . . فهو من حيث طريقه . . . وأغراضه لا يخلو منه بلد ولا شعب ولا أمة من الأمم .

والنفاق كما يكون في المعتقدات يكون في الأقوال والأفعال وجميع الأعمال، وإن كان النفاق بمعناه الخاص اسماً إسلامياً لم تعرفه العرب، فالعرب لا تعرف النفاق بمدلوله الإسلامي حيث النفاق وجد وكثر في المدينة . . . لما كانت الغلبة للإسلام وأهله واضطر أناس ممن لا رغبة لهم في الخير أن ينافقوا ليحققوا دماءهم ويكيدوا للإسلام وأهله في الخفاء .

والنفاق له أخطار وأضرار على المجتمعات الإسلامية فهو الداء العضال الفتاك في جسم الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً وهو أولى المتاعب والمصائب التي واجهت الأمة الإسلامية بالمدينة وشخص المنافق تكون من عناصر سيئة وردية، فقد جمع الجبن والغدر والخيانة والندالة والصغار والغرور والمكابرة وسوء النية وخبث الطوية ونفسه ضعيفة في مواجهة الحق، ولا يقوى على القيام به فهو مسلوب القوتين لا يقوى على نفسه ولا على دعوة الحق، ومع ذلك فهو من أخطر الأمراض ومن أشد العلل على المجتمع المسلم وهو أشد فتكاً بجسم الأمة الإسلامية من أعدائها الظاهرين حيث أن المنافق يلبس لباس المسلمين ويظهر بمظهرهم ويسمع أقوالهم ويحضر

جلساتهم وينقل أسرارهم لأعداء الإسلام فقوة النفاق أخطر من قوة الكفر، وكما نشاهد فالقرآن عالج قضية المؤمنين بثلاث آيات وقضية الكافرين بآيتين وعالج قضية المنافقين بثلاث عشرة آية في سورة البقرة حيث النفاق يختلف تماماً عن الكفر، فأساليه عديدة وطرقه متنوعة ولا يعمل إلا في الظلام .

٤ - المنافقون يشكلون دولة داخل الدولة الإسلامية وهم بتسترهم وخفاء نواياهم وظهورهم مع المسلمين بالمظهر البراق الخادع يصعب تمييزهم وإدراكهم إلا لذوي البصائر النيرة، وهذا دأب المنافقين منذ بزوغ فجر الدعوة إلى يومنا هذا على الفساد والإفساد وتشويه الحقائق وإثارة الشبه والشكوك وبلبله الأفكار، وهم يسلكون كل سبيل يوصل إلى غايتهم الذميمة، فإذا سد أمامهم أي طريق اتجهوا إلى طريق آخر، فإذا عجزوا عن التخذيل والارجاف والتباطىء والتكاسل في المعارك الحربية اتجهوا إلى الافساد الداخلي ونشر الشائعات الساقطة المغرضة، فهم مع المسلمين في السفر والحضر، ويعلمون أخبارهم وقصدهم من وراء ذلك اضعاف الجبهة الداخلية .

٥ - قدم القرآن الكريم لنا صوراً ونماذج حية واضحة من طباعهم وأخلاقهم وما جبلوا عليه من خسة ونذالة وتذبذب وتلون، وهم مع جنبهم وخورهم وضعفهم - ولذلك نافقوا - نجد بالمقابل الغرور والمكابرة عاملين أساسيين في حياتهم وسلوكهم، ولذا نجد المواقف القرآنية تجاههم واضحة وصریحة في كثير من آي القرآن الكريم والسنة المطهرة ولقد أكثر - جل وعلا - في كتابه العزيز من ذكر أوصافهم وأحوالهم وبين ضررهم وخطرهم على الأمة الإسلامية .

وهم في حقيقة أمرهم في كل وقت وحين مطايا لليهود، وهذا حاصل ومشاهد لكل ذي عينين وهم حتى يومنا هذا يواصلون غاراتهم وحملاتهم

الشرسة على المسلمين . . . وإذا كانت صلة المنافقين بالكفرة قوية فإن صلتهم بأعداء الله اليهود أقوى وأشد، فهم أساتذتهم ومدبرو أمرهم ومكائدهم، وهم الذين يوجهونهم نحو الشر والفساد ومضايقة العباد.

ولقد كشف القرآن الكريم للرسول وأصحابه ولما يأتي بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أغراض اليهود ومقاصدهم وعرى خططهم فحذر منهم وبين أنهم ألد الخصام.

٦ - المواقف المشينة الذميمة التي وقفها ابن أبي شيخ المنافقين في جاهليته وإسلامه هي نفسها مواقف المنافقين اليوم وقبل اليوم وغداً، فهم يخدعون الناس بمعسول القول ورقيق الكلام ولين الجانب المصطنع وظهورهم الزائف بمظهر المواطنين الصالحين الصادقين الطيبين المخلصين ليتمكنوا من الوصول إلى أغراضهم ومآربهم، وفي النهاية ينكلون بالمؤمنين ويسومونهم سوء العذاب . . . إنها صفة أصيلة ثابتة فيهم، فهم أعداء الرسل وأعداء المؤمنين وهم بحق انتهازيون وصوليون أفاكون همهم مصالحهم وأغراضهم وشهواتهم وما تميل إليه نفوسهم . . . ولكل قوم وارث، فمنافقو تلك الأيام عملوا ما يعمله منافقو هذا الزمان وما أشبه الليلة بالبارحة فالهدف واحد والقصد متحد، وهم من صنع وإيجاد اليهود وهم وراءهم فبينهم من التلاحم والتعاون والتعاقد الشيء الكثير وخير شاهد على ذلك ابن أبي وصلته القوية بيهود المدينة فهم أسياده وأعوانه وشيعته . . . ومنافقو هذا الزمان صلتهم أقوى ما تكون بالكفرة أعداء الإسلام واليهود بوجه أخص، فهم أسيادهم والمخططون والموجهون لهم.

٧ - حادث الإفك وما قبله وما بعده من افتراءات جائرة ظالمة كاذبة موجهة للرسول - ﷺ - وصحبه الكرام كلها من قبل الحرب النفسية التي قصد بها أصحابها الوقوف في وجه الدعوة وصاحبها والنيل من رسالة الإسلام وتشويه الحقائق وقلب المفاهيم الصحيحة.

إن ابن أبي ومن شايعه في حديث الإفك أراد أن يصيب عدة أهداف خسيصة في رميه لعائشة فبجانب ما أراده - وبئسما أراد - من طعن عرض الرسول - ﷺ - وأبي بكر وعائشة وبيت النبوة بوجه عام أراد أن يضع المكانة الخلقية للحركة الإسلامية بالإضافة إلى إشعال نار الفتنة، فالمنافقون ومن ورائهم اليهود لما أفلسوا في الناحية العسكرية وخابت آمالهم في الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية اتجهوا إلى الناحية الخلقية ظانين أنهم سيهزمون المسلمين في ميدان الأخلاق، ولكنهم أصبحوا من الخاسرين .

٨ - علمنا من حديث الإفك قوة تحمله - ﷺ - وصبره وجلده وأنه فوق مستوى الشائعات والأضاليل والأراجيف، ولولا ذلك كله لما كان رسول رب العالمين إلى الخلق أجمعين، فهو - ﷺ - واثق من ربه مطمئن إلى صدق وعده فتحمل الأذى وقبل صنوع التحدي في ذات الله، فهو رحيم وحكيم وناصح لأُمَّته يطمع في هدايتهم . . . وما حديث الإفك إلا حلقة من تلك الحلقات التي نظمها أعداء الله، وحديث الإفك هذا فيه امتحان وابتلاء من الله لنيبه، امتحن في زوجته وحبيبته العفيفة النظيفة الطاهرة المطهرة بنت أبي بكر وزيره وصديقه ورفيقه في الغار وفي هجرته إلى المدينة وفي شتى مراحل نضاله وكفاحه، فأبو بكر الصابر المحتسب الذي جرح في كرامته وصب عليه البلاء صباً والذي أدمى الألم فؤاده . . . إنه في تحمله يُمثل نموذجاً فريداً من الرجال . . . أما كبار الصحابة والغالبية العظمى منهم - إلا ما ندر - فقد استنكروا حديث الإفك ونفوه وما أقروه ورأوا أنه كذب وزور وبهتان ولا يليق بمكان النبوة وبيت الرسالة وشمس الهداية، وهذا واضح من شهادات كبار الصحابة كعمر وأسامة وأبي أيوب ونحوهم ممن أنكروا ذلك ونفاه واعتبره إثماً وزوراً وبهتاناً عظيماً .

٩ - الذين تآمروا في حديث الإفك وكانوا وراء الحادث هم زمرة المنافقين الذين تخرجوا من مدرسة عدو الله ابن أبي فهو شيخهم ومنه انطلقت الأولى

فكان يجمع الحديث ويستوشيه ويفرقه ويتحدث به في مجالسه الخاصة مع زمرة الضلال والبهتان ، واليهود يباركون خطواته ويرسمون له طريقه فقد حاول جاهداً زعزعة الصف الإسلامي والوقوف في وجه المد الإيماني المتدفق ولكنه خاب وخسر وضاعت أحلامه وتحطمت آماله وكان في نهاية الأمر من الخاسرين .

١٠ - قال تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾ الآية .

حديث الإفك له آثار إيجابية مفهومة من قوله تعالى : ﴿ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾ ففيه فوائد عظيمة :

كشف المنافقين وعرى خططهم وأوجب على الأمة الإسلامية الحذر من أعدائها الداخليين والخارجيين على السواء بل قد يكون العدو من الداخل أشد والحذر منه أوجب .

ومن آثاره الطيبة تبرئة أم المؤمنين وإكرام الله لها بإنزال القرآن بشأنها والأجر العظيم لها بالفرية عليها وموعظة المؤمنين والانتقام من المعتدين ، فهو في النهاية خير وبركة في الدنيا والآخرة .

١١ - للشائعات آثار سيئة ونتائج غير محمودة أحياناً فلا بد من التثبت والتروي في نقل الأخبار والتأكد من مصادرها لئلا تكون أعراض المسلمين ومصالحهم مادة سهلة للعابثين والكاذبين والأفاكين .

إن الشائعات المغرضة والأقاويل الكاذبة والدعاوى الباطلة هي مما يزلزل الثقة والمودة بين المسلمين ومما يزرع بذور الحقد والبغض والكرهية والعداوة فيما بينهم ، إن واجب المسلم أن يحسن الظن بأخيه ويدافع عنه في غيابه .

إن الشائعات المغرضة والدعاوى الباطلة قد تنطلي على بعض المسلمين وقد يصدقها، لذا جعل الشرع الشريف الضوابط والروابط لمصادر الأخبار وكيف تتلقى وتنتشر، فمن واجب المسلم أن يتأدب بأدب القرآن ويتخلق بأخلاق صفوة ولد عدنان لما يترتب على هذه الشائعات والأقاويل من أضرار بالغة الخطورة على الفرد والجماعة، فالتروي والتأكد وفحص الأخبار حنكة وفطنة ورزانة ورجولة فالكذابون مهرة وهم طرق عديدة وعجيبة في المكر والتضليل فيقع المسلم وهو لا يدري في شركهم .

١٢ - وجه القرآن - وكما جاء في سورة النور ﴿لولا إذ سمعتموه﴾ الآية - المسلمين إلى الطريق الأسلم والنهج الأقوم تجاه الشائعات والأقاويل حفاظاً على بنياهم وتماسكهم وذلك لما تركه الأقوال غير المؤكدة من آثار غير حميدة على الفرد والجماعة .

١٣ - المستشرقون هم طلائع الغزو الفكري والعسكري للعالم الإسلامي، فهم لا يريدون الانصاف ولا تهمهم الحقيقة بقدر ما يهمهم الطعن والنيل من هذا الدين وهم في الأعم الأغلب قوم مأجورون مسيرون بالإضافة إلى الحقد الدفين والكره المبيت لهذا الدين في نفوسهم .

١٤ - القذف جريمة شنيعة ومنكر من القول وزور وبهتان وإفك مبین إلا ما استثني ولا يليق بالمسلم .

ومن واجب المسلم أن يحمي نفسه ويحمي إخوانه من قول كل عائب أو ثالب، ولا يجوز أن تكون أعراض المسلمين مادة للهو والعبث وقتل الوقت، فوقت المسلم وعرضه أثمن من ذلك بكثير، والقذف محرم إلا ما استثني في مسألتين .

١٥ - رتب الله على القذف ثلاث عقوبات بدنية وأدبية ودينية وذلك لعظم إثمه وكبر جرمه، فالمسلم كريم وعزيز عند الله ولا يجوز مسه بسوء إلا إذا استحق ذلك شرعاً .

١٦ - هل القذف من حق الله أو من حق الأدمي أو فيه شائبة من حق الله وشائبة من حق الأدمي خلاف بين العلماء في ذلك والرأي الأخير أرجح .

١٧ - الصحيح المشهور من أقوال العلماء أن رسول الله - ﷺ - حد أهل الإفك بعد نزول آيات البراءة لعائشة رضي الله عنها .

١٨ - عائشة أم المؤمنين بريئة مطهرة بنص القرآن الكريم وكذا غيرها من أمهات المؤمنين فكذا وقذفهن بعد نزول آيات البراءة كفر عند كثير من العلماء حيث أنه قدح فيهن وقدح في رسول الله - ﷺ - وهو منزه عن قول كل عائب أو متنقص، وفي الذروة من كل شيء، فصلوات الله عليه وسلامه .

١٩ - وهناك ناحية أخرى للخير في هذا الحادث وهو أنه سبب زيادة عظيمة في قوانين الإسلام وأحكامه وقواعده للحياة الاجتماعية، وقد تلقى فيه المسلمون من الله تعاليم إذا عملوا بها سلم مجتمعهم من نشوء المنكرات والفواحش، ومن السهل تداركها إذا نشأت^(١) .

٢٠ - كان حديث الإفك خيراً عميماً على المسلمين وشرّاً مستطيراً على المنافقين أعداء الدين، فكان من هذا الخير أن كشف الله للجماعة الإسلامية عن منهج الله القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم، وعلمهم هذا المنهج بالتجربة العملية القاسية، لتكون نبراساً يهتدى به المسلمون السائرون على نهج رسول الله وأصحابه إلى يوم الدين^(٢) .

(١) تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي / ١٣٥ .

(٢) منهج سورة النور في إصلاح النفس والمجتمع / الدكتور كامل سلامة الدقس / ١٦٩ .

ولعله من المفيد أن نربط بين حديث الإفك وبين ما يحدث في عصرنا الحديث من موجات عارمة تحاول تدمير المجتمع الإسلامي بنشر ألوان من الترهات التي لا أساس لها من الواقع .

ونجد صنوفاً من ذلك فيما تبثه وكالات الأنباء والإذاعات والصحف المغرضة التي أخذت تصور أكاذيبها ودسائسها كأنها صور حقيقية . . . وما موقف المستشرقين إلا صور ناطقة من صور الدس على الإسلام والكيد له لبث الفرقة وتشتيت الشمل وتصوير الإسلام ورجاله في صور لا تليق بمقامهم الرفيع ، مما ألهف مجتمع هذا العصر الداعر الذي لا يهيمه سوى تحقيق أغراضه الحقيرة التي تعتمد إلى بث الفرقة كما كان يفعل سلفهم .

ولقد نشط في الآونة الأخيرة أناس من المحسوبين على الإسلام اسماً والمنتهمين في الواقع إلى أعداء الإسلام لتقديم نوع من الأدب الرخيص والوسائل المثبطة للهمم . . . وتفتر الإحساس والشعور حيال العقيدة ليحولوا دون الشباب والدراسات الإسلامية الواعية العميقة التي تشعرهم بقيمة العقيدة الإسلامية واستخلاص ما فيها من آداب رفيعة ومثل عليا .

وبهذا يتبين خطر وضرر الأفاكين والكذابين والمغرضين في مختلف العصور حيث أن كلمة السوء تترك أثراً سيئاً في بناء الأمة الإسلامية . . . فلا بد للمسلم من التأكد من مصادر الأخبار أيأ كانت والتثبت منها حيث أن الكلمة السيئة تسري سريان النار في الهشيم ، وبخاصة في الأوساط غير المحصنة إسلامياً حيث اعتاد بعض المسلمين وبخاصة السذج منهم التساهل في تناقل الأخبار دون التثبت من مصادرها ، لاسيما إذا كان المتحدث فيه غير محبوب لديهم فيقولون عليه ، وأحياناً يفترون ويهولون ويكبرون الخبر ولو كان حقيراً واهياً - لذا نجد الإسلام شدد في ذلك أيما تشديد ورتب على ذلك عقوبات رادعة بدنية وأدبية وأخروية . . . وما ذاك

إلا لكون المسلم عزيزاً وشريفاً عند الله ولا يجوز أن يكون عرضه مادة أو سلوة للأفاكين والمغرضين، وهي آداب سامية صدرت من حكيم خبير عالم بمصالح البشر وما يسعدهم دنيا وأخرى بصر الله المسلمين بدينهم وهداهم سواء السبيل . . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرس الآيات القرانية

صفحة البحث	السورة	رقمها	الآية
١٣	إبراهيم	١١	﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾
١٤	القصص	٥٦	﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾
١٧	إبراهيم	٢٠١	﴿ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات﴾
٢٠	البقرة	٥-١	﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله
٢٢	النساء	٨٢	لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾
٢٢	محمد	٢٤	﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾
٢٢	آل عمران	٧٧	﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم﴾
٢٣	الحديد	١٧، ١٦	﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾
٣١	الإسراء	١٠٠	﴿إذا لأمسكتم خشية الانفاق﴾
		١٣٨، ١٣٧	﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم
٤٢	النساء	١٣٩	ازدادوا كفراً.﴾
٤٧	الحشر	١٤-١١	﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم.﴾
٦٢	النور	٦٢	﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله.﴾
٦٢	الأحزاب	١٠	﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم.﴾
٦٩	التوبة	٦٦	﴿إن نغف عن طائفة منكم نعذب طائفة.﴾
٧٦	التوبة	٦٤	﴿إن الله مخرج ما تحذرون.﴾
٨٢	البقرة	١٤	﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا.﴾
٨٢	البقرة	١٦	﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى.﴾
٨٥	البقرة	٢٠، ١٩	﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق.﴾
٨٩	الأَنْفَال	٤٩	﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم.﴾
٨٩	محمد	٢٩	﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض.﴾
٩٠	غافر	٥٦	﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾
٩٠	الفتح	٢٦	﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية.﴾
٩٢	البقرة	١٢	﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾

صفحة البحث	السورة	رقمها	الآية
١٠٠، ٩٦، ٩٥	النساء	١٤٥	﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ...﴾
٩٥	المنافقون	٣، ٢، ١	﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ...﴾
٩٧	التوبة	٨٠	﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾
١٠٠	الأحزاب	٥٧	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾
			﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
١٢٢	القصص	٥٦	مَنْ يَشَاءُ﴾
١٣٧	الحشر	١٥-١١	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا...﴾
٢٢٠، ١٨٣	النور	١١	﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ...﴾
٢٢٢	الحجرات	١٢	﴿أَجِبْ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾
٢٣٦	التحل	١٠٥	﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾
٢٨٤	النور	٢٣	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾
٣٠٠	النور	١٥	﴿إِذْ تَلْقَوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ...﴾
٩١	المؤمنون	٦٣	﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ...﴾
١٠٠	النساء	١٣٨	﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾
٩٠	التوبة	١٢٩	﴿ثُمَّ انصرفوا صرف الله قلوبهم...﴾
			﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى
٩٠	البقرة	١٠	أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ...﴾
٢٤	فصلت	٥٣	﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ...﴾
٢٠	البقرة	١٣٨	﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾
٨٣	البقرة	١٨	﴿صَمَّ بِكُمْ عَمِي فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ...﴾
١٩	النساء	٦٥	﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمَكَ...﴾
٩٠، ٨٩	البقرة	١٠	﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا...﴾
٨٩	المائدة	٥٢	﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾
٩٥	المنافقون	٣	﴿فَطَعَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَفْقَهُونَ...﴾
٩٠	الزمر	٢٢	﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ...﴾

صفحة البحث	السورة	رقمها	الآية
			﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾
٩٠	الحج	٤٦	﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . . .﴾
٩١	الصف	٥	﴿فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه . .﴾
٩١	التوبة	٧٧	﴿نصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾
١٤٤	يوسف	١٨	﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾
٢٨٤	النور	٤	﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾
٣٠٥	النساء	٢٥	﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾
٢٤، ١٣	الإسراء	٨٨	﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا﴾
١٦	طه	١٢٥	﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾
١٧	المائدة	١٥	﴿قد يعلم الله المعوقين منكم . . .﴾
٤٤	الأحزاب	١٨	﴿قلوبهم منكروهم مستكبرون . . .﴾
٩٠	النحل	٢٢	﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾
١٢٨	آل عمران	١٣، ١٢	﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾
١٣٨	آل عمران	٢٦	﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . . .﴾
٢٢	ص	٢٩	﴿كلّاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾
٩٠	المطففين	١٤	﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح . . .﴾
٤٢	النساء	١٤١	﴿لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا . . .﴾
٦٣	المائدة	٨٢	﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . .﴾
٨٢	البقرة	١٥	﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾
٨٩	الأحزاب	٦٠	

صفحة البحث	السورة	رقمها	الآية
٩١	الأنبياء	٣	﴿لا هية قلوبهم وأسروا النجوى...﴾
١٢١	الأحزاب	٢١	﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾
١٣٩	التوبة	٤٢	﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾
٢٢٢	المنافقون	٧	﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله...﴾
٢٨٤	النور	٢٣	﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾
٣٤١	الزمر	٦٤	﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه
١٧	النحل	٩٧	حياة طيبة﴾
٤١	النساء	١٤٣	﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾
٨٤	البقرة	١٨، ١٧	﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً...﴾
١٣١	آل عمران	١٧٩	﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾
١٣٧	الحشر	٦، ٥، ٤، ٣، ٢	﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها﴾ ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم
٢٥	الجمعة	٢	آياته﴾
٦٤	الأحزاب	١١	﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾
٧٣	المنافقون	٧	﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله...﴾
٢٦، ٢٥، ٥	الأنبياء	١٠٧	﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾
١٥، ١٤	الإسراء	١٥	﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا...﴾
١٧	الشورى	٥٣، ٥٢	﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا...﴾
١٨	طه	١٢٤	﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾
١٨	النور	٥٥	﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾
٢٠	النحل	٣٠	﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم﴾
٢١	هود	١٧	﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾
٢٢	آل عمران	١٨٧	﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب﴾

صفحة البحث	السورة	رقمها	الآية
٤١	البقرة	٢٠٥، ٢٠٤	﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾
٤١	البقرة	٢٠٦	﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾
٦٤	الأحزاب	١٣-١٢	﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما
٤٧	البقرة	٢٠-٨	هم بمؤمنين﴾ ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين
٤٨	التوبة	١١٠-١٠٧	المؤمنين . . .﴾
١٠٨، ٤٩	المنافقون	٤	﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . . .﴾
٥٩	آل عمران	١٦٨-١٦٦	﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله . . .﴾
٦٤	الأحزاب	١٩-١٣	﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب . . .﴾
٦٦	التوبة	٤٩	﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني . . .﴾
٦٧	التوبة	٨٢، ٨١	﴿وقالوا لا تنفروا في الحر . . .﴾
٧٠	التوبة	٦٦، ٦٥	﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . . .﴾ ﴿والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا
٧٤	المنافقون	٧	يفقهون﴾
٧٤	الأنفال	٣٠	﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾
٧٥	محمد	٣٠	﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم﴾
٧٧	النساء	٦٤	﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله﴾
١٠٨-٧٧	التوبة	٨٤	﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾
٨١	البقرة	٩، ٨	﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر . . .﴾ ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما
٨٣	البقرة	١٢، ١١	نحن مصلحون . . .﴾
٨٣	البقرة	١٣	﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾
٨٧	الإنسان	٢٤	﴿ولا تطع منهم أثما أو كفورا . . .﴾
٩١	الأنعام	١٢٥	﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾

صفحة البحث	السورة	رقمها	الآية
٩٠	الكهف	٢٨	﴿ولا تطع من أغلفنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . . .﴾ ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . . .﴾
٩١	الزمر	٤٥	﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . . .﴾
٩١	التوبة	٤٥	﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة . . .﴾
٩١	الأنعام	٢٥	﴿ولا تكتنموا الشهادة، ومن يكتنمها فإنه آثم قلبه﴾
٩١	البقرة	٢٨٣	﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾
٩٤	البقرة	٨	﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله﴾
٩٥	النساء	١٤٠	ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره
٧٧	التوبة	٨٥ ، ٨٤	﴿وعد الله المنافقين والمنافقات . . .﴾
١٠١	التوبة	٦٨	﴿وومن حولكم من الأعراب منافقون . . .﴾
١٠١	التوبة	١٠١	﴿ولا تक्रهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا . . .﴾
١١٧	النور	٣٣	﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . . .﴾
١٢١	الأنبياء	١٠٧	﴿وإنك لعلى خلق عظيم . . .﴾
١٢١	القلم	٤	﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . . .﴾
١٢١	آل عمران	١٥٩	﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . .﴾
١٢٢	الحجرات	١٠ ، ٩	﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم . . .﴾
١٤٠	آل عمران	١٥٤	﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين . . .﴾
١٩٩	النور	٢٢	﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾
٢٢٠ ، ٢١١	النور	١١	﴿والذين يرمون المحصنات . . .﴾
٣٢٧ ، ٣٢٥ ٣١٣	النور	٤	﴿ومن أصدق من الله حديثا . . .﴾
٣٢٥ ، ٣٢٠ ٢٣٦	النساء	٨٧	﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾
٢٣٦	مريم	٤١	

صفحة البحث	السورة	رقمها	الآية
٢٣٦	الزمر	٦٠	﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾
٢٧١	النساء	١٥	﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم . . .﴾
٣٠٠	النور	١٦	﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا﴾
٦	التوبة	٣٢	﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . . .﴾
١٨	المنافقون	٤	﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو﴾
٢٥	المائدة	٣	﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي . . .﴾
١٠١	الحديد	١٥، ١٣	﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات . . .﴾
٨٧	الحديد	١٢	﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم﴾
١٠٠	التوبة	٧٣	﴿يأياها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾
			﴿يأياها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى
١٢٧	المائدة	٥٣، ٥٢، ٥١	أولياء . . .﴾
٣٣٧	النور	١٧	﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا . . .﴾

فهرس الأحاديث

الصفحة	الحديث
٣٦	«آية المنافق ثلاث»
٤٤	«ادع الله أن يرزقني مالا»
١١٩	«إن النبي - صلى الله عليه وسلم - ركب حماراً عليه أكاف»
١٨٩	«إن الرسول - ﷺ - لما استشار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في الأمر قال»
٢٨٤	«اجتنبوا السبع الموبقات»
١٠٣	«ترعد له أذن أنف كثيرة بيثرب»
١٧٤	«رميت بما رميت به ، وأنا غافلة»
١٨٨	«فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بريرة»
١٦٥	«كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه»
٧٨	«لما أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ بالعقبة فلا يأخذها أحد»
٩٦	«لا يحل دم امرئ مسلم»
١٤٤، ٩٧	«لما توفي عبدالله بن أبي»
٩٨	«لما مرض عبدالله بن أبي»
٩٩	«لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»
١٢١	«لو أتيت ابن أبي متألفاً له»
١٧٥	«لما خاض الناس في أمر عائشة»
٢٠٠	«ما علمت عليه إلا خيراً»
٢٠٠، ١٧٣	«وكان رسول الله - ﷺ - قد سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال»

فهرس العلم



الصفحة	الاسم
٤٤	- أبو أمامة الباهلي : صدى بن عجلان .
١٩٠	- أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري .
٦٩	- ابن أبي إسحاق .
٨٢	- ابن أبي حاتم .
٧٦	- أبو بكر الأصبم .
١٨١، ١٧٩، ١٧٢	- أبو بكر الصديق . رضي الله عنه .
٢٩٩	- أبو الأعلى المودودي .
٣١٩، ٣٠٧	- أبو حنيفة : النعمان بن ثابت .
٣٢٧	- أبو داود : سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأسدي السجستاني .
٣٢٨	- أبو حيان : يحيى بن سعيد بن حيان .
٣٢٧	- أحمد بن حنبل .
٣٣٩	- الألويسي .
٣٠٥	- الأوزاعي .
٣٠٠	- ابن تيمية .
٢٤٥	- ابن كثير .
١٨٧	- أسامة بن زيد .
٧٢، ٤٦	- أوس بن قيطي .
١٧٣	- البخاري : الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة .
٤٤	- ثعلبة بن حاطب الأنصاري .
٦٦	- الجعد بن قيس .
٧٢	- جد بن عبدالله بن نبتل بن الحارث الطائي .
١٧٤	- جلال الدين السيوطي .
٢٦٤	- جواد علي .
٦٥	- حذيفة بن اليمان .
٧٢	- الحارث بن سويد .
١٨٩	- حسان بن ثابت .
٢٠٠، ١٨٩	- حمزة بنت جحش .
٣٢٠	- حامد عبدالله ربيع .
٩٩	- الخطابي .

الصفحة	الاسم
١٧٣	- ربيعة بن أبي عبدالرحمن .
٦٧	- زيد بن اللصيت من بني قينقاع .
١٧٣ ،	- زينب بنت جحش أم المؤمنين .
٢٠٩	- الزهري : محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب .
٢٧٥	- زاهية قدورة .
٦٥	- سعيد بن جبير .
٧٢	- سعد بن زرارة .
٧٢	- سويد بن داعم .
٧٢	- سلامة بن الحمام من بني قينقاع .
٣٣٦ ، ٣٢١	- سيد قطب .
٢١	- الشعبي : عامر بن شراحبيل .
٢٠٣	- شهاب الدين العسقلاني : أحمد بن علي بن حجر .
٢٤	- الصاغاتى .
٢٠١ ، ١٩٤	- صفوان بن المعطل .
٣٢١	- الصابوني : محمد علي الصابوني .
٩٨	- الطبراني : أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .
٣٠٥	- عمر بن عبدالعزيز .
٢٤١	- عبدالله بن جحش .
٢١	- عكرمة .
٥٥	- عباد بن بشر .
٧٦	- عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب .
١٨٩	- عمر بن الخطاب .
٨٢	- عبد بن حميد .
٨٢	- عبدالله بن مسعود .
٩٤	- علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن .
١٠٧ ، ٣٧	- عبدالله بن أبي بن سلول .
١٢٧	- عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي .
١٧٣ ، ١٦٥	- عائشة أم المؤمنين .
١٧٣	- عبدالله بن الزبير بن العوام .

الصفحة	الاسم
١٨٨	- علي بن أبي طالب .
١١٩	- عبدالله بن رواحة .
٢٠٩	- علقمة بن أبي وقاص .
٧٠	- قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري .
٧٢	- قيس بن فهد .
٧٢	- قيس بن عمرو بن سهل .
١٧٣	- القاسم بن محمد بن أبي بكر .
٣٠٥	- قبيصة بن ذؤيب .
٧٢، ٤٥	- معتب بن قشير .
١٩٩، ١٨٩	- مسطح بن أثانة .
٢٠٩	- محمد بن إسحاق .
٢٧٢، ٢٧٠	- محمد عباس العقاد .
٢٧٥	- محمد حسين هيكل .
٣٠٥	- مالك بن أنس .
٣١٩	- محمد بن ادريس الشافعي .
٣٠٥	- محمد بن حزم الظاهري .
١٧٣	- هشام بن عروة .
٦٩	- وديعة بن ثابت .
١٩٣	- الوليد بن عقبة بن أبي معيط .
١٧٣	- يحيى بن سعيد .



العراج



مسلسل	المرجع
١	أسد الغابة . لعز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية .
٢	الاصابة في معرفة الصحابة . للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ . مكتبة الكليات بالأزهر الطبعة الأولى .
٣	الأعلام . لخير الدين زركلي . الطبعة الثالثة .
٤	امتناع الأسباع . للمقرئزي (٨٤٥) تصحيح محمود شاکر (ط ١٩٤٠م)
٥	أنساب الأشراف للنسابة المؤرخ الشهر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري مؤسسه الأعلمی للمطبوعات . بيروت لبنان ١٣٩٤هـ
٦	الاستيعاب على هامش الاصابة . للحافظ أبي عمر يوسف عبدالله بن محمدي النمري القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣هـ - الطبعة الأولى سنة ١٣٣٨هـ .
٨	الأغاني . لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين بن محمد القرشي المتوفى سنة ٣٥٦هـ - طبعة سنة ١٣٨٩هـ .
٩	الانصاف علي الزمخشري .
١٠	الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف . علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرادوي . - دار إحياء التراث العربي - بيروت . سنة ١٣٧٧هـ .
١١	أحكام القرآن . لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ . - الحلبي . مصر .
١٢	أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي - مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر .
١٣	الأحكام السلطانية للماوردي
١٤	البداية والنهاية لابن كثير - طبعة أولى سنة ١٩٦٦م مكتبة المعارف بيروت - والنصر بالرياض .
١٥	بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي المتوفى سنة ٥٨٧هـ - طبعة ثانية سنة ١٣٩٤ .
	دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان
	ومطبعة الإمام ١٣ شارع محمد كريم بالقلعة بالقاهرة .
١٦	بداية المجتهد ونهاية المقتصد - لأبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد أحمد بن رشد القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥هـ - البابي الحلبي سنة ١٣٧٩هـ .
١٧	البحر المحييط - لأبي حيان التوحيدي .

مسلسل	المرجع
١٨	تاريخ خليفة . خليفة الخياط (٢٤٠) تحقيق أكرم ضياء العمري دار القلم - بيروت ١٣٩٧هـ
١٩	تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري .
٢٠	تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠هـ . المؤسسة المصرية العامة سنة ١٣٧٤هـ .
٢١	تاج العروس من جواهر القاموس اللغوي - محب الدين أبي العيص السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي
٢٢	تفسير القرآن العظيم لابن كثير . ج ١ الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ .
٢٣	تفسير القاسمي .
٢٤	تفسير أبي السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم دار الفكر للطباعة والنشر .
٢٥	تهذيب التهذيب . للإمام الحافظ الحجر شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ - دائرة المعارف . حيدر آباد الدكن سنة ١٣٢٥هـ
٢٦	التفسير الكبير للفخر الرازي . طبعة أولى - المطبعة البهية المصرية .
٢٧	تفسير البيضاوي . للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى سنة ٧٩١هـ .
٢٨	تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس للشيخ حسين بن محمد الحسن الديار بكري - مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع - بيروت .
٢٩	تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . دار الفكر ١٣٩٩هـ .
٣٠	تفسير سورة النور . لأبي الأعلى المودودي - دار الفكر بدمشق .
٣١	تاريخ الإسلام لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان . الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ .
٣٢	تفسير آيات الأحكام للصابوني - مكتبة العربي - دمشق .
٣٣	التقريب . إبراهيم بن محمد بن أحمد البرماوي - القاهرة بولاق - سنة ١٢٩٦هـ .
٣٤	التسهيل لعلوم التنزيل . للإمام الحافظ أبي القاسم محمد بن أحمد ابن جزى الكلبي الغرناطي - تحقيق عبد المنعم اليونسي ، إبراهيم عطوة .

مسلسل	المرجع
٤٩	زاد المعاد في هدي خير العباد - لشمس الدين بن عبدالله محمد بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ. - مطبعة الحلبي - مصر - سنة ١٣٦٩هـ.
٥٠	الزوائد في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني - القاهرة - المكتبة السلفية
٥١	زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي
٥٢	القرشي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٦هـ. - المكتب الإسلامي - دمشق - طبعة أولى السيرة النبوية لابن هشام - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - الحلبي - القاهرة - سنة ١٣٥٥هـ.
٥٣	السيرة النبوية - لأبي الحسن علي الندوي - طبعة دار الشروق - صفر - سنة ١٣٩٩هـ.
٥٤	سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي - لعبدالمملك بن حسن
٥٥	بن عبدالمملك القصاص المكي - المتوفى سنة ١١١١هـ - الطبعة السلفية بالروضة - مصر. سيرة الرسول ومعالمها من القرآن الكريم والسنة المطهرة.
٥٦	تأليف محمد إسماعيل إبراهيم. السيرة الحلبية من إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون للإمام علي بن برهان الدين الحلبي - المكتبة الإسلامية.
٥٧	السيرة المكيّة - لزيني دحلان
٥٨	السيرة النبوية والآثار المحمدية - لأحمد زيني دحلان على هامش السيرة الحلبية - المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٠هـ.
٥٩	السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - لأبي شهبه محمد بن محمد - دار الأنوار
٦٠	السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين - الخطيب.
٦١	سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأسدي المتوفى سنة ٢٧٥هـ.
٦٢	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني. للإمام محمد بن عبدالباقي الزرقاني - ط . أولى.
٦٣	الشرح الكبير للشيخ: الإمام شمس الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي - المتوفى سنة ٦٨٢هـ. ط . دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع - بيروت لبنان سنة ١٣٩٢هـ.
٦٤	صفوة التفاسير - محمد علي الصابوني - دار القرآن - بيروت - سنة ١٤٠١هـ.
٦٥	صفات المنافقين - لابن قيم الجوزية - طبعة المكتب الإسلامي - دمشق.
٦٦	صحيح البخاري لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري

مستلسل	المرجع
٦٧	لصارم المسلول للإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن الشيخ عبدالحليم بن مجد الدين عبدالسلام عبدالله بن أبي القاسم المعروف بابن تيمية ط . سنة ١٩٧٥ م .
٦٨	صحيح مسلم - للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري دار إحياء التراث العربي - طبعة ١٣٧٥ هـ .
٦٩	الصحاح - لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي .
٧٠	الصحيح المسند من أسباب النزول - مقبل بن هادي الوادعي .
٧١	الصديقة بنت الصديق - عباس محمود العقاد - مصر .
٧٢	الطبقات الكبرى - لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المتوفى سنة ٢٣٠ هـ - دار صادر - بيروت
٧٣	عارضة الأحوذى بشرح جامع الترمذي لابن العربي - أبي بكر محمد بن عبدالله دار العلم للجميع - بيروت .
٧٤	العبر في خبر من غير - الذهبي أبي عبدالله محمد بن أحمد (٧٤٨) هـ .
٧٥	تحقيق : صلاح الدين المنجد - دار المطبوعات - الكويت سنة ١٩٩٠ م . عون المعبود للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم أبادي سنة ١٣٨٨ هـ تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان - المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
٧٦	عائشة أم المؤمنين - دكتورة / زاهية قَدُورَة .
٧٧	عقد الفرائد وكنز الفوائد - لمحمد بن عبدالقوي
٧٨	غزوة الأحزاب - محمد أحمد باشميل - دار الفكر ١٣٩١ هـ - الطبعة الثالثة
٧٩	فتح الباري - شرح صحيح البخاري - للحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني - ط . أولى سنة ١٣٠٠ هـ - المكتبة السلفية - بيروت - لبنان .
٨٠	فتح القدير ، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - تأليف : محمد ابن علي بن محمد الشوكاني . المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ - ط . دار الفكر - بيروت .
٨١	فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبدالرؤف المناوي على كتاب الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير . للسيوطي - دار المعرفة - بيروت .
٨٢	الفتوحات الإلهية - بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية . تأليف : سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمال المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ . الباي الحلبي - بمصر .
٨٣	الفتح الرباني - ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني مع شرحه بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني - أحمد عبدالرحمن البنا - دار الشهاب - القاهرة .

مسلسل	المرجع
٨٤	في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق ١٣٩٥هـ .
٨٥	فتح القدير - للإمام كمال الدين محمد بن عبدالواحد السيواسي ثم السكندري المعروف بابن الهمام الحنفي المتوفى سنة ٨٦١هـ . الأميرية - ببولاق - القاهرة سنة ١٣١٦هـ .
٨٦	فقه السنة - للشيخ سيد سابق - مكتبة الآداب بمصر .
٨٧	الفقه على المذاهب الأربعة - عبدالرحمن الجزيري . مكتبة الآداب التجارية بمصر سنة ١٩٧٠م .
٨٨	فقه السيرة - محمد الغزالي - طبعة دار الكتب الحديثة سنة ١٩٧٦م .
٨٩	قصص القرآن - محمد أحمد جاد المولى - البابي الحلبي وشركاه - مصر - سنة ١٣٩٩هـ .
٩٠	القاموس المحيط للفيروزبادي .
٩١	الكامل لابن الأثير - دار الفكر - بيروت - سنة ١٣٩٨هـ .
٩٢	الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . لأبي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة ٥٣٨هـ . دار المعرفة . للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .
٩٣	لسان العرب لابن منظور
٩٤	لباب النقول في أسباب النزول - السيوطي - دار إحياء العلوم بيروت - سنة ١٩٧٨م .
٩٥	لباب التأويل في معاني التنزيل - للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن . - مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٤هـ .
٩٦	مقدمتان في علوم القرآن : مقدمة كتاب المياني ، ومقدمة ابن عطية . آرثر جفري - مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ .
٩٧	مختصر سيرة الرسول - ﷺ - للشيخ محمد بن عبد الوهاب
٩٨	مقاييس اللغة - لابن فارس .
٩٩	مجموعة التوحيد - للإمام المحدد محمد بن عبد الوهاب وبعض أبنائه وأحفاده - مكتبة الرياض الحديثة .
١٠٠	من مفردات القرآن (المنافقون) - د/ محمد جميل غازي - مكتبة المدني - جدة .
١٠١	مختصر تفسير ابن كثير - اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني . دار القرآن الكريم - بيروت - سنة ١٤٠٢هـ .
١٠٢	المنافقون وكتاب الله - محمد عبدالله السمان .

مسلسل	المرجع
١٠٣	الغازي - للواقدي . - محمد بن عمران بن واقد - المتوفى سنة ٢١٧هـ . تحقيق الدكتور/ مارسدن جونز عالم الكتب - بيروت
١٠٤	مجمع الأمثال - للميداني - المتوفى سنة ٥١٨هـ . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار المعرفة - بيروت - لبنان .
١٠٥	مسلم بشرح النووي - للإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي . دار الفكر - بيروت - سنة ١٣٩٨هـ .
١٠٦	مسند الإمام أحمد - للإمام أحمد بن حنبل الشيباني . المكتب الإسلامي - بيروت .
١٠٧	المواقف القرآنية إزاء المنافقين - محمد عزة دروزة
١٠٨	المغني - لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي . مكتبة الجمهورية العربية - شارع الصناديقية بالأزهر - القاهرة .
١٠٩	المقنع - للإمام موفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي . الرياض - سنة ١٤٠٠هـ .
١١٠	المحلي - لابن حزم . - أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم . المتوفى سنة ٤٥٦هـ - مكتبة الجمهورية سنة ١٣٨٨هـ .
١١١	مقدمة ابن خلدون - للعلامة ابن خلدون - دار إحياء التراث العربي .
١١٢	معجم مقاييس اللغة - لأبي الحسن أحمد بن فارس زكريا - المتوفى سنة ٣٩٥هـ . تحقيق عبدالسلام محمد هارون - دار الكتب العلمية - إيران .
١١٣	المعارف - لابن قتيبة - أبي محمد عبدالله بن مسلم - المتوفى سنة ٢٧٦هـ . دار المعارف بمصر .
١١٤	مروج الذهب ومعادن الجوهر - لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ . - دار الفكر - بيروت - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .
١١٥	مسند أبي يعلى الموصلي أحمد بن علي بن المثنى (٣٠٧) الجامعة الإسلامية (مخطوط)
١١٦	مختار الصحاح - لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي المتوفى سنة ٦٦٦هـ .
١١٧	مدارك التنزيل وحقائق التأويل - للعلامة عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي بهامش الخازن سنة ١٣٧٤هـ . المتوفى سنة ٨٠٣هـ - حيدر آباد الدكن ١٣٦٢هـ .
١١٨	مشكل الآثار - لأبي المحاسب يوسف بن موسى بن محمد - المتوفى سنة ٨٠٣هـ . حيدر آباد الدكن ١٣٦٢هـ .
١١٩	معجم البلدان - لياقوت الحموي . شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي البغدادي - بيروت سنة ١٣٧٦هـ .

مسلسل	المرجع
١٢٠	مقدمة في العلوم السلوكية - د/ حامد عبدالله ربيع .
١٢١	المبدع في شرح المقنع - لأبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبدالله ابن محمد بن مفلح . المؤرخ الحنبلي - المتوفى سنة ٨٨٤هـ .
	المكتب الإسلامي - دمشق سنة ١٣٩٩هـ .
١٢٢	المحرر - للشيخ حمد الدين أبي البركات .
١٢٣	منار السبيل في شرح الدليل - للشيخ إبراهيم بن حمد بن سالم .
١٢٤	المهذب - للشيرازي .
	أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي - المتوفى سنة ٤٧٦هـ .
١٢٥	المدونة الكبرى - للإمام مالك بن أنس - دار صادر - بيروت .
١٢٦	المبسوط - لشمس الدين السرخسي - دار المعرفة - بيروت - سنة ١٣٩٨هـ .
١٢٧	المجموع - شرح المهذب - للإمام أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي . المتوفى سنة ٦٧٦هـ .
١٢٨	منهج سورة النور في إصلاح النفس والمجتمع - للدكتور كامل سلامة القدس طبعة ٢ - دار الشروق - جدة .
١٢٩	التفاهة - آثاره ومفاهيمه - للشيخ عبدالرحمن الدوسري . دار الأرقم - الكويت - سنة ١٤٠٠هـ .
١٣٠	التفاهة والمنافقون - لإبراهيم علي سالم . مطبعة حسني بالقاهرة .
١٣١	النهاية في غريب الحديث والأثر - للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد الجزري بن الأثير - المتوفى سنة ٦٠٦هـ - المكتبة الإسلامية
١٣٢	نهاية المحتاج - لشمس الدين محمد بن العباس الشهر بالشافعي الصغير . مطبعة الحلبي - مصر - سنة ١٣٨٦هـ .
١٣٣	الهدى النبوي - لابن القيم .
١٣٤	«وفاء الوفا» بأخبار دار المصطفى .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١١	المقدمة
١٣	المبحث الأول : في بيان كون القرآن المعجزة الخالدة
	المبحث الثاني : معالجة القرآن لأحداث الحياة وأنه يحسم فيها حمساً
١٩	قاطماً
٢١	عناية السلف بالقرآن الكريم
٢٤	أحقية القرآن
	الباب الأول :
٢٧	في النفاق : مظاهره ودوافعه، وفيه أربعة فصول
	الفصل الأول :
٢٩	في معنى النفاق وآثاره في المجتمع الإسلامي
	وفيه ثلاثة مباحث
٣١	المبحث الأول : في معنى النفاق لغة وشرعاً، وفيه مطلبان
٣١	المطلب الأول : في معنى النفاق في اللغة
٣٦	المطلب الثاني : في معنى النفاق في الشرع
٣٩	المبحث الثاني : في بواعث النفاق
٤٠	المبحث الثالث : في أهم صفات المنافقين
	الفصل الثاني :
٥١	في المنافقين وأهدافهم في الكيد للإسلام وتحطيم مقومات المسلمين . وفيه سبعة مباحث
٥٣	المبحث الأول : في أسلوب المنافقين لإضعاف الجبهة الداخلية
٥٨	المبحث الثاني : في موقف المنافقين في غزوة أحد
٦١	المبحث الثالث : في موقف المنافقين في غزوة الأحزاب
٦٥	المبحث الرابع : في موقف المنافقين في غزوة تبوك
٧١	المبحث الخامس : في تأمر المنافقين في العقبة
٧٣	المبحث السادس : في سياسة التجويع التي انتهجها المنافقون
٧٥	المبحث السابع : في تمييز المنافقين
	الفصل الثالث :
	في موقف القرآن من المنافقين والمتآمرين على الإسلام وعمرى خططهم وكشفها
٧٩	لرسول ﷺ وفيه خمسة مباحث
٨١	المبحث الأول : في موقف القرآن الكريم من المنافقين

الصفحة	الموضوع
٨٤	المبحث الثاني : في أمثال المنافقين في القرآن الكريم
٨٨	المبحث الثالث : في اهتمام القرآن بأمر النفاق والمنافقين
٨٩	المبحث الرابع : في المنافقين مرضى القلوب
٩٤	المبحث الخامس : في أحكام المنافقين
٩٤	- هل المنافق كافر؟
٩٥	- هل المنافق يقتل؟
٩١	- هل تقبل توبة المنافق؟
٩٧	- حكم الصلاة عليهم إذا ماتوا
٩٩	- هل المنافق يورث
١٠٣	- السبب في عدم قتل المنافقين وآراء الأئمة في ذلك
	الفصل الرابع :
١٠٥	في موقف عبدالله بن أبي من الدعوة إلى الإسلام
١٠٧	- عبدالله بن أبي بن سلول
١٠٨	- ظهور عبدالله بن أبي
١١٠	- ميل الأوس والخزرج إلى الوثام وترك الحروب
١١٠	- عزم الجانين على تنويع عبدالله بن أبي ملكاً على المدينة
١١٢	- مغالطات ولفسوس
١١٣	- ابن أبي وأعماله العدائية ضد الإسلام والمسلمين
١١٦	- ابن أبي واشتغاله بالبغاء
١١٧	- ابن أبي وتظاهره الكاذب بالإسلام
١١٨	- مواقف ابن أبي العدائية للرسول ﷺ
١٢١	- مثال من كرم النبي - ﷺ - وخبث ابن أبي
١٢٢	- عبدالله بن أبي وابنه عبدالله
١٢٣	- ابن أبي وجمعه للأشقياء من أمثاله والتفافهم حول اليهود
١٢٤	- تظاهر ابن أبي بالإسلام بعد موقعة بدر
١٢٦	- موقف ابن أبي في غزوة بني قينقاع
١٣١	- أعمال المنافقين في غزوة أحد
١٣٢	- ابن أبي بعد غزوة أحد
١٣٤	- موقف ابن أبي حول إجلاء بني النضير

الصفحة	الموضوع
١٣٨	- ابن أبي يوم الحديبية
١٣٨	- موقفه يوم تبوك
١٣٩	- مشاهير المنافقين
١٤٢	- نهاية عدو الله ابن أبي
١٤٢	- مرض ابن أبي
	الباب الثاني :
١٤٧	وفيه فصول
	الفصل الأول :
	الإفك : مفهومه ودوافعه وتخطيطه وصلته بالحرب النفسية المدمرة لأهداف
١٤٩	- الدعوة وفيه مباحث :
١٥١	المبحث الأول : في مفهوم الإفك
١٥٥	المبحث الثاني : في دوافع الإفك وتخطيطه
١٥٦	المبحث الثالث : في صلة الإفك بالحرب النفسية المدمرة التي يشعلها المنافقون
	الفصل الثاني :
١٦١	في تفاصيل حديث الإفك وما جاء في ذلك من روايات السنة المطهرة
	الفصل الثالث :
١٧٧	موقف الرسول - ﷺ - وكبار الصحابة من حديث الإفك وفيه ستة مباحث :
١٧٩	المبحث الأول : في موقف الرسول ﷺ
١٨١	المبحث الثاني : في موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه
١٨٢	المبحث الثالث : في موقف السيدة عائشة رضي الله عنها
	المبحث الرابع :
١٨٧	- موقف أسامة بن زيد رضي الله عنه
١٨٨	- موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه
١٨٩	- موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه
١٩٠	- موقف السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنه
١٩٠	- موقف أبي أيوب وزوجته
١٩٣	المبحث الخامس : في من خاضوا في الإفك
١٩٤	- حسان بن ثابت

الصفحة	الموضوع
١٩٩	- مسطح بن أثانة
٢٠٠	- حمئة بنت جحش
٢٠١	المبحث السادس : في صفوان بن المعطل الفصل الرابع :
٢٠٥	في المتأمرين في حديث الإفك من المنافقين وفيه مبحثان
٢٠٧	المبحث الأول : في المنافقين وحديث الإفك
٢٣١	المبحث الثاني : في العقاب البدني الفصل الخامس :
٢١٧	في آثار حديث الإفك من الناحية الإيجابية الفصل السادس : وفيه مبحثان
٢٣٠	المبحث الأول : في تعريف الإشاعة
٢٣٩	في الإشاعات في الوقت الحاضر الفصل الرابع :
٢٤٣	في توجيه القرآن الكريم للمسلمين إلى ما يجب أن يكونوا عليه من صمود إزاء أمثال هذا الحادث
	وفيه مبحثان :
٢٤٥	المبحث الأول : في الدليل الوجداني على البراءة
٢٤٨	المبحث الثاني : في البرهان الواقعي الفصل الأول :
٢٥٥	في شبهات المستشرقين والرد عليهم وفيه مبحثان :
٢٥٧	المبحث الأول : مقدمة في الاستشراق والمستشرقين
٢٧٠	المبحث الثاني : شبه المستشرقين في حديث الإفك وفيه ستة فصول : الباب الثالث :
٢٧٩	في جريمة القذف وصلتها بحديث الإفك وفي ستة فصول الفصل الأول :
٢٨١	في معنى القذف، ومدى انطباقه على حديث الإفك الفصل الثاني :
٢٨٧	في عقوبة القذف

الصفحة	الموضوع
	الفصل الرابع :
٣٠٩ في آراء الفقهاء في اعتبار القذف جريمة
	الفصل الخامس :
٣٢٣ في تنفيذ حد القذف فيمن خاضوا في حديث الإفك
	الفصل السادس :
٣٣٣ في براءة عائشة - رضي الله عنها - وحكم من قذفها أو غيرها من أمهات المؤمنين
٣٤٣ الخاتمة
٣٠٧ - فهرس الآيات
٣٥٣ - فهرس الأحاديث
٣١١ - فهرس الأعلام
٣١٩ - فهرس المراجع
٣٢٦ - فهرس الموضوعات
	الفصل الثالث:
٣٩٥ - في عقوبة القذف



مطابع المنزوق التجارية - الرياض
تلفون : ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣

